



السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر أهدافها وحدودها (1830-1962)

(تعليقات جزائرية على شبه-اعتراف فرنسي)

تأليف: كميل ريسلير

ترجمة وتعليق:
د. نذير طيار

سلسلة دراسات وكتابات ثقافية (29)

سلسلة تصدر عن دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني

المؤلف: كميل ريسلير

المترجم: د. نذير طيار

العنوان: السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر: أهدافها وحدودها (1830-1962).

التصنيف: نقد أدبي

الطبعة الأولى: أغسطس 2016

تصميم الغلاف: المبدع سراج وصفي

تصميم الكتاب ومراجعته لغويا: د. جمال الجزيري

الناشر: دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني

دار نشر إلكترونية مجانية لا تهدف للربح

للمراسلة لنشر أعمالكم في السلاسل المختلفة التي تصدرها الدار، الرجاء قراءة التعريف بمجموعة دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني لمعرفة مواصفات تجهيز الملف:

https://www.facebook.com/groups/Ketabat.Jadidah.Ebook.Publish/ers

وإرسال الملف وفقا لشروط النشر على إيميل د. جمال الجزيري أو على الخاص في صفحته على الفيسبوك:

elgezeery@gmail.com

https://www.facebook.com/gamal.elgezeery

الطبعة الأولى

1437 هـ -2016م

دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني
رقم الإيداع في دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني
2016/8/10/445

رقم الكتاب في السلسلة: 29
السلسلة: دراسات وكتابات ثقافية
المؤلف: كميل ريسلير
المترجم: د. نذير طيار
العنوان: السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر: أهدافها وحدودها (1830-1962).
التصنيف: نقد ثقافي
الطبعة الأولى: أغسطس 2016
عدد الصفحات: 472
الناشر: دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني
رقم الإيداع في الدار: 2016/8/10/445



بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى شيخ المؤرِّخين الجزائريين

الدكتور أبو القاسم سعد الله

مؤرِّخا ورساليًّا

نذير طيار

مقدمة المترجم

يمكننا أنْ نتحدث عن المشهد الأول من الصراع الفكري بالجزائر، حسب مالك بن نبي، ابتداء من سنة 1900م، حيث تَدْخُل إلى مسرح الأحداث شخصيَّتان هما: الشيخان الوقوران صالح بن مهنا وعبد القادر المجاوي، باعتبارهما أوَّل بطلين في الصراع الذي انطلق حينئذ ضد المرابطبن والخرافات، ثم تأتي شخصية ثالثة هي شخصية الاستدمار، التي تستعمل القوة فحسب، قبل أنْ تكتشف أنَّ الفكرة المراد إقصاؤها بقيت حية في الميدان، عبر صورة جديدة بوصفها فكرة مجرَّدة مستقِّرة في ضمير الشعب. وهنا يبدأ الفصل الثاني من الصراع الفكري، حيث سيلجأ الاستدمار إلى امتصاص القوى الواعية بأيِّ طريقة ممكنة، حتى لا تتعلق بفكرة مجرَّدة. ومن البديهي أنه سيحاول تعبئتها أولا لحساب فكرة متجسِّدة تجسُّدا تُصْبح معه أقرب منالا، لأنه بالإمكان مقاومتها إما بوسائل القوة أو بوسائل الإغراء. غير أنَّ الاستعمار لن يسلك، حسب

مالك بن نبي، هذا الطريق فقط، بل سوف يواصل في الوقت نفسه حربَه ضد الفكرة المجرَّدة بوسائل ملائمة فيها أكثر مرونة، ويستعين من أجل ذلك بخريطة نفسية للعالم الإسلامي: وهي خريطة تجري فيها التعديلات الضرورية في كل يوم، يقوم بها رجال متخصِّصون مكلَّفون برصد الأفكار: إنه يرسم خططه الحربية ويعطي توجيهاته العملية على ضوء معرفة دقيقة لنفسية البلاد المستعمَرة. معرفة تسوِّغ له تحديد العمل المناسب لمواجهة «الفكرة المتجسِّدة في مستوى الطبقة المثقفة، فيُقَدِّمُ للمثَقَّفين شعارات سياسية تَسُدُّ منافذ إدراكهم إزاء الفكرة المجرَّدة».

وفي مستوى آخر، تراه يُفَضِّل لغة الدين، لأنها تَسُدُّ بصورة محكمة منافذ الوعي إزاء الفكرة، في هذا المستوى. غير أننا في مستوى أدنى درجة، نراه يستغل جهل الجماهير، لينشئ حول الفكرة منطقةَ فراغٍ وصمتٍ لعزلها عن المجتمع، وهكذا حتى يصل إلى أحطِّ مستوى يستخدم سلاح المال، إذ يُكَوِّنُ لنفسه بهذه الوسيلة

صداقات، أو كما يعبرون عنه بلغة الحرب اتفاقات في البلاد المستعمَرة، تساعده على توجيه هجمات محكمة في الوقت المناسب على بعض القطاعات من الجهة الفكرية. ثم يزيد في إتقان خطته، فتراه يسدل ظلاما شاملا على تلك الجهة، كي يعزلها عن ضمير الشعب المستعمَر نفسه وعن الضمير العالمي. وبهذا يصبح وضع الأشياء، وكأننا في قاعة غارقة في الضوء، بينما يبقى المسرح ذاته غارقا في الظلام. تلك مسرحية مخرجها الاستعمار، وهذا المُخْرِج لا يريد أنْ يشاهد النظَّارة فعلا ما يجري على خشبة المسرح.

من اللافت أنَّ كتاب "الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة" للمفكِّر الجزائري مالك بن نبي، كان أول محاولة للمؤلِّف باللغة العربية، بعد الثورة التحريرية بثلاث سنوات ((1957). وإذا علمنا مدى صلة هذا الكتاب بكتابنا المترجم هذا، أدركنا إلى أيِّ مدى هو يقدِّم، من حيث شكله ومضمونه، مثالا تبسيطيا لحالة الصراع الثقافي بالجزائر بعد اندلاع الثورة التحريرية.

بعض ضعيفي النظر، لم يستسيغوا الأفكار الواردة في الكتاب آنذاك، واعتبروها صورة لـ "شكٍّ مرضي" في كل شيء، يعاني منه مفكرنا مالك بن نبي. بيد أننا، بعد كل ما سنقرأه في هذا الكتاب، لن نعتقد إلَّا جازمين بالنظرة الثاقبة، الآنية والمستقبلية، لهذا المفكر الكبير. علينا أن نستحضر، كل كلمة من تفاصيل هذه المقدمة، عن الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة، ونحن نقرأ كل عنصر من عناصر السياسة الثقافية الاستئصالية الفرنسية بالجزائر. وأبلغ ردٍّ على كثير من العنجهيات السياسية والفكرية الفرنسية في تلك الفترة، هو تسجيلها بتفاصيلها كدليل إثبات على الجريمة الشاملة.

لماذا هذا الكتاب؟

يكتسي هذا الكتاب أهمية بالغة من عدة جوانبَ، علينا أنْ نضعها نصب أعيننا ونحن نتصفَّحه:

أوَّلها: أنَّه بيان مختصر جديد لحقيقة الاستدمار وماهيته على الصعيد الثقافي، حقيقة يعرفها الجزائريون جيدا، وقد عبَّر عنها أمير البيان - العلاَّمة محمد البشير الإبراهيمي - قائلاً : «الاستعمار كلُّهُ رِجْسٌ من عَمَل الشيطان، يَلْتَقِي القائمون به على سَجَايَا خبيثة، ذو غرائزَ شَرِهةٍ، ونظراتٍ عميقة إلى وسائل الافتراس، وإخضاعِ الفرائسِ، وأَهَمُّ تلك الوسائل َقتلُ المعنويات، وتَخديرُ الإحساسات الروحية.»* وأضاف: «إنَّ الاستعمار القائم على الجنديِّ، والمعلِّم، والطبيب، والراهب، هَيكلٌ حيوانيٌّ يَمشِي على أربع...وإنَّ الاستعمار قد قَضَى بواسطة هؤلاء الأربعة على عشرةِ ملايين من البشر، فَرمَى مَواهبَهم بالتعطيل، وعُقولَهم بالخمود، وأذهانَهم بالركود، وأفكارَهم بالعقم، وأضاع

* جريدة البصائر سنة 1949. العدد 83.

على الإنسانية بضياعهم عشرَةَ ملايين من المواهب، والعقول، والأذهان، والأفكار، وهي رأسُ مالٍ عظيم كانت تستعينُ به- لولا الاستعمار- على الخيْر العام والمنفعة، وتنتفعُ به في إقامة دعائم المدنية، فَما أشْأَمَ الاستعمارَ على الإنسانية!!!..»...لأجل هذا... «يا معشر الجزائريين: إنَّ الاستعمار كالشيطان الذي قال فيه نبينا صلى الله عليه وسلم: ((إن الشيطان قد يئس أنْ يُعْبَد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أنْ يُطَاع فيما دون ذلك))، فهو قد خرج من أرضكم، ولكنه لم يخرج من مصالح أرضكم، ولم يخرج من ألسنتكم، ولم يخرج من قلوب بعضكم....»[**]..«وإنَّ الاستعمار شَرٌّ، ومحالٌ أنْ يأتيَ الشر بالخير، ومُحَالٌ أنْ يُجْنى من الشوك العنبُ»[***]... وقد أتى:«إلى هذا الوطن كما تجيء الأمراض الوافدة، تحمل الموت وأسباب الموت. والاستعمار سُلٌّ يحارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح»[****]...« جاءَ

[**] المصدر السابق.
[***] جريدة البصائر . عدد 4، ص: 1، 1947 .
[****] جريدة البصائر، . عدد 115، ص: 1، 1950.

الاستعمار الَّدنِسُ الجزائرَ يَحْمِلُ: السيفَ والصليبَ، ذلك للتمكُّن. وهذا للتمكين، فَملَكَ الأرضَ واسْتَعْبَدَ الرقابَ، وفَرضَ الجِزية، وسخَّر العقولَ والأبدانَ، ولو وقَفَ عند حدُود الدُّنيويات لقلْنَا: تلك هي طبيعةُ الاستعمار الجائع، تدفعه الشهواتُ إلى اللذات، فيجْرِي إلى مَداها وَيقف، وتدفعه الأنانيةُ إلى الحيوانيةِ فيلتقمُ ولا ينتقمُ، ولكنَّه كان استعمارًا دينيًّا مسيحيًّا عاريًّا»*****.

تلك حقيقة الاستدمار، التي سنطَّلع هنا، على جانب واحد منها فقط، هو الجانب الثقافي.

ثانيها: أن مؤلِّفة الكتاب **كميلْ ريسليرْ** Camille Risler فرنسية، من مواليد سنة 1975، وهذا يعني أنها من جيل لم يشهد الحقبة الاستدمارية الفرنسية للجزائر، كما أنها نشرت هذا البحث سنة 2004 خلال دراستها بمعهد التاريخ، في جامعة مونتريال (كندا)، الأمر الذي قد يُحَرّرُ البحث العلمي من أجواء الضغوط الإعلامية والفكرية والسياسية الفرنسية الممجِّدة لجرائم الاستدمار.

***** آثار محمد البشير الإبراهيمي. ج 3. ص 80. د ار الغرب الإسلامي 1997.

ورغم أنَّ هدف الكِتاب، كما تُقَرِّر صاحبته، هو: تسليط الضوء بـ "الجزائر الفرنسية"، على وجود عنصر تقليدي من السياسة الخارجية لفرنسا في العالم، منذ عصور الأنوار، ممثَّلا في استعمال ثقافتها لترسيخ تأثيرها، وخدمةِ مصلحتِها السياسية بمفهومها الواسع، على المدى البعيد جدا، بإمكاننا أنْ نعتبره اعترافا غير مباشِر من باحثة فرنسية بجريمة الإبادة الثقافية الفرنسية بالجزائر، في انتظار اعتراف السياسيين الفرنسيين بجريمة الإبادة الشاملة للجزائريين خلال الحقبة الاستدمارية. فهي لا تقوم بتوصيف المسألة على هذا النحو، كما تتجنَّب إصدار أي حكم قيمي، قد يدين أيَّ ممارسة سياسية أو ثقافية فرنسية، بل تتعامل ببرودة تامة أحيانا مع جرائم ثقافية بَيِّنة، ولكنَّها تقول ما هو أهمُّ من ذلك: تترك القادة الفرنسيين أنفسهم يقدمون اعترافاتهم، وتستخرج من الأرشيف الفرنسي المتعلق بالجزائر (أو الأرشيف الجزائري الذي تحتكره فرنسا)، جميع الأدلة المثبتة للحكم دون أن تنطق به. وهذا دون

أن ننكرَ، أنَّ كثيرا من هذه الأدلة مبثوث في بطون كثير من الكتب الجزائرية، وأنَّ كُتَّابا فرنسيين انتقدوا الممارسات الاستدمارية، على نحو غير استقصائي.

ثالثها: أنَّ هذا الكتاب هو أبلغ رد علمي فرنسي على جميع التصريحات الرسمية الفرنسية الممجِّدة للاستدمار، سِيَّما تصريح الرئيس الفرنسي **نيكولا ساركوزي** الذي جاء فيه : «إنَّ الوجود الفرنسي بمصر والجزائر والمغرب كان **حلما حضاريا** لا استعمارا»*. والذي قدَّم خلفيته الفكرية في تصريح آخر له، قال فيه : «إنَّ مأساة أفريقيا، تكمن في عدم دخول الإنسان الأفريقي إلى التاريخ بالقدر الكافي، الفلاَّح الأفريقي الذي جعل بقاءه متناغما مع الطبيعة، مثَلَه الأعلى في الحياة، لا يعرف إلا الإعادة الأبدية للزمان... في هذا المتخيَّل، حيث كل شيء يتكرر دائما، لا مكان للمغامرة الإنسانية ولا للفكرة التقدمية. في هذا العالم حيث تتحكم الطبيعة في كل شيء، يبقى الإنسان ثابتا وسط نظام

* الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي خلال حملته الانتخابية للرئاسيات في يوم 2007/5/5.

جامد، حيث يبدو كلُّ شيء مكتوبا سلفا. فلا الإنسان ينطلق نحو المستقبل، أبدا. كما لا ترد عليه، أبدا، فكرة الخروج من التكرار، لابتكار مصيرٍ ما لنفسه»**. لقد كان الاستدمار "من أسوأ الفترات في العلاقات الدولية، وكانت الجزائر في طليعة الضحايا لهذا النظام الجائر"***، ولقادة فرنسا من كل ألوان الطيف السياسي أنْ يقرروا تقديم تاريخ بلادهم السياسي والعسكري والثقافي بما يرضي صورتهم عن بلادهم، وللنوستالجيين والشوفينيين أنْ يختاروا المساحيق التي تخفي الحقائق وتحرِّف الوقائع، ولكنْ لضحايا الظلم والعدوان أن يرفضوا تبييض الجريمة*. وقد تصدى بعض الساسة والمفكرين الأحرار من الفرنسيين للتنديد بأسطورة مساهمات فرنسا المتعددة بالجزائر في المجالات العلمية والتقنية والإدارية والثقافية واللغوية،

** الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي بداكار – السينغال نهاية جويلية 2007.

*** الاستعمار بين الحقيقة التاريخية والجدل السياسي. أعمال ملتقى وزارة المجاهدين 2006. محاضرة الأستاذ عبد الحميد مهري. ص20.

* الاستعمار بين الحقيقة التاريخية والجدل السياسي. أعمال ملتقى وزارة المجاهدين 2006. محاضرة د.محمد العربي ولد خليفة. ص159.

أحصى منهم الأستاذ **كلود ليزو** ما يزيد عن 300 فرنسيا حرا، الذين حكموا على قانون تمجيد الاستعمار بقولهم: إنه ليس تاريخا بل هو ضد التاريخ**. وسنطلِّع في هذا الكتاب على هذه الحقيقة، ثقافيا، حيث تقول كل المصادر الفرنسية المستشهد بها هنا، أنَّ فرنسا لم تفكر أبدا في تقديم شيء واحد لمصلحة الجزائر، وكل ما فعلته كان لمصلحتها هي فحسب. قد يُشكِّل هذا الكتاب، من خلال بعض فصوله، مساهمةً متواضعة غير مباشِرة، في "فقه التحيز*** المعرفي الغربي"، على حد تعبير المفكر د.**عبد الوهاب المسيري**، أو دليلا جديدا على ما أسماه مفكرنا الكبير **مالك بن نبي** "الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة"****، أو وجها بيِّن الملامح، لما فصَّله الدكتور **غريغوار مرشو** في كتابه "مقدمات الاستتباع"***** ، أو تأكيدا علميا للخطاب

** المرجع السابق.

*** إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد. عبد الوهاب محمد المسيري. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. 1998.

**** الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة. مالك بن نبي. دمشق. دار الفكر. 2000.

***** مقدمات الاستتباع، الشرق موجود بغيره لا بذاته. غريغوار منصور مرشو. 1996.

الإدواردي****** النقدي للفكر الغربي، اللاَّموضوعي غالبا في قراءته للآخر. مع العلم، أنَّ هذا الكتاب لا يطرق إلا جانبا واحدا للاستدمار، هو سياسته الثقافية.

رابعها: أنَّ هذا الكتاب يضع أمام أعيننا وبشكل مُرَكَّزٍ، الترسانة الضخمة التي جنَّدتها فرنسا، والأدوات الجبارة، العلمية والإعلامية والثقافية والتربوية، التي استعملتها طيلة 132 سنة، كي تبقى بالجزائر إلى الأبد. وقد ظلت غير مُصَدِّقة بضرورة رحيلها عن الجزائر، حتى بعد اندلاع الثورة التحريرية الكبرى. كما ظلت التقارير المرفوعة إلى الحكومة العامة بالجزائر، متفائلة بنجاح المشروع الاستدماري سنوات بعد الثورة وإلى غاية إعلان الاستقلال. ولم يتحدث الكتاب إطلاقا عن التحركات الشعبية والجمعوية والحزبية الجزائرية إلا عند استدعاء السياق لذلك، لأن البحث مخصص، كما أسلفنا، للسياسة الثقافية الاستدمارية، ومنْ أراد أنْ يطَّلع

****** الاستشراق: المعرفة - السلطة – الانشاء. إدوارد سعيد. تحقيق كمال أبو ديب. 1993. بيروت. وكذلك : الثقافة والإمبريالية. إدوارد سعيد. ترجمة كمال أبو ديب. بيروت. دار الآداب .1998.

بالتفصيل على الفعل أو رد الفعل الجزائري، الشعبي والجمعوي والحزبي من منظور المستدمَر نفسه، فليفتح موسوعة شيخ المؤرخين الجزائريين الدكتور أبو القاسم سعد الله، فقد أحبَبْنا مرة أخرى، أنْ يدان الاستدمار بلسان واحدة منهم. لأجل هذا لا يحتوي الكتاب على أسماء القادة الكبار من صنَّاع الوعي الثقافي الذاتي بالجزائر، خلال المرحلة الاستدمارية.

خامسها: أنَّ هذا الكتاب رغم بعض مآخذنا القليلة عليه (**أنظر هوامشنا النجمية في الكتاب**)، يبقى نفعُه أكبر بكثير من ضرره. فهو يُبْرِزُ دون وعيٍ من صاحبته، عظمة الشعب الجزائري بعلمائه وقياداته ومجاهديه، حيث ثَبَتَت الأغلبية على دينها ولغتها رغم كل ما تعرَّضت له من إبادة شاملة. وأنا شخصيا، باعتباري واحدا من جيل الاستقلال، أنظر بعين الإكبار والإجلال لهذه الأغلبية، التي أنجبت رغم كل ذلك، عالما وأديبا وصحفيا بمقام أمير البيان الشيخ محمد الإبراهيمي، ومفكرا حضاريا كبيرا بمستوى مالك بن

نبي، وهما نموذجان رِسَاليَّان أُقَدِّمُهُما على سبيل المثال فقط، ولا نظير لهما في جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي. وشخصيا لا يثير في نفسي، حديثُ الكاتبة أحيانا عن مجد فرنسي بالجزائر في مرحلة معيَّنة، سوى إحساسٍ بالفخر والاعتزاز والكبرياء، لأن كل تلك الأوهام الفرنسية سقطت على أرض الواقع وانكشف زيفها لاحقا وإنْ ظلت مُعَشِّشة في بعض الرؤوس.

سادسها: أنَّ ورود بعض الأسماء الجزائرية الكبيرة، في ثنايا بعض الأحداث، لا ينقص من قدرها لدينا شيئا. وكما كانت السلطة الاستدمارية تعتقد توظيف بعض التحركات الثقافية لمصلحتها، فإن هؤلاء الكبار كانوا يتحركون بفعالية ضمن هامش ضيق جدا. والعبرة في كل هذا بالمضمون الفكري للعمل الثقافي المنجز: هل يخدم الثقافة الاستدمارية أم الثقافة العربية الإسلامية؟ هل يُكَرِّس مشروع الجزائر-الفرنسية أم يعمل بذكاء لهدف الجزائر العربية المسلمة؟.

سابعها: أنَّ القارئ سيكتشف بنفسه خواء النسق المعرفي الاستئصالي وبطلان كثير من أدلته، المستعملة لأجل الإبادة الحضارية للآخر، على لسان قادة فرنسيين استدماريين. لأجل هذا لن نكلِّف نفسنا بالرد على كثير من الدعاوى المتهاوية بداهة. وإلاَّ تطلب الأمر تأليف كتاب مواز للكتاب المترجم.

ثامنها: أنَّ الكتاب يكشف عن غير قصد، فضيلة كبرى من فضائل الثورة التحريرية الجزائرية الكبرى، لم تلق عناية كبيرة لدى الباحثين والعلماء، رغم مرور أكثر من سبع وأربعين سنة على استعادة الجزائر لسيادتها. سنتابع في هذا الكتاب تفاصيل المجزرة الفرنسية الرسمية بحق العلم والمعرفة، في شتى الاختصاصات والمجالات، من علم الآثار وعلم الأعراق والأنتروبولوجيا إلى اللسانيات وعلم ما قبل التاريخ، وهذا منذ احتلال الجزائر سنة 1830، وإلى غاية انتزاعها استقلالها بقوة السلاح العسكري والسياسي والثقافي. كما سنرى أيضا، كيف تصاعدت

وتيرة تلك المجزرة الوحشية الواقعة على الحقيقة العلمية والنزاهة المعرفية، مع اندلاع الجهاد الجزائري للمرة الأخيرة، ضد العدوان الفرنسي الجائر. وباختصار شديد نقول: لولا الثورة التحريرية الكبرى، التي انتهت بتوفيق من الله، إلى تحقيق النصر المظفَّر، لاستمرت جرائم الاكتشافات الأثرية، المرتكبة عن سبق إصرار وترصد، بأيدي الجمعيات الأثرية الفرنسية بالجزائر، وبتحريض من السلطات العسكرية والسياسية الفرنسية.

توضيح منهجي

أعترف أنَّ التصدي لترجمة كتاب من هذا النوع يتطلب شجاعة ودراية، بل هو مغامرة ثقافية تتطلب عدم الوقوع في محاذير كثيرة، وذلك من عدة نواحٍ:

أوَّلها: تعلُّقه بتاريخ الجزائر (الثقافي) خلال المرحلة الاستدمارية، وهي مرحلة دقيقة جدا بالنسبة إلينا كجزائريين، ومن أكبر المستحيلات العثور على فرنسي واحد، قد يقول كل الحقيقة بشأن المرحلة ولا شيء غير الحقيقة، سِيَّما بعد ما خطّه شيخ مؤرخينا الدكتور أبو القاسم سعد الله.

ثانيها: مجانبته في بعض الأحيان القليلة، للحقيقة التاريخية أو الرؤية التحليلية، المتبنَّاة جزائريا، وفي هذه الحالة لا يمكنني أنْ أخون النص الأصلي، بيد أني قادر على عرض رؤيتي بأدلتها المختصرة عبر **هوامشي النجمية (*)** المفتوحة خصيصا لذلك، في مقابل الهوامش **الرقمية** لصاحبة الكِتَاب **كميلْ ريسليرْ (سواء**

كانت نصوصها بالعربية أو الفرنسية). وفي ذلك فتح لحوار فكري هادئ سلاحه الحجة والدليل والإحالة على المصادر، لا غير، وتأسيسٌ لمنهج جديد في ترجمة بعض الكتب الأجنبية المنتمية إلى مجال العلوم الإنسانية المهمة. علينا أنْ ننتقل إلى مرحلة الهجوم الحضاري باقتحام ما يكتب عنا والدخول معه في حوار هادئ راقٍ.

ثالثها: هناك كثير من المصطلحات التي علينا التدقيق جيدا في دلالتها، عند نقلها من الفرنسية إلى العربية، نكتفي بذكر الأمثلة التالية:

- ارتأينا أن نترجم الكلمة الفرنسية colonialisme إلى كولونيالية، إشارةً إلى المضمون التاريخي، كما فضَّلنا ترجمة colonisation إلى **استِدْمار** في كثير من الأحيان للمضمون الدلالي السلبي، المعبِّر صراحة عن حقيقة هذا الشيطان، وإيحاء كلمة **استعمار** بمضمون إيجابي مناقض لتلك الحقيقة. ورحم الله عالمنا الكبير مولود قاسم نايت بلقاسم رحمات

واسعة. والشيء نفسه فعلناه مع جميع مشتقات الكلمة، فالكولون colons هـمُ المستدْمِرون (بكسر الميم)، والمستدمَرون (بفتح الميم) هُمْ les colonisés..إلخ. وفي ذلك تذكير دائم بالوجه الحقيقي لهذا الشيطان، حتى لا ننخدع ببعض ما يسميه البعض "أعمالا إيجابية" تُنْسَبُ إليه في فترة ما، فكل تلك الأعمال كما يؤكِّد هذا الكتاب صراحة، خيرٌ ظاهرٌ جزئيٌّ يهدف إلى تحقيق شرٍّ خفيٍّ محضٍ. مع حرصنا في هذه الحالات على تسجيل المصطلح الفرنسي والمصطلح العربي جنبا إلى جنب.

- اخترنا ترجمة مصطلح Algérianisme بـ "المدرسة الأوروبية بالجزائر"، وتلك هي حقيقة المصطلح، ولا علاقة لها بالجزأرة، إطلاقا، إضافة إلى ما قد يوحي بها هذا الأخير، مِنْ إرباكات معرفية كثيفة، نتيجة بعض مضامينه الحركية الحديثة.

تمهيد

تُعَدُّ دراسةُ السياسات الثقافية، باعتبارها محورَ السياسات الخارجية، شأنًا في طريقه إلى تحصيل ألقاب الشرف في مجال تاريخ العلاقات الدولية. ويُثير انتشارُ الثقافة في الدائرة الدولية الفضولَ، بعد زمن طويل، من التدقيق في مضمون التبادلات الدبلوماسية؛ وبعد زمن قصير، من تحوُّل الاقتصاد والبُنَى الاجتماعية والمؤسسات والذهنيات والعلوم، وكذا «قوى عميقة» كثيرة أخرى في الحياة الدولية، إلى موضوعٍ لاهتمامٍ مسنودٍ. الثقافةُ بوصفها أثرا مُشِعًّا، ثم الثقافة باعتبارها وسيلةً للتحكُّم وأداةً للسياسة الخارجية التي تديرها الدول عن وعي.

سياسةٌ ثقافيةٌ تُوضَع للمدى البعيد، هي أكثرُ مِنْ حملةٍ دقيقةٍ لأجل هدفٍ آنيٍّ: هي مسارٌ للاختراق الثقافي واللغوي والعاطفي، للسحر، والتسلل، وللاستئثار بالخيالات، بلْ لتجريد المجتمع المستهدَف مِن شخصيته،

هي تعملُ في السر وعلى المدى البعيد داخل القواعد الذهنية للجماعات. وليست الغايةُ السياسية، في هذا الشأن، أقلَّ بروزا، مهما بدت بعيدة أو غير مُعَرَّفةٍ. « لا يمكن للسياسة الثقافية، حسب **كميلْ ريسلير** Camille Risler، باعتبارها عنصرا في السياسة العامة، إلا أنْ تتطوَّر تبعا لهذه الأخيرة، ووفق الأسس الإيديولوجية نفسها». استدراج الآخر إلى التحالف والرضوخ والإذعان، تلكَ هي الأهداف التقليدية للسياسة الخارجية. وتُضاف الاستفادةُ من خدمات الركائز الثقافية، إلى الشبكة الكلية للأدوات المستعمَلة على الساحة الدولية.

مَنْ سيندهش، لو علم أنَّ الدول، منذ أمدٍ بعيد، «جعلت من الثقافيِّ» أمرا خارجًا عن حدودها؟ تنبثق دراسة السياسات الثقافية والبعد الثقافي للسياسات الخارجية، بصفتها حقلا في طور الاستصلاح ضمن تاريخ العلاقات الدولية، لِتُسَلِّطَ الضوء على واقع ظل

مجهولا لفترة طويلة، وتحيطَ بطابعه الإشكالي، وتُعرِّفَ متغيراتِ المنهجية الخاصة بهذا الاختصاص الجزئي.

السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر؟ ولكنَّنا لسنا مُهَيَّئين أبدا، لمباشَرة العلاقات الفرنسية الجزائرية من هذه الزاوية. ازدهار الاستدمار، والسير نحو التخلص منه، والحياة الاجتماعية، والثورات والحروب، تِلْكَ أُطُرٌ وموضوعات مألوفة لدى المؤرِّخ. أما الثقافة فلا تبدو إلا على الهامش، وإذا افترضنا الاهتمام بها فإنَّ مكانتها تظل ضعيفة. وهنا يكمن الابتكار في دراسة **كميلْ ريسلير** وكذا أهميتها وإسهامها. ولا نملِكُ، إلا أنْ نكون في غاية الامتنان لها، لتَحَرُّرها من المسالك المعهودة واكتشافها للجزء الثقافي من السياسة الفرنسية بالجزائر. ينفتح أمامَنا عالَمٌ جديد، بعيدٌ عن الريبة، مرسومٌ بدقة ورصانة، وصراحةٍ مُقْنِعة، هي فضلا عن ذلك مطبوعة بالتجرد المميِّز للعمل العلمي.

إنَّ التحديَ عظيمٌ: «تحليل المجموع، الذي يبدو للوهلة الأولى، منفصلا عن الحركات المباشَرة في مختلف مجالات الثقافة بتحريكٍ من الدولة، أو تحت رعايتها أو باستعمالٍ منها»؛ القيام بذلك «تبعا للمتطلبات السياسية والتحوُّلات الحاصلة في ظروف الحضور الفرنسي». يتمثل الموضوع في التحقق، إنْ كانت هذه الحركات «صادرةً فعلا عن رؤية كلية حاملة لمميزاتِ سياسةٍ ثقافية».

إنَّ الدراسة في معانقتها للمائة والاثنين والثلاثين سنة، من المرحلة الفرنسية في تاريخ الجزائر، ودون إغفالها لأي نشاط ثقافي، تجتاز تلك السنوات بخطوة مرِحة ومنتظمة، شعاعُها الهادي في ذلك هو مسألة العلاقة بين الحركة الثقافية والسياسة العامة. إنَّ تأكيدَ ملاءمة وصلاحية الإشكالية، المتعلِّقة بالتوافق القائم بين الحركة الثقافية والسياسة الكلية، يَنْتُجُ عنه تقسيمٌ جليٌّ قادرٌ على انتزاع انخراطنا فيه. وقد كان لشعارات السياسة الفرنسة الثلاث أو للأفكار المهيمِنة عليها وهي:

الإدمـــاج assimilation (1830-1870)، والتشـــارك association (1870-1939)، والانـــــــــــــــــدماج intégration (1939-1962)، نتـائجُ ثقافيـةٌ ملموسـة. وهكذا، تَتَمَفْصَلُ الأجزاءُ الثلاث حول موضوعات ذات آثار سياسية وثقافية في آن واحد.

كانـت الثقافـة فـي وفـاقٍ مـع السياسـة، بـدءً مـن الفرنسـة الإدماجيـة فـي زمـن الغـزو، إلـى إيديولوجيـة صـهر الشـعوب المتوسِّـطية فـي عهـد القضـاء علـى الاستدمار، مع المرور ببدايات مراعاة الطابع العربي-الإسلامي للجزائر حينما كانت القبضة الفرنسية تشتدُّ. إذْ لكل سياسة عامة، سياسةٌ ثقافية موافقة لها. فالتصميمات السياسية والممارسات الثقافية، تتقارب وتتداخل وتتآزر فيما بينها. تكتشف **كميلْ ريسلير** «انسجاما شبه-منهجي بـين معنــى (ومبنــى) الحركـات المباشَـرة فـي مختلـف مجـالات الثقافـة، وبـين الصـياغة العامـة للسياسـة الاسـتدمارية الفرنسـية وفقـا للإيـديولوجيات المتعاقبـة المحـدِّدة لهـا». تُعَـيِّنُ السياسـةُ دائمـا، تَبَعًـا لعوامـلَ

متضافرة، الخيارَ في مجال الثقافة، ولهذه السياسة هدفٌ ثابتٌ هو ديمومة فرنسا بالجزائر. من اللائق إحالة القارئ إلى البرهان الدقيق والمنشِّط للمولِّفة عن التوتر الطارئ عند الانتقال من مرحلة إلى أخرى، والانفصال الواقع في نهاية المطاف بين الغاية السياسية والنتائج الثقافية.

هذا بيانٌ للطاقة الكامنة في تفحص السياسات الثقافية لصالح حقل العلاقات الدولية، وعودةٌ جريئة إلى التاريخ المضطرب للعلاقات الفرنسية-الجزائرية، ونموذجٌ للدراسات المستقبلية حول سياقات أخرى، ثنائية أو متعددة الأطراف... إنَّ كتاب **كميلْ ريسلير** هو كل هذه الأشياء مجتمعة.

سمير صول Samir Saul

أستاذ التاريخ المعاصر

جامعة **مونتريال**

خلاصة

أجادت* فرنسا دائما، بصفتها قوةً ثقافية رئيسية، استعمالَ تراثها لتعزيز إشعاعها في الخارج، وخدمةِ مصالحها السياسية تبعا لذلك. هذه الظاهرة معترَفٌ بها اليوم، وأصبحت تُدْرَس أكثر فأكثر ضمن سياق السياسة الخارجية أو التعاون الدولي، حيث تَكتَسِبُ بُعْدًا جديدا منذ نهاية الحرب الباردة وحلول الترابط البيني المعقَّد وثورة الاتصالات. مع أنها، تظلُّ تطرح معضلةً، على نحو أكبر بكثير، حينما نباشِر التاريخَ الشائك للاستدمار. في زمنٍ، تبدو الثقافة فيه، قد استعادت موقعها، باعتبارها عنصرا كامل العضوية في العلاقات الدولية، يبدو أنَّ من الضروري سدُّ هذه الثغرة، المستمرة وسط تاريخ الإمبراطورية الفرنسية. تقترح هذه الدراسة إذن، بحثَ هذا الجانب من السياسة الفرنسية، الذي لا يزال مجهولا.

* أجادت ذلك على نحو جزئي، وباستعمال وسائل غير مشروعة ولا حضارية، والعبرة هنا بالنتائج، إذ دُحِرَتْ وأُخرِجت من الجزائر، مع اعترافنا باحتلالها إلى حد الآن لكثير من العقول.

الإشكالية بسيطة، فالأمر يتعلق برسم مقابلة بين الحياة الثقافية لـ "الجزائر الفرنسية" وبين التوجه العام للسياسة الاستدمارية، لأجل أنْ نفهم، أخيرا، أنَّ السلطات العمومية أجادت التحرك في المجالات المختلفة للثقافة (التربية، الدين، اللغة، الفنون الجميلة، المسرح، السينما، وسائل الإعلام، المجال الاجتماعي-الثقافي...)، ولكنَّها أحسنت** كذلك، استخدام كثير من الحركات المتعهَّدة داخل هذه المجالات نفسها، عبر فاعلين خواص، لصالح هدف واحد، هو الحفاظ على موقعها بالجزائر أو تقويته ، تبعا للمتطلبات الإيديولوجية للسياسة الاستدمارية (إدماج أو تشارك أو اندماج). ولا يتعلَّق الأمر، رغم ذلك، بإصدار حكم قيمي على السياسة الفرنسية، وإنما بتسليط الضوء بـ "الجزائر الفرنسية"، على وجود عنصر تقليدي من السياسة الخارجية لفرنسا في العالم، منذ عصور الأنوار، ممثَّلا

** أنظر الهامش السابق.

في استعمال ثقافتها لترسيخ تأثيرها، وخدمةِ مصلحتها السياسية بمفهومها الواسع، على المدى البعيد جدا.

عبر تحليق، غير شمولي بالضرورة، للحياة الثقافية، لـ "الجزائر الفرنسية" في سياقاتها السياسية المتعاقبة، سندرك الوجود الفعلي لترابطٍ بين إرادة سياسية، وبين حركات ثقافية عمومية وخاصة، كانت خاضعة لها مباشرة أحيانا، أو في خدمتها كَرْها غالبًا. بعبارة أخرى، لقد أحسنت السلطات العمومية، تماما، كيف تستغل الأداة الثقافية لإدارة «سياسة ثقافية» حقيقية بالجزائر، سياسةٍ وإنْ أخفقت أهدافها السياسية مع الاستقلال، تبقى ناجحة من حيث أنَّ الجزائر بلدٌ ما تزال الثقافة الفرنسية متجذرةً فيه***، الأمر الذي يمنح فرنسا مزايا سياسية اليوم كذلك.

*** لا أعتقد أن هذا التقييم للواقع الجزائري الحالي دقيق، وعلينا كجزائريين أنْ نعملَ بكل ما أوتينا من قوة كي نبرهن واقعيا خطأ هذا الحكم.

مدخل عام

السياسة الثقافية، محاولة تعريف

لا يوجد تعريف محدَّدٌ، يُمَكِّن من إدراك الثقافة بكل تعقيدها. قد نفهمها منتوجًا فكريا وفنيا، ولكنها تتوافق بوجه خاص، مع مجموع المعايير السوسيو-ثقافية المؤسِّسة للهوية، والتي تعتبرها بعض مدارس علم الاجتماع «مصدرا ذاتيا للحركة» (**ڤيبر** Weber). إن هذين المستوييْن من التحليل مرتبطان ارتباطا وثيقا، وعلى كل دراسة ثقافية أن تُراعيَهما أيضا.

يَعتقِد علمُ اجتماع المعرفةِ، بشكل عام، أنَّ هوية الفاعلين ومصالحَهم، تُبنى ويُجدَّد بناؤها بوساطة معايير إيديولوجية وثقافية عبر مسار «التنشئة الاجتماعية socialisationوالإندماج» المسمَّى «البناء الاجتماعي للواقع»[1]. ومن السهل تكييف هذه المقاربة مع الدول[2]،

[1] Peter Berger et Thomas Luckman, *La construction sociale de la réalité*, Paris, Armand Colin, coll. "Références". Série Sociologie. 1996. pp.22-236.

[2] بوساطة مقاربة بنيوية أجراها Alexander Wendt وMartha Finnemore و Peter Katzensteinو Audie Klotz.

ذواتِ الخيارات «االـمَرِنة »[3] ، ويمكن تنشئتها اجتماعيا – مِثْلها مِثْل الأفراد -بوساطة مسار ثقافي لإعادة تحديد الهوية. ولكنْ، يتضح أنَّ إعادة صياغة هوية الآخر[4]، كنتيجة لـ «تدويل» المعايير الثقافية الجديدة، قد تعتبره الدول مصدرا مُهِمًّا للسلطة، إنْ هي توصَّلت إلى إعطاء الأولوية لتحقيقِ توافُقٍ، وديناميةٍ عن التعاون الاختياري[5]، مؤسَّسَةٍ على تقاسم المعايير المشتركة والمصالح المتقاربة. ويَعتقد **فرنون برودیل** Fernand Braudel بهذا الصدد، أنَّ "بالإمكان تعريف السلطة بوصفها قدرة كيانٍ معيَّن على ابتكار ظرفٍ في صالحه"[6].

وضِمْنَ هذا الأفق تحديدا، تتدرج السياسة الثقافية. مع التسليم بفرضية أنَّ الثقافة قد تُستخدَم حقيقةً لأهداف سلطوية، يكون من غير العسير إذنْ، كما يرى **ميشال**

[3] Martha Finnemore, *National interests in international security*, Ithaca & London, Cornell University Press, 1996.
[4] Roland Roberston, Globalisation, *Social Theory and Global culture*, London, Newbury Park & New Delhi, Sage Publications, 1992, p.44.
[5] Alexander Wendt, "*Constructing international politics*", *International security*, 20 (1), été 1995, pp.79-80.
[6] Cité dans Jean-Jacques Roche. *Théorie des relations internationales*. Paris, Montchrestien, 1994, p.40.

فوكو، تقبُّل أنْ "يكون إنتاجُ الخطاب، في كل مجتمع، في لحظة معينة، مراقَبًا، ومنتقًى، ومنظَّما وموزَّعا ثانية من خلال عدد مُعَيَّن من الإجراءات الهادفة إلى طمأنة السلطة، ورفع قدرتها على التحكم، وتطوير قوتها"[7]. تبدو السياسة الثقافية لدولة ما، عنصرا من عناصر سلوكها السياسي المتمثل في "تعريف الدولة وتنفيذها، لحقل الحركة الثقافية لمواطنيها ولمؤسساتها الوطنية، العامة والخاصة، التي يمكن الهيمنة عليها، بشكل مباشِر أو غير مباشِر، بهدف جَعْلها في خدمة سياستها، بالمعنى الواسع لهذه الكلمة"[8].

وتبقى الإحاطةُ بها، من أول وهلة، عسيرةً، لأنها تتكوَّن من مبادراتٍ متعددة في مجال الثقافة، لا تُفهم دائما باعتبارها مكوِّنات لمجموع واحد، وتتموقع في مجالات غير متجانسة ظاهريا كالدين والتربية واللغة والفنون الجميلة ووسائل الإعلام والأدب...فضلا عن

[7] Michel Foucault, *L'ordre du discours*, Paris, NRF, 1971, p.9.
[8] Albert Salon, *Vocabulaire critique des relations culturelles internationales*, Paris, La maison du dictionnaire, 1978, p.112.

ذلك، فإنَّ السياسة الثقافية بحكم تبعيَّتها للإرادة السياسية، تبقى مستقلة غالبا عن إرادة المنتِجين للفعل الثقافي (أساتذة، وعلماء آثار، ورسَّامين، وكتَّاب، إلخ..) الذين قد يتحوَّلون، دون علم، إلى أدوات لها. سنرى تحديدا، كيف يمكن للأدب أو الرسم أو العلم، مساعدةُ السياسة والاندماج فيها، بوصفهم عناصر مكوِّنة للسياسة الثقافية، وهذا دون وعي دائما من الفنان أو العالِم.

السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر

على الرغم من عدم انتماء الجزائر مؤسَّساتيا إلى الفرنكفونية، وعلى الرغم من الجهد الثابت للسلطات العمومية لتعزيز مسار التعريب منذ سنة 1962، ما تزال الجزائر تملك اليوم ألفة ثقافية قوية مع فرنسا. ويتجاوز التجذرُ العميق للانتماء الفرنسي بكثيرٍ المعيارَ اللغوي الذي لا يمثل إلا المظهر الخارجيَّ. إنَّ إطار الدلالة البين-ذاتي intersubjectif (أو مجموع المعايير والمراجع الثقافية) للجزائريين برمته، قد

أُشْرِبَ الثقافة الفرنسية. وقد دأبت فرنسا، بلا ريب، خلال مئة وثلاثين سنة من وجود المستدْمَرة colonie، على تيسير هذه الظاهرة، التي شكَّلت الشرط اللازم لحضورٍ لم يكن له طابع عسكري فحسب. لم تكن الفَرْنسةُ غايةً إيديولوجية*، بل كانت، بوجه خاص، أداةً سياسية، ضرورية لخلق الشروط المناسِبة للنظام. بإنشاء فرنسا لـ "لغة ثقافية معقولة"[9] قادرة على المساعدة في الفهم المتبادل، وبمحاولتها تفريغ الفضاء الثقافي "من كل جوهر مخرِّب أو محرِّر**"[10]، سعت فرنسا لصناعة تجمُّع للفكر والمُثُل وحتى المصالح، أيْ صناعة إجماع حول فكرة "الجزائر الفرنسية". تبدو الثقافة، من هذا المنظور، رهانا عظيما لدى السلطات العمومية بالحاضرة الفرنسية، وذلك لأنَّ السياسة الاستدمارية إنْ كانت، فلسفيا، مترددة بين فكرة التشارك

---

* للاطلاع على مناقشة هادئة لهذه الفكرة من جميع جوانبها، ماضيا وحاضرا. أنظر: الفرنكفونية مشرقا ومغربا. د.عبد الله ركيبي. دار الأمة.

[9] Yvonne Turin, *Affrontements culturelles dans l'Algérie coloniale, écoles médecines, religion*, 1830-1880, Paris, Maspero, 1971, p.413.

** مخرِّب لأحلام فرنسا محرِّر للجزائريين. وكل ما سيشكل لاحقا خطرا على فرنسا هو في مصلحة الجزائر المستقلة.

[10] Alain Calmes, *Le roman colonial en Algérie avant 1914*, Paris. L'Harmattan, 1984, p.35.

وفكرة الإدماج، على المدى البعيد" [...] فقد استمسك الحاكمون الفرنسيون باحترام مبدأ واحد: هو مبدأ الحفاظ على السيادة الفرنسية"[11]. بهذا المعنى، مِنَ المهم ملاحظةُ أنَّ السياسة الثقافية ورغم كونها مرسومة أكثر، ومهمة أكثر، لصالح السكان الأهالي*، فقد كانت موجَّهة كذلك إلى السكَّان الأوروبيين بالجزائر. ولأجل فهمٍ أحسن لظاهرة السياسة الثقافية، سيتعلق الأمر إذنْ، بضبطها بِكُلِّ تنوُّعها.

بتمثيل الولاة (أو عمال العمالات) préfets والحكام العامِّين Gouverneurs généraux على وجه الخصوص لحكومةِ الجمهورية على أرض شمال أفريقيا، كانوا موظَّفين فرنسيين في خدمة السلطة بفرنسا، رغم وجود صراعات متكرِّرة مع حاضرة فرنسية تحاول، كيفما كان، التحكمَ في محاولاتهم

[11] Charles-Rober Ageron (dir),*Les chemains de la décolonisation de l'Empire colonial français* – colloque organisé par l'IHTP les 4 et 5 octobre 1984, Paris, éd. du CNRS, 1986, p.17.

* ترجمة indigènes بـ"أهالي" هي ترجمة متسامحة، لأن غرض الفرنسيين من التسمية هو الحط الشنيع من قيمة الجزائريين، فهم دون الرعية ودون المواطنين. ومعنى أنديجين هو(الساكن الأصلي المتخلِّف). (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 276/6. طبعة البصائر2009.)

المعهودة للتحرر السياسي. كانوا هم أنفسُهم، ينحدرون في معظم الأحيان، من فرنسا البلد الأم، ولم تكن الجزائر بالنسبة إليهم سوى مرحلةٍ. لم تكن قراراتهم فردية بالتمام، أبدا، وكافحت الحاضرة الفرنسية لأجل إبقاء حق الرقابة على كل مبادراتهم، السياسية أو الثقافية. وكان، الحاكم العام تحديدا، يحيا في ظل الوزارة، وحتى بعد الإلحاق، كانت سلطته مختصرة في قاعدة "المبادرة والتنفيذ بالجزائر، والقرار والتحكم بباريس"[12]. ولمواجهة أيِّ احتمال، لم يكن اختيار الحُكَّام العامِّين يقع صدفة. كانوا غالبا، رجالا مُهِمِّين، أثبتوا مرارا وتكرارا ولاءَهم للدولة (وزراء، أكاديميون، مارشالات...) وحدَّدتْ تعيينَهم نواياهم السياسية بشأن الجزائر. وإنْ وقعتْ إصابتُهم بـ «ألم الجزائر» شبه المحتوم، وبدأوا في التجزأر، رغم تلك الاحتياطات، يمكن استدعاؤهم إلى باريس واستبدالهم. وهكذا، يجب أنْ نراعيَ، أنَّهم حتى إنْ حاولوا التلاعب بين الواقع

---

[12] Cité par Pierre Goinard, *Algérie, l'œuvre française*, Paris, Robert Laffont, 1984, p.346.

اليـومي والإرادة السياسـية، بـين مسـتدمِرين colons وحاضرة فرنسية، فقد كان على داعي المصلحة العليا دائما أنْ يحدِّد قراراتهم. يعكس كلُّ تاريخ المستدمَرة colonie هـذا المبـدأ الضـمني، المتمثِّـل فـي تمتـع الحاضـرة الفرنسية والحكام العامِّين علـى حد سـواء، بالأولوية في إبقاء الجزائر تحت السيطرة الفرنسية، أو فـي تعزيـز هـذه الرقابـة؛ وفـي هـذا الاتجـاه سـتكون المبـادرات المتخَـذة، مـن الطـرف الأول أو الثـاني فـي مختلف مجالات الثقافة، مقدَّرةً باعتبارها مساهمةً في سياسة فرنسا بالجزائر.

إنَّ السياسة الثقافية، بوصفها عنصرا في السياسة العامـة، لا يمكنهـا أنْ تتطـور إلاَّ وفقهـا وانطلاقـا مـن الأسـس الإيديولوجيـة ذاتهـا. ومِـنْ هنـا، لأجـل إدراك ظـاهرة السياسـة الثقافيـة بـالجزائر، مِـنَ اللائـق تحليـل المجمـوع، الـذي يبـدو للوهلـة الأولـى، منفصـلا عـن الحركات المباشَرة في مختلف مجالات الثقافة بتحريك مـن الدولـة، أو تحـت رعايتهـا أو باسـتعمال منهـا؛ تبعـا

للمتطلبات السياسية والتحولات الحاصلة في شروط الحضور الفرنسي. بإمكاننا، إذن، العمل للتحقق إنْ كانت تَصْدُر فعلا عن رؤية كلية لها مميزاتُ سياسةٍ ثقافية. يقترح التحليل الحالي المساهمةَ في هذه المهمة، بإجراء فحص تفصيلي للتوافق القائم بين حركة الدولة على المستوى الثقافي وبين التوجه السياسي الاستدماري من خلال المراحل الكبرى الثلاث للاستدمار.

1) كانت السنوات الأربعون الأولى من حياة "الجزائر الفرنسية"، رغم طابعها العسكري، أساسيةً على الصعيد الثقافي. فقد استولت فرنسا على أرض أجنبية لا يربطها بها أي رابط سلَفًا. كان عليها إذنْ، إيجاد مبرِّر لمشروعها. حاولت فرنسا إثبات الشرعية التاريخية لوجودها، سِيَّما إزاء الأهالي، وذهبت أبعد من المهمة التمدينية*، التي كانت تعزِّز الهيبة الدولية

* الرسالة التمدينية كذب وبهتان في مستوى النيات، وتجهيل وتفقير في مستوى النتائج. إنها مغالطة وتضليل. وهي مأساة إنسانية، وجريمة بالنسبة لمرتكبيها، لأن الاستدمار في الحقيقة احتلال بالقوة وابتزاز بالعنف. وهو ظلم وعدوان تسلط علينا. جرِّدنا من بلادنا وألحقنا بفرنسا تفككت مجتمعاتنا وشوهت هوياتنا وعوملنا باحتقار وجبروت في عقر دارنا...وكان الأمر في الجزائر أدهى وأمرّ، إذ كاد شعبها أن يفقد لغته ودينه لولا إرادته القوية في الحياة....حكمونا بالحديد والنار، بالرعب والتخويف، بالإبعاد والتشريد، والسجن، بالقتل والتعذيب، بالإهانة والتذليل. نهبونا، سلبونا، فقرونا، وجوعونا، وجهَّلونا، طمسوا هويتنا، وكلما احتج الأهالي اشتد العنف، وزادت

لفرنسا، وتشرعن هذه الحملة الواسعة، والمكلَّفة في عيون سكان الحاضرة الفرنسية، وتؤجِّج لديهم توجهاتٍ استدمارية coloniales. وكان هناك جهاز فكريٌّ واسع، يَضُمُّ مؤرِّخين وعلماء آثار وأنثروبولوجيين ولغويين، ويقدِّم، طوعا أو كرها، عناصر دعائية تدعِّمها وتستغلها السلطاتُ على نحو واسع. ولم يكن لسكان الجزائر الأصليين من وحدةٍ، غير الشعور بالانتماء إلى تجمع ثقافي مسلم، هو الأساس لكل التنظيم السوسيو-الثقافي والسياسي. وإذا كانت فرنسا تأمل في القضاء على الخطر الكامن واتقاء كل ثورة محتملة، فعلى هذه الأرضية إذنْ، كان يتوجب عليها إجراء عمل معمَّق للتهميش، والهدم والإرباك. انكبَّت السلطات على هذا العمل الذي لم تكن أهميته تغيب عن أحد. وفي مقابل هذا الإبطال للخطر، كان من الضروري تنفيذ ما سيبدو لاحقا شرطا لازما للإدماج الإداري، أيْ الفرنسة. كان

القسوة، وتعددت عمليات الإبادة. من ذلك أنهم حصروا الفارين الذين يلاحقونهم في الحهوف والمشاتي، ودفنوهم أحياء. وكانوا يغبرون البعض منهم إلى الجزر النائية، مثل **كايان** أو **كاليدونيا الجديدة**، حيث يموتون مرضا وجوعا وعطشا. (أنظر: الاستعمار بين الحقيقة التاريخية والجدل السياسي. أعمال ملتقى وزارة المجاهدين 2006. محاضرة الأستاذ الهادي بكوش. ص34-35)

على هذه الأخيرة أن تضمن، ليس اشتغالها العملي (بفضل اللغة) فحسب، وإنما كذلك استقرارها وديمومتها (بفضل ترسيخ بُنَى معيارية مؤيِّدة، «بطاقات ذهنية» فرنسية جديدة). كانت هذه الثورة الثقافية الطموحة، في نهاية المطاف، تتحكم في نجاح المشروع الاستدماري، ولهذا، بلا ريب، كان على فرنسا تنشيط كل الأدوات الثقافية المباشِرة أو غير المباشِرة الميسِّرة لتحقيق ذلك.

2) مع مجيء النظام المدني والجمهورية، سترتدي السياسةُ الاستدمارية قناعا جديدا. وفي منعطف القرن، بوجه خاص، ستتأكد في الأوساط السياسية، مبادئ إشراك الشعوب، وستُعدِّل فهمَ المسألة الاستدمارية في العمق. وُلِدت هذه الإيديولوجية بالجزائر، بالضبط، في فترة كانت فرنسا في ذروة هيمنتها، حيث يبدو الاستقرار السياسي محقَّقا، وحيث تستفيد المستدمَرة من رفاهية غير مسبوقة، كما تعرف الحياة الثقافية والفنية، تحليقا غير عاديٍّ، باعتبارها لازمة لهذه الرفاهية. في هذه الظروف، ستتخذ السياسةُ

الفرنسيةُ مظهرا جديدا. فقد وقع الانتهاء من الإدماج غير المتحفِّظ. وستتجه فرنسا، الواثقة بنفسها، عوضا عن ذلك، إلى محاولة إغراء المسلم الجزائري لجره إلى التعاون في ما كان يُعْتَبَر، أكثر فأكثر، إنجازا جماعيا ذا ثراء فريد، ممثَّلا في جزائرَ فرنسية ولاتينية ولكنها غنية بتنوعها الثقافي. تعكس السياسة الثقافية لهذه الفترة هذه المبادئ، التي كانت فرنسا تسعى إلى تطويرها تحديدا. وحين كان البحث يُواصِل عملَه المُشَرْعِن، والمدرسة الجمهورية تعزم على التكفل بأطفال الأهالي، على المقاعد نفسها التي يجلس عليها الأطفال الفرنسيين، وحين كانت اللغة الفرنسية تتقدم بوتيرة متسارعة، كانت ثقافة أهلية قد بدأت في النشوء. وبدفع من بعض الوجوه الكبيرة للحياة الفنية والثقافية، مِثْل الوجه الذي لا بدَّ منه، الحاكم **جونار** Jonnart. كان الطابع العربي-الإسلامي والقبائلي يترسَّخ على الساحة العامة ويلقى رسائل الشرف. ويتميز أَوْجُ هذه الحركة باحتفالات الذكرى المئوية. نشيد الفخر بالنجاح الفرنسي-الجزائري

المدعوم بدعاية ثقافية واسعة، والحامل في أحشائه لبذور الريبة الكاشفة للتصدعات الأولى الحاصلة في الصرح.

3) إنَّ الشكوك التي وُلِدت مع الذكرى المئوية، تفاقمت بسبب الحرب العالمية الثانية والدعاية الدولية لصالح حرية الشعوب. كان على فرنسا أن تلعب لعبة صعبة، إنْ رغبت في تحقيق الاحتفاظ بالجزائر. وسَتُسْتَدعى إيديولوجيةٌ جديدة لنجدة النظام، هي إيديولوجية انصهار الشعوب المتوسِّطية في جزائر مختلطة. كان الرهانُ كبيرا وتحقيقُه عسيرا، وكان على فرنسا، مثلما حصل في الفترة السابقة، أنْ تلعب على المستويين (ولكن بشكل أكثر أهمية)، أن تُلَفِّقَ بين، الفرنسة إلى أبعد حد، والاعتراف بالواقع العربي-الإسلامي، الذي لم يعد مُفَلْكَلَرًا ومبعَدًا إلى المحل الثاني، وإنما معتبرا بوصفه عنصرا كامل العضوية في الواقع الجزائري، بمستوى الانتماء الفرنسي نفسه. تلك مهمة صعبة، بل مستحيلة كذلك، إذا علمنا أنَّ داخلها بالضبط،

وُجِدت خمائر الوطنية المعادية لفرنسا. وهكذا، ستصبح السياسةُ الثقافية ملتبسةً، وعبر تناقضاتها، سَتُلْقي بضوء جديد على التنافرات الملازمة للنظام الاستدماري نفسه.

الجزء الأول

غزو الجزائر (1830-1870):

السياسة الثقافية وسياسة الإدماج

تَرَدَّدَت فرنسا التي استولت على الجزائر بشكل مباغت جدا، طيلة عشر سنوات، قبل أنْ تضع سياسة معرَّفة جيِّدا. تجلَّت الوضعية تدريجيا، خلال سنوات الأربعينيات من القرن التاسع عشر، وبينما كان الغزو العسكري يتواصل، كانت الجزائر تكتسب مجدا* وكان الاحتلال الشامل مبرمجا. لقد فهمَت فرنسا الجمهوريةُ المستدمَراتِ باعتبارها «أجزاء متمِّمة للجمهورية»[13]. ولكنَّ الشرط اللاَّزم لسياسة الإدماج الإداري والسياسة المعنية، ، تَمَثَّل في خلق إطار معياري متكيِّف، يمر عبر استيراد وتجذير الحضارة الفرنسية وثقافتها الخاصة؛ كان الواجب هو جعل الجزائر قطعة من

---

* مجدٌ لصالح الاستدمار الفرنسي لا الشعب الجزائري. و عن "نعمة الاحتلال" أنظر د.أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 270/6. طبعة البصائر2009.

[13] قسَّمتها إلى عَمَالات في دستور السنة الثالثة.

ملاحظة: عرضْتُ مختارة في هذا الكتاب أقواسا مزدوجة مختلفة، تبعا لتعلق الأمر باقتباس لشخصيات شاهدة من الفترة المعنية أومن مصادر («...»)، أو من دراسات محققة لاحقة ("...").

فرنسا بأتم معنى الكلمة. هذه السياسة، المشرعَنة تحديدا بواسطة الخطابات التمدينية، كانت تتطلب تفكيك بنية المعايير السوسيو-الثقافية التقليدية للمجتمع الأهلي، المترسِّخة في الدين الإسلامي الحاضن لها، لأجل السعي إلى تعويضها بإطار ذهني مُوَاتٍ لهيمنة فرنسية. لم يُغَيِّر مجيء الإمبراطورية الثانية هذا التوجه بشكل جذري. فنابليون الثالث، "قليل الاكتراث بمسألة المستدمَرات، أجرى مدفوعا بالظرف السياسي، تجربةً أولى: إيجاد وزارة الجزائر والمستدمَرات"[14]. استودعها قريبَه، وسيقيم هذا الكيان السياسي نظاما مدنيا للإدماج، فسَّره **كليمون دوفرنوا** Clément Duvernois، المستشار الرئيسي للوزير الجديد، بكلمات قليلةِ الالتباس:«منذ اليوم الأول، الذي وطأت فيه قَدَمُ الجيش الفرنسي الأرضية الجزائرية، تعرَّض العرب -كقومية- للمحو، وسيظل الأمر كذلك إلى اليوم الذي سيرحل فيه الجيش الفرنسي عن التراب

[14] Meynier et al., op. cit., Tome Ier, p.425.

الجزائري. وتتمثل التجليات الأخيرة لهذه القومية في: تشكُّلٍ قبَلَي، وإقطاع عربي، وتعددٍ للزوجات، وكلُّها عقبات علينا كسرها»[15]. سعى إذن، الإمبراطورُ الذي لاحظ سريعا فشل هذه السياسة في الإدماج، إلى إيجاد سياسة جديدة قادرة على تهدئة الاضطرابات، ولكنَّها مدبَّرة بذكاء وفقا للضرورات التي يفرضها السياق الدولي. " أصبحت الجزائرُ، بلدُ الهيمنة والحضارة العربيتيْن، نواةَ استيراتيجيةٍ عربيةٍ. كان **نابليون الثالث** يرغب في الظهور بصورة «سلطان العرب» بالجزائر، ومنقذِ «القومية العربية»، ووليِّ نعمة الإسلام"[16].لم يعد الإدماج الثقافي متأقلما، كان الواجب هو بناء جزائر مزدهرة، «نموذجٍ للعالم العربي» عبر التعاون الوثيق للأعراق والثقافات، التي عليها أن

[15] Clément Duvernois, *L'Algérie, ce qu'elle est, ce qu'elle doit être*, 1858. Cité dans Charles-Robert Ageron, *France coloniale ou parti colonial ?*, Paris, PUF, coll. «Pays d'Outre-Mer», 1979, p.192

[16] Meynier G. et al., *Histoire de la France coloniale*, Paris, Armand Colin, 1990, Tome I^{er}, p.462.

تنصهر في النهاية، كما يأمل السانسيمونيون* saint-simoniens الملهِمون لهذه الإيديولوجية الجديدة.

وهكذا تتأسس مذهبية «انصهار الأعراق»، المستنبطة من الإيديولوجية السانسيمونية، التي تبحث عن وضع حضارتين جنبا إلى جنب، بحيث تتداخلان لتتكاملا. «بالعيش وسط العرب، على قدم المساواة، وبقبولهم داخل عائلاتنا ودخولنا إلى بيوتهم، وبتقاسمنا معهم لأعمالنا وملذاتنا، سنحقق قريبا هذا الانصهار المرغوب. وستتمثل النقطة الجوهرية في تفضيل التحالفات المختلطة وإضعاف الأحكام الدينية المسبقة دون تهديم المعتقدات. ومن الممكن التوصل لذلك»،

* السانسيمونية، نسبة إلى المفكر الفرنسي الشهير سانسيمون Saint Simon (1760-1825)، أحد الدعاة الكبار لما عرف بـ"الاشتراكية الطوباوية". كان مذهبه يقوم على التنظيم العقلاني للاقتصاد والإدارة وعلى المشاريع الصناعية الكبرى لخير الكادحين، مع نزعة إنسانية مؤطرة ضمن ما أسماه سانسيمون نفسه بـ "المسيحية الجديدة"، المبنية على العلم والصناعة. لقد اعتقد سانسيمون في أواخر حياته أنه بُعِث رسولا لقيادة البشرية إلى عصر جديد، عصر الصناعة والسلم و"التشارك" ASSOCIATION على الصعيد العالمي. (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 6/437-441. طبعة البصائر2009.)

كما يؤكد أحد العارفين بالعالَمَ الجزائري، وأكثرهم استنارة، **پليسيي دو رينو** Pelissier de Reynaud.[17]

كان **نابليون الثالث**، الخاضع لخطاب **إسماعيل أوربان**[**] Ismail Urbain، يؤكِّد أنَّ «فرنسا المتعاطفة مع الأفكار ذات الصلة بالجنسية، ليس لها الحق في تحويل أهالي أفريقيا الشمالية إلى فرنسيين»، وكان يطالب الفرنسيين بـ «الاحترام المطلق لعقلية الأهالي وعاداتهم ووضعياتهم المحقَّقة». وبالجزائر العاصمة، كرَّر علنا للمسلمين سنة 1865 قوله:«لم تأت فرنسا كي تهدم قومية شعب..أريد أنْ أزيد من بحبوحتِكم، وإشراكَكُم أكثر فأكثر في إدارة بلدكم وفي خيرات الحضارة». كانت تلك، المسماة بسياسة

[17] Ibid., p.406.

[**] هو توماس أوربان الذي تَسمَّى (اسماعيل عربان). وكان من أتباع مذهب سانسيمون. وقد ذهب إلى مصر قبل الجزائر، واطَّلع على حياة الشرق واعتنق الإسلام. ثم جاء إلى الجزائر وأصبح من المترجمين البارزين في الإدارة الفرنسية، وارتقى حتى أصبح مترجم الإمبراطور نابليون الثالث. وألَّف عدة كتب ومقالات ودافع عن الجزائريين ضد الاستغلال الفاحش، ولكنه لم يعارض الاستعمار كوسيلة حضارية. وفي الجزائر تزوج عربان من امرأة مسلمة من قسنطينة. وعاش معها طويلا وأنجب بنتا. وقد مرضت زوجته ثم توفيت، فتزوج من امرأة فرنسية فاشترطت عليه الرجوع إلى المسيحية فرجع وتزوجها في مراحل حياته الأخيرة. (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 432/6، 441-447. طبعة البصائر2009.)

«المملكة العربية***»"[18]. ولكنَّ هذه الإرادة اصطدمت سريعا بعقبات متعددة. وكانت السياسة الجديدة قد وُلِدت مَيِّتة ولم يتمكن **نابليون الثالث** من تطبيق «ثورته الثقافية».

ستكون السياسة الثقافية الفرنسية، خلال هذه الفترة الأولى، محدَّدة بهذه التوجهات المتعاقبة على سياسة الجزائريين. في حكم الإمبراطورية الثانية، ستُبْذَل جهود لصالح التقارب الثقافي الفرنسي-الأهلي (في مجال اللغة العربية بوجه خاص). ولكنْ، يجب عدم إغفال أنَّ الفترة المعنية هي، بشكل خاص، فترة هيمنة الجيش، الذي يملك كل السلطات، وله هدف أول هو الغزو العسكري وإخضاع أرض أجنبية معادية. ستقرر الواقعية العسكرية إذنْ، قبل أيِّ اعتبار، ما ستكون عليه السياسة الثقافية. وستكون الثقافة مستخدَمة لأغراض استيراتيجيةٍ (المساعَدة على الغزو وشرعنته

*** تعبير ظهر في الستينات من القرن الماضي ويعني سياسة نابليون الثالث نحو المسلمين الجزائريين. محاولة تولية الأمير عبد القادر على الجزائر نيابة عن نابليون الثالث. وهي المحاولة التي عارضها المستدمِرون colonsبشدة.

[18] Citations dans Ageron, *France coloniale*…, p.192.

بفضــل دراســة الماضــي، وإضــعاف العــدو بــالتفجير الــداخلي لبنــاه التقليديــة)، وسياســيةٍ (إقامــة فرنســا بــالجزائر، أيْ لغتهــا وحضــارتها وقيمهــا ومعاييرهــا الثقافية)، وبشكل أشد مكرا، ستساعد الثقافة على تجذير «فكرة فرنسا» بالأذهان. هذه الفترة، بصفة عامة، هي فترة وضع الحضارة الفرنسية على أرض جزائرية غير موحَّدة*، يتعلق الأمر بإدماجها في فرنسا، ثقافيا وإداريا على حد سواء.

---

* أنظر هامشنا ص 28.

الفصل الأول

الاستكشاف، والمثقفون، والبحث العلمي:

أدواتٌ عسكرية وسياسية مساعِدة

كـان ارتيـابُ السـلطات العموميـة بشـأن مسـتقبل المستدمَرة الجديـدة، واللاَّمبـالاة التـي كانـت تبـديها تلـك السلطات، يُعَزِّزان الطابع العسكري لهذه الفترة الأولـى. فـالجيش الـذي كـان قويـا جـدا، سـيلاحظ قريبـا الإعانـة الاسـتيراتيجية والسياسـية الممكـن اسـتخراجها مـن الثقافـة. والمارشـال **سـول** Soult، وزيـر الحـرب، هـو الـذي أخـذ المبـادرة بــ «عَمَـلٍ يَهُـمُّ العرفـان والسـلطان معـا»[19] واقتـرَحَ علـى علمـاء أكاديميـة النقوش والآداب الجميلـة الانطـلاق فـي أحـد المشـاريع الفكريـة الكبـرى، التــي لـم تعرفهـا فرنسـا أبـدا، وهـو الاستكشـاف العلمـي للجزائر، الذي عليه أنْ يمكِّن من تشكيل علمٍ كاملٍ عن المسـتدمَرة. "لكــي تكـونَ البحـوث مُخْصِـبة، عليهـا أنْ

[19] Jacques Frémeaux, "Souvenirs de Rome et présence française au Maghreb : essai d'investigation", dans J.C. Vatin et *al*., *Connaissances du Maghreb – Sciences sociales et colonisation*, Paris, éd. Du CNRS, 1984, p.32.

تشكِّلَ عملا جماعيا، تدعِّمه الدولة، التي تملك وحدها الأدوات والزمن الضروري لضمان الاستمرارية"[20].

تحت الإدارة المباشِرة للسلطات إذن، وُلِدَت سنة 1837 لجنةٌ مكلَّفة بـ «البحث في الجزائر، عن كلِّ ما يمكن أنْ يَهُمَّ الآداب والفنون، وتجميعِه»[21]: "ليست المعرفة أبدا، كشفا ساذجا لواقع، يُطلَبُ اكتشافه، وليست معفاة من المصالح العملية أو الفردية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية [...] ليست هي اكتشافا لـ «حقيقة موضوعية»، وإنما هي ثمرةٌ لعلاقة بينية معقَّدة بين ذواتٍ وموضوعات، بين لغةٍ وواقع"[22].

ورغم أنها شكَّلت، فعلا، ثراءً لا نظير له، لصالح تقدم العلم والمعرفة، ورغم أن المحفِّز الفكري كان أساسيا ولا جدال فيه، إلا أنَّ الاستكشاف العلمي بالجزائر، كعمل ثقافي ضخم، يبدو متأثرا كذلك باستيراتيجية

---

[20] Gabriel Esquer, "La vie intellectuelle en Algérie", *Simoun*, 6ème année, nlle série, n°26, 1957, p.6.
[21] Arrêté du 12 août 1837, cité dans *Idid.*, p.7.
[22] François Leimdorfer, *Discours académiques et colonisation* – Thèmes de recherche sur l'Algérie pendant la période coloniale, Paris, Publisud, 1992, p.9.

عسكرية ثم سياسية، وبالتالي خادما، مباشِرا أو غير مباشِر، طائعا أو مُكْرَها، للمصالح.

أ. الإرث الروماني.

1. نموذجٌ للاستدمار

وَجَدَتْ السلطاتُ العسكرية الفرنسية، المقتنعةُ بإمكانية «تحصيل النفع والمجد من الموروث الروماني»[23]، في الدراسة التاريخية للغزو الروماني، نموذجًا فعَّالا للاحتلال. وبفضل علم الآثار، كان الفرنسيون يقتفون آثار أسلافهم المشهورين؛ يتحركون وفق خط السير نفسه، على طول الطرق العتيقة؛ يحتلون المناطق نفسها ويشيِّدون المواقع العسكرية والأنوية الاستعمارية في أماكن الجيش الإمبراطوري نفسها، متحجِّجين بأن خيار هذا الجيش كان مبرَّرا بوساطة مَعْرفةٍ جيِّدة بالمكان والرجال. ومن هنا، إذا كانت روما قد بنت مدينة بذلك الموقع، فهذا يعني احتواءه على نبع مائي؛ وهنا يجب أنْ تكون الأرض خصبة. ويقول وزير التعليم الرسمي سنة 1862:«كان هذا الشعب (الرومان) يجيد اكتساب الأشياء والحفاظ

---

[23] Frémaux *loc.cit,* p.36.

عليها؛ ولأننا نقف على موروثه، علينا أنْ ندرسَ جيدا كيف نجح في امتلاك ذلك بقوة»[24]. قام علماء الآثار والمؤرخون إذنْ، بعمل فكري من خلال فهرسة الآثار، واستخراج عناصر تاريخية جديدة من الماضي، تخصُّ الاحتلال الروماني، تأكيدا، ولكنَّهم خدموا في الوقت نفسه «حاجات استيراتيجية بديهية»[25] بإنتاج قواعد لتثمين التنظيم الإداري أو المالي أو الديني أو العسكري أو السياسي أو الزراعي أو الإقليمي.كانت التجربة الرومانية، فضلا عن ذلك، تُحْدِث شعورا بعدم الاغتراب، يُسَهِّل الغزو، "إن العثور من جديد على روما، يعني التآلف مع وسط غريب، عبر تجربة قابلة للنقل بسرعة ويُسْر، لأننا نشعر بها باعتبارها مطابقة ثقافيا"[26].

[24] AN F80 1733, Lettre de Duruy à Randon, ministre de la Guerre, 03/09/1962, Cité *ibid*. p.33.
[25] Philippe Lucas et Jean-Claude Vatin, *L'Algérie des anthropologues*, Paris, Maspero, 1975, p.16.
[26] Frémaux. *loc.cit.*p.40.

2. الشرعية التاريخية

ولكنَّ الماضي الروماني ساهم كذلك، في شرعنة الوجود الفرنسي تاريخيا، بحكم أسبقيته على الفتح العربي-الإسلامي، فقد أراد الفرنسيون أن يثبتوا أنَّ أفريقيا لاتينية. لقد كان الماضي الروماني يعزِّز الشعور بالقضية العادلة. جزَّأ التاريخ إذنْ، الحماسةَ القتالية للعسكريين ومَكَّن المستدمِرين من إيجاد الشجاعة للتوغل في تلك الأصقاع المعادية لأجل أنْ يَبْنوا بهمة إنجازاتِ أسلافهم التي سُلِبت منهم تحت أعينهم. وكان مسار الشرعنة التاريخية المدعَّم بعلم الآثار الكلاسيكي، خلال المرحلة الاستدمارية، حليفا مهمًّا لإقناع "الأهالي" بشرعية الوجود الفرنسي. كان تحديث آثار الحضور الروماني وحضارته، يُذَكِّرهم تذكيرا ماديا. وكان المستوى الرفيع للتطور الذي بلغه الرومان، يقابَل غالبا بجهل الغزاة العرب-المسلمين وطبْعهم التخريبي، وبينما كانت المعطيات المستقاة في البدء تتكاثر، "كانت المقابلة تشتد بين السلام الروماني

والرسالة التمدينية "[27]. سخَّرت السلطات كل شيء لتسليط الضوء على هذا الماضي اللاتيني المشرق لأفريقيا وربطه ثقافيا بفرنسا. وكانت النقوش اللاتينية تشتمل بهذا الصدد على فضائل عديدة، كما لاحظ ذلك الجنرال **فور-بيقي** Faure-Biguet:«نلتقي برجال، من العرب، يروننا نقرأ الحروف الرومانية كما نقرأ حروف لغتنا، وهم مقتنعون أن النصُب التذكارية التي نفكِّك حروفها المنقوشة هي من إبداعنا نحن أنفسنا. هم يرون أننا بمجيئنا إلى أفريقيا، نقوم باستعادة ثروتنا فحسب، أي استعادة بلد طردَنا منه أسلافُهم».[28]

3. تبرير سياسة القوة

ساهم الرجوع إلى روما أحيانا، حتى في تبرير اللجوء إلى القوة مع الأهالي، مع التذكير بأن العدو لم يقبل أبدا الخضوع، وأن البديل الوحيد الممكن هو

---

[27] James Malarkey. "*The dramatic structure of scientific discovery in colonial Algeria* : A critique of the journal of the Société archéologique de Constantine (1853-1876)", dans Vatin et *al., Connaissances du Maghreb*, Paris, CNRS, 1984. p.143.

[28] Général Faure-Biguet en 1897. Cité dans Noél Coye. "Préhistoire et protohistoire en Algerie au XIXe siècle : les significations du document archéologique". *Cahiers d'études africaines*. 1993. XXXIII (1), 129, p.105.

القوة. يشرح **جاك فريمو** Jacques Frémeaux أن فرنسا استدعت غالبا "هذا الطابع أو ذاك من العصور القديمة لدعم إجراء مُتَّخَذ أوسَيُتَّخَذُ"[29]. كان على الفرنسيين أنْ يقاتِلوا ضد همجية المسلمين، كما فعل أسلافهم لأجل الإصلاح والحضارة في أفريقيا القديمة. "عند اكتشاف هيئة الخرائب الرومانية بالجزائر في القرن التاسع عشر، اكتسبت هذه الأخيرة قيمة دينية مقدسة، كانت نداء من الأسلاف لبعث الرسالة التمدينية على أرض الهمجية هذه"[30].

4. جمعيات الآثار والجمعيات العلمية

قدَّرت السلطات العمومية، سريعا إذنْ، حجم الرهان الذي يُمَثِّلُه تعميق المعارف الأثرية والتاريخية، المتعلقة بأفريقيا الرومانية، وانخرطت في مساعدة البحث عن النتائج ونشرها. في السنوات الأولى من الغزو، مكّن الاستكشاف العلمي للجزائر مِنْ فهرسة

[29] Frémaux. *loc.cit,* p.36.
[30] Malarkey, *loc.cit.*, p.138.

عدد كبير من الآثار ذات الأصول المختلفة. ولكنَّ البحث الأثري تحديدا، لم يكن في تلك الفترة منظَّما بعد. ولم ينطلق جِدِّيا إلا نحو سنة 1855، كما سنرى ذلك، مُرْفَقًا بجانب سياسي مُهِم. في رسالة إلى **بربروغر** Berbrugger، بتاريخ 6 جويلية 1855، عبَّر الجنرال **مارشال راندن** Randon عن أمله في رؤية جمعيات الآثار والتاريخ، وهي تتكاثر:«سَيَخْرُج تاريخُ الاحتلال الروماني، كما كَتَب، واضحًا ومتناغِما من هذه البحوث الضرورية، وسيزوِّدُنا، عبر دراسة الماضي، بمعلومات ثمينة لأجل الحاضر والمستقبل»[31]. وكانت الجمعيات العلمية منخرطةً في التصور الرسمي للتاريخ الإفريقي، لأنها كانت مُشَبَّعة بقناعات المرحلة ومشجَّعة في عملها من السلطات العمومية. " تكشف دراسةٌ نقديةٌ لعمل أعضاء جمعية قسنطينة للآثار، كما يشرح **جايمس مالاركاي***

[31] AN F80 1586. Cité dans Frémaux. *Loc.cit.*, p.32.

* للاطلاع بشكل مفصل على دراسة جايمس مالاركاي أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 94-92/6. طبعة البصائر 2009.

James Malarkey، أن الخرائب كانت تباشَر وتُحلَّل على نحو تمييزي، تبعا لمنظور استدماري يسعى إلى شرعنة المصالح الاستدمارية الفرنسية"[32]. من جهة أخرى، تَنُصُّ مقدمة المادة الأولى لإنشاء هذا الكيان المهم للبحث، على أنه سيكون "منخرطا حتما في القضايا العمومية [...]"[33]. ولذلك، كانت السلطات المدنية أو العسكرية تستعمل أعماله غالبا. وعلى سبيل المثال، فقد تم طبع عمل لـ**دورو دو لا مال** Dureau de la Malle عن التقنيات العسكرية للرومان، بحجم الجيب، كي يقرأه الجنود في الجبال[34]. بل يذهب البعض إلى حد التأكيد على أنَّ جمعيات الآثار تميل أحيانا إلى توجيه نتائج البحوث لأجل التشديد على التصور المانوي للصراع بين الهمجية والحضارة[35].

---

[32] Malarkey, *loc.cit.,* p.137.
[33] Cité dans *ibid.,* p.141.
[34] *Histoire des guerres des Romains, des Byzantins et des Vandales, accompagnée d'examens sur les moyens employés anciennement pour la conquête et la soumission de la portion de l'Afrique septentrionale nommée aujourd'hui l'Algérie*, Paris, Firmin-Didot, 1852.
"تاريخ حروب الرومان والبيزنطيين والوندال، مرفقا بفحوص للأدوات المستعملة قديما لغزو وإخضاع الجزء المسمى من أفريقيا الشمالية بـالجزائر" باريس. فليمين.ديدو، 1852.
[35] Malarkey, *loc.cit.,* p.159.

كـان وزيـر الحـرب يُشَـجِّع - لـيس إنشـاء هـذه الجمعيـات العلميـة فحسـب، ولكنْ أيضـا- نشـر مجـلات بمبـادرة منهـا. وكانـت فاتورتهـا العلميـة تعـزِّز تلـك المقاصد، بحيث كان بإمكـان الرسـالة المنقولـة أنْ تخدم السياسـةَ الفرنسـية. وفيمـا يتعلـق، علـى سـبيل المثـال، بأعمال جمعية قسنطينة للآثار، "بحكم كونها أول مجلـة علميــة لأفريقيــا الشــمالية، فقــد كانــت الأطروحــات المطـوَّرة، مبسَّـطة لاحقـا فـي كتيِّبـات، ودراسـات، وصـحف، ومقـالات، وأدلـة سياحية. وقد سـاعد انتشـار العمـل المبتكـر علـى توسـيع الهيمنـة الفرنسـية فـي المقاطعــة، واحتمــالا عبــر كــل أفريقيــا الشــمالية الفرنســية"[36]. وبالطريقــة نفســها، شــجَّعت الســلطة الاستدمارية المجلةَ الأفريقيـة، الوسـيلة الرئيسـية لنشـاط هـذه الجمعيـة التاريخيـة، ولشـعورها بالخـدمات الجليلـة لهـذا الحليـف الثمـين، كرَّمـت السـلطات أكثـر البـاحثين إنتاجـا، مثـل **شـربونو** Cherbonneau الـذي كُـرِّم

[36] *Ibid*. p.138.

بميدالية جوقة الشرف (1863) على مجموع أعماله عن مدينة قسنطينة، وعُيِّن بعد بضع سنوات مديرا للمدرسة العربية-الفرنسية بالجزائر العاصمة، ومفتِّشا للمدارس الإسلامية للتعليم العالي، وأستاذا بمعهد اللغات الشرقية بباريس (1879). لقد كان الباحثون، بلا أدنى شك، يشجَّعون كي يُركِّزوا بحوثهم على المجالات التي تَهُم السلطات العمومية وأن لا يعارضوها إيديولوجيا.

5. النُّصُب التاريخية والتراث

ضمن هذا المسار للرفع من شأن علم الآثار اللاتيني، كلازمة لفكرة استعادة الإقليم، كان مفهوم التراث patrimoine «الابتكار* الحديث الخاص بالثقافة الغربية»[37]، في مركز الانشغالات، وبحدة

* من الملاحَظ أن "التراث" بمعنى الموروث الثقافي والفكري والديني والأدبي والفني، لم يكن حاضرا لا في خطاب أسلافنا ولا في حقل تفكيرهم، كما أنه غير حاضر في خطاب أية لغة من اللغات الحية المعاصرة التي نستورد منها المصطلحات والمفاهيم الجديدة علينا. وهو مفهوم أشمل من مفهومي كلمتَيْ patrimoine و heritage. وابتكار فرنسا للمضمون الجديد كان بنية شرعنة وجودها الاستدماري بالجزائرمن خلال رؤية أورو- مركزية مؤسَّسة على إجلال الأشياء وعبادتها. (أنظر: د,محمد عابد الجابري. التراث والحداثة. دراسة ومناقشات. ص 24. مركز دراسات الوحدة العربية)

[37] Nabila Oulebsir, "La découverte des Monuments de l'Algérie, Les missions d'Amable Ravoisié et d'Edmond Duthoit (1840-1880)", *Revue du*

أكبر، بحيث أنَّ الثقافة الإسلامية لم تكنْ تترك آثارا مرئية عند مرورها بالجزائر. لقد كان العمل على جرْد الآثار الرومانية مُهِمًّا جدا، خلال الاستكشاف كلِّه (رفقة العمل العظيم تحديدا لـ**رافوازيي** Ravoisié) وشجعته الإدارة. في أرشيف الحكومة العامة للجزائر، نجد الكثير من توصيات السلطات العمومية لصالح المهندسين المعماريين[38] المكلَّفين بدراسة النصُب والتعبيرات الخطية، العتيقة، بالجزائر، والتي تُلْزِم الولاةَ بتسهيل المهمة لهم. ولكنْ، بدا سريعا، أنَّ من الضروري جعلُ هذا العمل مثاليا، بمنحه أدوات المساهمة الفعالة في مشروعٍ مصمَّم، باعتباره استعادةً للإقليم. "لم تُطرَح مسألة التراث في أيِّ مكان، في القرن التاسع عشر وكذا في القرن العشرين، بمثل الحدَّة التي طرحت بها في الجزائر، ولم تؤثر بالدرجة نفسها في المجتمع وإقليمه، وفي الفضاء وعنصر

monde musulman et de la Méditerranée, n°73-74, 1994, Paris, Edisud, p.60.

[38] CAOM, 53 S/1, GGA, Direction de l'intérieur, 1er Bureau, lettre aux préfets d'Oran, Alger, Constantine, le 6 juillet 18?2.

تحديد هويته"[39]. انطلاقا من سنة 1845، سنشهد انبثاق مفاهيم النصُب التاريخية والتراث بالجزائر. اكتسبت الخرائب دورا إيديولوجيا أساسيا عبر ربط الجزائر بماضيها:

> [...] أصبحت العلاقة بالنصُب انشغالا يَخُصُّ الحاضر [...]، انشغالٌ بتشييد فرنسا جديدة، فَتِيَّة وعريقة في الوقت نفسه، حديثة وحاملة لتقاليد راسخة بقوة، معا، بل نقول: راسخة في الأرض كذلك.كان هذا التشييد يمر عبر تنظيم إقليمي، ولكنْ أيضا عبر ضرورة تشكيل رأسمال تراثي [...] كانت النصُب التذكارية قد اكتسبت دورا عظيما : هو دور البصمة والمرجع. عبر التنقيبات الأثرية والرسوم والكشوف المعمارية، بدأ الاستيلاء على الأبعاد الثقافية والتاريخية

[39] Oulebsir, *op. cit.*, p.57.

لهــذا الإقلــيم «الــذي أصــبح ميــراث الحضارة»[40].

وقع التشديد على الوظيفة السياسية للآثار، التي أصبحت مرجعا ثقافيا تاريخيا، ورمزا حاسما للشرعية الفرنسية. "رؤية أورو-مركزية مؤسَّسة على إجلال الأشياء وعبادتها، وهكذا، كان مفهوم التراث المنقول إلى جزائر القرن التاسع عشر، قد مسَّ السكان العرب والبربر، الذين تعهَّدوا، منذ ذلك الحين، موروثَهم وفق هذه الرؤية المعاكِسة للتصوُّر المحلي"[41].

[40] *Ibid.,* p.59.
[41] *Ibid.*, p.60.

ب. النظرية السلتية: عند أصول الأمة

كانــت أفريقيــا الشــمالية تملــك العديــد مــن الــدولمونات* Dolmens و"الــتَلاَّت الجنائزيـــة" tumulus والأنصـاب الحجريـة menhirs، المنسـوبة عبـر المقارنـة، إلـى محتلـين **سلتيين** celtes. تطـوَّر خلال جزء من القرن التاسع عشر إذن، ما نسميه عـادة «النظريـــة الســلتية» ولكـــنَّ "[...] دراســـةَ النصُـــب التذكاريـة السلتية، لـم تكن فـي الواقـع ذات فائدة علميـة في ذاتها. كانت لها قيمـة، فقط لأنهـا تشـارك فـي تشـييد عِلْـم قـومي وتصـنع عظمتَـه، علـمٍ يَخُـصُّ الحاضـرة الفرنسية، والوطن الأم. كما هو الحال في القرن الثـامن عشر، ورغم التجليات المختلفة، ظلـت البحـوث السلتية التجسـيدَ العلمـي للحركـة القوميـة الفرنسـية، تقـدِّم المبـرِّرات للأطمــاع التوسـعية والإمبرياليـة للبلـدان الأوروبيــة"[42]. فــي تلـك الفتـرة، حيـث كـان الشـعور

* أحجار كبيرة مسطحة فوق كومة أحجار المقبرة.

[42] Coye, *loc. cit.*, p.105.

القومي يتمتع بنشاط كبير، بدا مهمًّا «الرجوع إلى أصول الأمة»، والعثور على مبررات مادية مدعِّمة للتاريخ. في الجزائر، كانت المهمة مزدوجة، فقد كنا نأمل ليس فقط في اقتناعنا، وإنما في إقناع الأهالي بشرعية الوجود الفرنسي. وضمن هذا المنظور، كانت آثار سلف أوروبي تُشَكِّلُ عونا بامتياز. وفي هذا البحث عن الأدلة المشَرْعِنة، ظهرت النظرية السلتية بوصفها «نتاجا للظرف تُسْنِده الأسباب التاريخية»:

> [...] في أورورربا، وإلى غاية الإنسان الأحفوري، مثَّل السلتيُّ النمودجَ نفسَه للمحتلِّ الأول الزاحف على الساكن الأصلي. وهذه الفكرة المنقولة، أو بالأحرى الموسَّعة، إلى أفريقيا الشمالية، لا تعيد النظر في النموذج التاريخي. وبدلا من الغازي الروماني الذي فرض استعباده على أوروبا، هناك الغازي العربي، وتشابه السيناريو لا يزيد الوهم بصحة النظرية

التاريخية، إلا قوة. وضمن هذه الرؤية، لم يعد الحضور الفرنسي بالجزائر نتيجةً لاعتداء وإنما نتيجة لعودة محتل أكثر شرعية، ما دام سابقا للمحتل الحالي"[43].

وانكشف إذنْ، أنَّ مجالات البحث المختلفة، التي تتكامل ويُثْري بعضُها بعضا، تُشَكِّل حليفًا ضروريًا للسياسة الفرنسية، لأنها تمنح مصداقية علمية لنظرية عن أفريقيا الشمالية سلتية أصلا. اعتقد البعض العثور على تأكيد هذه النظرية في غياب آثار، ويشرحون قائلين:«كان **الغاليون** Galois والشعوب الجرمانية، يسكنون عموما داخل كهوف طبيعية ومنازل من قش»[44] لا تترك آثارا مدرَكة حسيا.

كانت الأنثروبولوجيا تُدَعِّمُ النظريات الأثرية و"حاولت الأعمالُ الأنثروبولوجية الأولى المتعلِّقة بسكان المغرب، سواء استندت على فقه اللغة

[43] *Ibid*.p.105.
[44] Féraud, 1863-1864, p.231. Cité dans *ibid.*, p.108.

Philologieأو علـــــــى القيـــــــاس التشـــــــريحي Anthropométrie، العثــورَ لهــؤلاء الســكان عــن أصول خارجية المنشأ، شرقية، أو أوروبية، أو عربية، بل حتى أطلنطية، ولكنْ نادرا أفريقية"[45]. وكان معظم المثقفين، بلا شك، وعن حسن نية، مقتنعين بصحة تحليلاتهم. وهذا لا ينفي تشبَّعهم بالقناعات الإيديولوجية لتلك الفترة: "انتقال بديهي من العلم إلى السياسة في حالـــة مـــؤرخٍ يتـــرجِم ماضـــيا مُسْـــقِطا لتصـــوراته ومعتقداته"[46]. كانوا يمثِّلون، ضمن هذه المنظور،ورقةً رابحةً للسلطات العمومية التي أمكنها استعمالُ نتائجهم والتعسفُ في ذلك، لأجل إسناد حركتها السياسية. وهكذا نُشِر التاريخ الرسمي، المسْتوحَى بقوة من الاكتشـــافات الأثريـــة والأنثروبولوجيـــة، فـــي الكتـــب المدرسية والمجلات العلمية أو الشعبية.

[45] G. Boëtsch, "Egypte noire et Berbérie blanche-La rencontre manquée de la biologie et de la culture", *Cahiers d'études africaines*, 1993, XXXIII/1, 129., p.75.
[46] Jean-Claude Vatin, *L'Algérie politique – Histoire et Société*, Paris, Presses de la Fondation nationale des sciences politiques, 2éme éd., 1983, p.43.

رغم ذلك، وانطلاقا من سنة 1865 بدأت النظرية السَّلتية، في التعرض للتفنيد. وحلَّ مكانها تدريجيا "تصوُّرٌ أشدُّ تعقيدا ينتظم حول البربر"[47] ولكنْ بالتركيبة نفسها، المتمركزة دائما حول الانتماء الأوروبي للسكان الأصليين، واستمر الأمر على هذه الحال، في خدمة النظرية العامة الأكثر انتشارا، وهي نظرية "الانتشارية شمال-جنوب". وكانت البحوث الأنثروبولوجية تنتهي دائما، من فرط تعاملها مع انتشارية diffusionnisme الجينات (ومع ذلك لم يكن هذا هو المصطلح الذي استعملوه)، إلى التعامل مع الانتشارية الثقافية؛ كان "العِرْق" بالنسبة إليهم نوعا من البنية التحتية، وكانت الثقافة - المعتقدات والجماليات والتقنية- تمثل نوعا من البنية الفوقية [...] لقد شكَّلت انتشاريةُ الجينات، ببساطة، أساسا لانتشارية الثقافة"[48].

[47] Coye, *loc. cit.*, p.109.
[48] Jean-Noël Ferrié, "La naissance de l'aire culturelle méditerranéenne dans l'anthropologie physique de l'Afrique du nord", *Cahiers d'études africaines*, 1993, XXXIII (1), 129, p.140.

جـ. «الأسطورة القبائلية»

1. عقلنة التهدئة

كان على معرفة العدو أنْ تمكِّن من عقلنة التهدئة. وكان **ڤالييني** Gallieni، على وجه الخصوص، يعتبر أنَّ «دراسة الأعراق المقيمة بمنطقة ما، هي التي تحدِّد التنظيم السياسي الواجب منحه لها، والأدوات الواجب استعمالها لبلوغ تهدئتها (...)"[49]. وهكذا، مكَّن علم الأعراق البشرية، والأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية على وجه الخصوص، العسكريين من ضبطٍ أحسن لخصمهم، كي يواجهوه لاحقا، ويهزموه ويتحكموا فيه بالأسلحة الملائمة. يمكننا أن نعتبر أنَّ سياسة إخماد الرفض تمفصلت حول محور ثقافي، وقد أعطت السلطات، منذ السنوات الأولى، زخما لحركة واسعة عن معرفة الآخر. وأثبت كل الباحثين، طبعا، فضولا حقيقيا وعلميا، بالتأكيد، ولكنَّ "المصلحة كانت منفعية مباشِرة، أو إدارية أو سياسية.

[49] Cité dans Lucas et Vatin, *op. cit.*, p.18.

فالأعمال تهدف إلى كشف الخصم، الجمعيات الدينية أوّلا، ثم الأقليات العرقية، أما التحقيقات الجغرافية الواقعة على الأرض من بعض الضباط، فلها أهداف استيراتيجية صريحة جدا"[50]. بعد ارتياح الفرنسيين لرفض القبائل الالتحاق* بمقاومة الأمير عبد االقادر سنة 1839 و1845، وتحالف البعض منها مع الزوايا منذ 1830، أبرز الفرنسيون فارقا جوهريا بينهم وبين العرب، ورأوا في هذه الشعب حليفا قويا. وإذا كان

[50] Vatin, *L'Algérie politique*…, p.21.

* ليس هذا صحيحا، فالأمير **عبد القادر الجزائري** عندما كان يجوب الجزائر لحشد الجهود لمقاومة الاحتلال استقبلته القبائل بحفاوة في سنة 1837، وقد خطب فيهم وحذرهم من الطموحات الفرنسية وطلب تأييدهم. وعندما سأل مرافقه وكان أحد رجال القبائل عن الإجراءات التي اتخذوها لصد الهجوم الفرنسي المحتمل، رد عليه بأنه "طالما هم تحت حماية الأولياء.. فلا داعي للخوف"، فانزعج الأمير ورد عليه قائلاً: استيقظوا واتركوا هذه الخرافات جانبًا. وعين **سي أحمد الطيب بن سالم** خليفة عنه في سباؤو، وأبدى العمراويون تأييدهم للأمير، وقدموا لمساعدته 150 بغلا محملا بالتين والزيتون والصابون؛ مساهمة منهم في توفير احتياجات المجاهدين. وعمومًا فقد لقي الأمير ترحابًا شعبيًا هائلا، وسرعان ما أعلن الجهاد بمناسبة عيد الأضحى الذي وافق يوم 20-11- 1838؛ بعد أن انتهك الفرنسيون معاهدتهم معه، وبرز فرسان عمراوة من أبناء القبائل بقيادة **ابن سالم** نفسه، وأبلوا في القتال بلاءً حسنًا، وشنوا على قوات الاحتلال هجومًا بدل أمنهم خوفًا. واستمر **سي أحمد الطيب بن سالم** خليفة **الأمير عبد القادر**، يقود المقاومة لمدة 10 سنوات متواصلة، إلى أن تقلصت نشاطاته في بداية سنة 1846؛ بسبب تفوق العدو عددًا وعتادًا، إلى جانب خيانة البعض، واستسلام البعض الآخر، فاستدعى الأمير مرة أخرى إلى منطقة القبائل ليرفع معنويات المجاهدين، ويحثهم على استمرار المقاومة، وكان له ما أراد. واستمرت المقاومة بالرغم من الخسائر التي لحقت بها على يد المارشال السفاح الفرنسي **بيجو**، وسرعان ما ظهرت شخصيات جديدة على الساحة لتستأنف الجهاد في منطقة القبائل، وكان منهم شريف يدعى **سي محمد الهاشمي** الذي حظي بتأييد **سي الجودي**، خليفة الأمير عبد القادر على مدينة بجاية آنذاك، كما حظي **سي الهاشمي** بتأييد المجاهدة **لالة فاطمة نسومر**، وظل يقاتل إلى أن استشهد في 3- 10- 1849 في كمين نصبه السفاح الفرنسي النقيب **بيبتر**. كما ساندت **لالة فاطمة نسومر** الشريفَ **بوبغلة** في توجيه ضربات موجعة لقوات الاحتلال قبل أن تتمكن تلك القوات من إخضاع منطقة القبائل في سنة 1857. وفي 11 يوليو من تلك السنة اعتقلت فاطمة **نسومر** هي وعائلتها وتعرضت للاضطهاد والنفي، ولم يراعِ الاحتلال حرمتها. أما الشريف **بوبغلة** فقد تصدى لقيادة المقاومة في جبال جرجرة سنة 1851، واستمر جهاده طيلة 4 سنوات متواصلة. (أنظر: محمد الصغير فرج. تاريخ تيزي وزو.. منذ نشأتها حتى سنة 1954. ترجمة الأستاذ موسى زمولي. 2002 دار "ثالة" بالجزائر. ص71، 95.)

ويليام دو سلان William de Slane قد نشر الترجمة الأولى لابن خلدون "تاريخ البربر" "بطلب من الحكومة الفرنسية"[51]، فإن محفزَّ البحث لم يكنْ، بلا ريب ضمن هذا السياق، متمثِّلا في اعتبارات ثقافية فحسب. لقد كان الأمر مندرجا في إطار سياسة ثقافية طموحة وُضِعت للتَوِّ. إنَّ **ب.د.فابر** P.D.Faber و**أ.دوماس** E.Daumas هما اللذان صاغا في سنة 1847 ما أسماه البعض لاحقا بـ "الأسطورة القبائلية"، والتي كانت تتمثل في مقابلة العرب الرعاة الكسالى الذين يعيشون تحت الخيام ذوي الشعر والعيون السود، مع الشعب القبائلي "المستقل جزئيا، وذو الأصل الجرماني إلى حد ما، والمسيحي برمته ماضيا"[52]، الذي يعيش أبناؤه في الجبل داخل بيوت، يزرعون الأرض، وهم شقْرٌ غالبا أو يميلون إلى الحُمْرة، ذوو

[51] Leimdorfer, *op. cit.,* p.52.

[52] E. Daumas et P.D. Fabar, *La Grande Kabylie*, Paris, Hachette, 1847, p.77. Cité par Ann Thomson, "La Classification raciale de l'Afrique du Nord au début du XIXe siècle", *Cahiers d'études africaines*, 1993, XXXIII (1), 129, p.19.

عيون زرقاء، نتيجة التمازج مع أعراق شمالية[53]. مع الرجوع إلى الوراء، يعتبر بعض المؤلفين أنَّ الأمر كان يتعلق بتحليلٍ حَكَمته الدوافع السياسية، وحسبَ رأيهم، إذا كانت روايات المسافرين الذين اجتازوا الجزائر قبل الغزو تصف فعلا (مثلا **ج.مورقان** J.Morgan سنة 1731) سكانا قرويين شقرا جدا، كان يُعتقَد أنهم من أخلاف الوندال، "يجب رغم ذلك التأكيد على أنَّ هؤلاء المسافرين يتحدثون عن سكان الأوراس فحسب، المدرَكين باعتبارهم مختلِفين جدا عن القرويين الآخرين. بتطبيق هذا الوصف على القبائليين، خضع **دوماس** و**فابر** لضرورات أخرى. هما يتجاهلان عن عمد، عددا كبيرا من الروايات (القصص) التي تجعل القبائليين شعثا وسمرا بشعر أسود"[54]. (**بايسنال** Peysonnel (1838)، **شاو** Shaw (1830) أو **ديفونتان** Desfontaines (1838). يعتبر **أ.طومسون** A.Thomson، مثلا، أنَّ

[53] Ibid.
[54] Ibid.

هذه الكتابات تكون قد "نُسِيَتْ لأسباب إيديولوجية"[55]، وذلك لأن الهدف الضمني المودَع لدى الباحثين، كان يتمثل في استنباط عرق بربري مقارب، منتسِب إلى السكان الأوروبيين، حتى وإنْ كان هذا يبدو صعبا إلى حدٍّ بعيد، من وجهة نظر علمية*، كما يلاحظ ذلك بعض المختصين[56]. وهذا ملخص برنامج البحث الأول المهم عن القبائل، صاغه عالم في الأعراق من تلك الفترة "(...) التَوَصُّل إلى حلِّ هذه المسألة غير المحلولة بعد، إيجاد السمات التشريحية المميِّزة للعربي عن البربري"[57].

---

[55] Ibid.

* أما المؤرخون العرب والمسلمون والقوى الوطنية في بلدان المغرب العربي؛ فيؤكدون على أنَّ أرومة البربر شرقية عربية، وأن أصولهم ترجع إلى قبائل حمير بجنوب الجزيرة العربية، وقد جزم ابن خلدون في ديوان العبر بعروبة صنهاجة وكتامة، وهما من أشهر قبائل الأمازيغ، كما تؤكد على ذلك دراسات لغوية قام بها عديد من العلماء والمختصين - من المنتمين إلى البربر في أكثر من بلد مغاربي- من أمثال الأستاذ محمد شفيق عضو الأكاديمية المغربية، والباحثان أحمد بو دهمان ومحمد الفاسي. ونضيف أن ظهور الأشراف في منطقة القبائل والتفاف أهلها حولهم - كما ذكرنا- قد يزيد من قوة الرأي القائل بعروبة البربر، خاصة أنهم تعلقوا باللغة العربية، وكانوا دومًا أوفياء للثقافة العربية التي عرفت العربي بأنه كل من نطق العربية. وعلى أي حال فكما يقول المؤرخ الجزائري عثمان سعدي - وهو من أصل بربري- فإن البربر تحولوا إلى حماة للإسلام ودعاة له، وصارت منطقة القبائل معقلاً للحركة الوطنية الجزائرية في جبال الأوراس. (المرجع السابق).

[56] Colignon 1886, Fisher 1907.

[57] R. Colignon, "Etude sur l'ethnographie générale de la Tunisie", *Bulletin de géographie historique et descriptive*, 1886: 181-353. Dans Boëtsch et Ferrié, "L'impossible objet de la raciologie", *Cahiers d'études africaines*, 1993, 129, p.13.

على الرغم من وجود التميُّز والثقافة القبائليين**، في الحالة الكامنة داخل المناطق الجبلية للمستدمَرة الجديدة عند دخول الفرنسيين. فإنَّ منطقة القبائل كجزء متميز، لم تكنْ معرَّفة على نحو دقيق. لقد كان القبائليون "مضَيَّقًا عليهم" و "مجزَّئين ثانية" من حكومة استدمارية تملك التحكم في الاتصالات. وشاركت الطرق والحافلات، والبريد والصحافة، في إعادة التعريف هذه، الموجَّهة للفضاء وفق معايير محدَّدة سلفا. وحسب عدد معين من المؤلِّفين، لم يقم الأنثروبولوجيون، ضمن هذا السياق، إلا بـ " نقل موضوعة صنعها الاستدمار. وحتى أولئك الذين ظلوا متحفظين بشأن وجود الأعراق، لم يترددوا في استخراج النتائج السياسية لانقسام ساهموا في شرعنته

** الجزائريون في الواقع سواء، وحَّد الإسلام بينهم في حضارة عميقة لا يبغون عنها حولا، وكان البربري والعربي على حد سواء يطالبان بلغة القرآن، وهم بهذه الصفة مشتركون في العداء للفرنسين.عاش البربر والعرب في ظل الإسلام والوحدة والأخوة منذ الفتح. ولم يذكر المؤرخون أي توتر بينهم كان سببه التمايز العرقي أو الاختلاف اللغوي أو المذهبي. ولكن الفرنسيين لم يرقهم ذلك، فراحوا يبحثون عن الفروق في المقابر والمتاحف والحوادث التاريخية، في لون البشرة وتباين اللهجات والأعراف ونظام الحياة اليومية....كي يعلنوا النتيجة الباهرة في نظرهم، وهي أن هناك أكثر من شعب يسكن الجزائر، وأن هناك اختلافا بين عناصر هذه الشعوب، وأن الإسلام بينهم ليس على درجة واحدة من التمكن والرسوخ، وأن اللغة العربية قوية هنا وضعيفة هناك، بل منعدمة في بعض الجهات.....إلخ. وقد تجاهل الفرنسيون روايات النسابة البربر والعرب والنظريات التاريخية التي ترجع إلى قرون خلت. كانوا يصدقون أرنست رينان ويكذبون ابن خلدون، ويستوحون نظرية دوركايم ويرفضون نظريات ابن حزم وابن عبد الحكم ونسابة العرب والبربر. (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 6/304-310. طبعة البصائر2009.)

على المستوى الأنثروبولوجي"[58]. ودعَّموا في مجلات علمية فكرة "وجوب الاعتماد على العرق البربري لاحتلال الجزائر"[59]. وهكذا نصل إلى نظريات، علميتها موضع نظر أحيانا: "فالاستدمار الذي كان يتوخى الاكتشاف والانطلاق العلمي، شجَّع تبعا لذلك، تطويرَ تصلُّب غريب: وبدلا من استغلال تعقيد الواقعي، لأجل تحقيق تقدم النظرية، اخْتزَلَتِ الأنتروبولوجيا والاختصاصات الدائرة في فلكها (اللسانيات، وعلم ما قبل التاريخ، وعلم الأعراق) هذا التعقيدَ لصالح نَمْذَجَاتٍ typications منبثقة عن الخطاب المعتاد عن الأهالي وليس عن الواقع. بعبارة أخرى، لم تكن الأصناف تُستنتَجُ من قياسات تجريبية"[60]. ولم يكن هدف هذه الحركة يتمثل في متابعة مشروع الشرعنة عبر ربط عرقي، ثقافي

---

[58] Karim Haoui, "Classifications linguistiques et anthropologiques de la Société d'anthropologie de Paris au XIXe siècle", *Cahiers d'études africaines*, 1993, XXXIII (1), 129, p.62.

[59] Docteur Bordier, article «Algérie (Ethnologie)», *Dictionnaire des sciences anthropologiques*, 1889, p.34. Cité par *Iblid.,* p.62.

[60] Boëtsch et Ferrié, "L'impossible objet…", p.14.

وتاريخي لأفريقيا بأوروبا فحسب، وإنما كذلك في خلق فارق وجودي بين العرب وسكان القبائل، لتوعية هؤلاء بتفوقهم على أولئك، وقربهم الثقافي من الحضارة الغربية التي عليهم الاندماج فيها على نحو مشروع ويسير. في سنة 1864، كتب **دوما**:

> كلما حفرنا في هذا الجذع القديم، تحت القشرة المسلمة، عثرنا على نُسْغٍ مسيحي. نعترف إذن بأن الشعب القبائلي، المستقل جزئيا، وذو الأصل الجرماني جزئيا، المسيحي بأكمله ماضيا، لم يُغَيَّرْ مَظْهَرَهُ كلية في الديانة الجديدة. قَبِل القرآن، تحت السيف، ولكنَّه لم يعانقه أبدا؛ ارتدى العقيدة وكذا البرنوس، ولكنه حافظ تحت ذلك على شكله الاجتماعي السابق، وهو لا يعرض

أمامنا، ودون علمه، رمز الصليب فقط في وشم وجوه أفراده*.[61]

كانت فرنسا تجدُ هنا، فرصةً سانحةً للتحالف، دون استعمال القوة، مع سكان كثيرين بتحصيل انخراطهم الطوعي. وفي أقصى الحدود، رأى **ساباتيي** Sabatierضرورة انصهار عرقي بين القبائليين والفرنسيين بتشجيع الزواج المختلط. "إنه عبر نساء شعب يمكننا غزو روحه"، واقترح حظر الوشم الذي تحمله القبائليات بذريعة "تسبُّبه في نفور الرجال الأوروبيين"، ورَفَع سن الزواج إلى 14 سنة، وفَرْنَسَ الأسماء. كما شجَّع كذلك القبائليين جميعا على

* هذا الكلام ليس صحيحا، ويعتبره البربر سبة لهم وحطا من قدرهم. ذلك أن البربر يعتبرون المس بدينهم إهانة كبرى لهم. كما أنَّ اعتبارهم حلفاء للفرنسيين هو هدية مسمومة إليهم. وقد ردوها على صاحبها أكثر من مرة. والبربر من دون شك قوم يفتخرون بماضيهم ولغتهم وتقاليدهم، وهم أيضا قوم فخورون بدورهم العظيم في فتح الأندلس (12 ألف جندي على الأقل)، وفي حمل الإسلام إلى وسط فرنسا نفسها وإلى جنوب إيطاليا، وإلى أفريقيا، وفخورون أيضا بتأسيس القاهرة والأزهر الشريف. وإقامة الممالك الكبرى قبل أن تتكون في فرنسا مملكة أو كيان سياسي. ولكنهم لا ينفون أنهم فعلوا ذلك كمسلمين عقيدة ولغة، وإنتاجهم الحضاري المكتوب قد اختلط بإنتاج العرب حتى لم يعد أحد يستطيع معرفة الفرق. إن المدح للبربر والقدح في العرب، وأحيانا العكس، لا يقصد من ورائه خدمة العلم والحقيقة، وإنما خدمة إدارة استعمارية وتمكين الحضارة الفرنسية على حساب حضارة البربر والعرب معا. (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 315/6- 327. طبعة البصائر2009.)

[61] Daumas, *Mœurs et coutumes de l’Algérie*, Paris, Hachette, pp.264-265. Cité dans Calmes, *op.cit*.

التجنس"[62]. كان الأمر يتعلق بتسريع المسار الطبيعي للإدماج الثقافي للقبائلي، باعتباره مجرَّد عودة إلى الجذور.

2- عِرْقٌ مُقَارب

لأجل هذا شكَّل المثقفون والعلماءُ أدواتٍ ثمينةً، في خدمة سياسةٍ تحصينية، وشاركوا، ليس فقط، في مسار عقلنة الغزو، وإنما في شرعنته كذلك. والثقافةُ هي التي مثَّلت كذلك، حجرَ الزاوية في هذا المشروع؛ الثقافةُ اللاتينية، أو السلتيةُ أو المسيحيةُ، ومكَّن الرجوعُ الدائم إلى الماضي، البُنى السياسيةَ أو الإداريةَ من الاستقرار بفعالية على أرضٍ، يُعَاد غزوها ثانية، حسب فهمهم، وليست مغزوة للمرة الأولى. مع أنَّ الأمر لم يكن بتلك البساطة، ولم يكن يكفي فرنسا أنْ تُبَرْهِن الشرعية التاريخية لوجودها، كيْ تُعيدَ ترسيخَ حضارة لاتينية، انمحت عن أفريقيا الشمالية منذ قرون.

---

[62] Marnia Lazreg, "The reproduction of colonial ideology: the case of Kabyle Berbers", *Arab Studies Quarterly,* 1983, vol.5, n°4, p.388.

صاغت سنوات الاحتلال العربي-الإسلامي أو التركي أرضًا بلا وحدة ثقافية وسياسية، يقينا، ولكنَّها غير غربية بالتأكيد*. كان يجب إذنْ، وبالتوازي مع الإجراءات الإدارية قليلة الفعالية لوضع البلد تحت الوصاية، السعيُ إلى اقتلاع جذور الحوامل الثقافية الأهلية في تنوُّعِها، لإضعاف المقاومة. لم يكنْ زَمَنُ التسويات قد حان، رغم المبادئ المثالية idéalistes، النظرية عن «المملكة العربية»، والسلطات العمومية، الممثَّلة في تلك الفترة بجيش قوي جدا، لم تأخذ حذرها في سعيها إلى استئصال الخميرة الموحِّدة للرعايا الجدد، وهي الشخصية الإسلامية، وتهيئة الأرضية لتعريف جديد للهوية، غربي وفرنسي.

* تلك رؤية فرنسية استدمارية من تلك الفترة ولا تعكس الحقيقة الموضوعية بأي حال من الأحوال (أنظر هوامشنا لاحقا).

الفصل الثاني

إعادة تعريف الهوية الجزائرية

أ. الثقافة العربية - الإسلامية

مِنَ المؤكَّد، أنَّ غزو الجزائر ظل إنجازا هشا رغم محاولات الاسترجاع الثقافي والتاريخي. فقد أدركت فرنسا، فورا، أنَّ عليها أنْ تمارس سياسةَ دهاءٍ، إزاء هؤلاء السكان الأهالي، الذين لم يكن لهم مرجع للهوية وعنصر للوحدة عدا الشعور بالانتماء لدين وثقافة يتعلقون بهما. لعب الإسلام دور الجدار الواقي ضد الفرنسة : "كان يرمز لنقطة التقاء كل المكوِّنات الاجتماعية والثقافية للبلد" ضد السياسة الاستدمارية[63]، وهذا ما جعله خطيرا جدا في عيون السلطات العمومية. كان المهم إذنْ، هو منع هذه الخميرة من لعب دورها الموحِّد، إضعافُها وتهميشُها، لأجل كسر شوكة العدو بزعزعة استقراره، وتطبيق

[63] Ahmed Lanasri, *La littérature algérienne de l'entre-deux-guerres*, Paris, Publisud, 1995, p.283.

تقنية قديمة «فرِّقْ تَسُدْ» لتحقيق هذه الغاية. ومن هنا، ستُوضَع سياسةٌ ثقافية موجَّهةٌ ضد الإسلام وتقاليده، في خدمة المصلحة العليا للدولة الفرنسية.

1. الإضعاف السياسي للإسلام

تجلَّت محاربة استئثار الإسلام بالحياة اليومية والتنظيم السياسي للأهالي، في مجالات مختلفة، على نحو مباشر تقريبا. وأمام فشل محاولة الإدماج الإداري، المُعَلْمِن للتجنُّس، أطلقت فرنسا مشروعا واسعا لزعزعة استقرار مجتمع الأهالي، ثقافيا ودينيا.

لقد بدأت أوَّلا، بفضل مصادرة الأملاك الوقفية، في العمل لأجل تحصيل التحكُّم المباشِر في الشعائر الدينية (التكفُّل بترميم المساجد* وبنائها**، وتعيين طاقم

* هدمت فرنسا كثيرا من المساجد الضخمة الأثرية، بعد الاحتلال، فقد بدأت بالهدم الكامل لجامع السيدة بالعاصمة، ثم تلا ذلك توزيع المساجد على الجيش لربط خيوله ووضع عتاده ومراقده ومستشفياته، ثم بدأ تحويل بعض المساجد إلى كنائس وإلى إقامة الجمعيات الدينية الفرنسية، وفي أثناء ذلك كان المعول يستعمل لهدم المساجد الأخرى أو بيعها للأوروبيين ليهدموها، ويبنوا عليها المنازل والحمامات والكوش. وقد استعملت بعض المساجد كمخازن للحبوب وصيدليات ومسارح. وهناك دراستان فرنسيتان مهمتان وثقتا ذلك على مستوى العاصمة هما: *البنايات الدينية في مدينة الجزائر*. ديفوكس. و*الملكية الحضرية في مدينة الجزائر*. أوميرا. 1898. (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. الجزء الخامس كله سيما ص75-76. طبعة البصائر2009.) ولم يذكر هذا في الكتب المدرسية الفرنسية ولا في التقاريرالسرية المرفوعة إلى السلطات العليا للجمهورية....بل إن بعض المساجد حُوِّلت إلى مواخير للعساكر الفرنسيين. (كمال بوشامة. رسالة إلى روني. ص92-93. دار الخلدونية 2006.)

المدرسين والأئمة مع دفع أجورهم، إلخ). ثم ركَّزت على إضعاف الزوايا أو تحقيق الوصاية عليها باعتبارها «ملاذاتٍ للهوية العربية-الإسلامية»، "والتي كانت في الوقت نفسه، مصليَّات (أو مساجد) ومدارس، وملاجئ وأماكن للتجمع، ومكتبات، ومستشفيات، ومؤسساتٍ للإشهار حيث تُتَبادل الأخبار ويُكْتَبُ تاريخ الزمن الحاضر"[64]. ونظرا للمركزية القصوى لهذه المؤسسات التربوية، فقد قامت السلطات العمومية بزعزعة كل النظام الديني والثقافي، عبر غلقها أو وضعها تحت الوصاية. استخدم الفرنسيون كذلك، رموزا قوية لإضعاف هيمنة الإسلام في الحياة اليومية للمسلمين، مثل، فرنسة العُشْر* القديم dîme الأمر الذي أفقده مدلوله الديني. إنَّ إدخال ممارسات ثقافية

** لم يتوقف المسلمون عن بناء المساجد بعد الاحتلال، ولا سيما في الأرياف. وكانت السلطات الفرنسية تستولي على هذه المساجد الجديدة. كما استولت على القديمة المتبقية. وإذا قرأت عن إنشاء مسجد في العهد الفرنسي فاعلم أنه بني من أموال المسلمين وليس من أموال الدولة الفرنسية. (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 78/5. طبعة البصائر2009.)

[64] Yvonne Turin, citée dans Leimdorfer, *op. cit.*, p.53.

* العُشْر في الإسلام: ضريبة على أراضي وثمار المسلمين بخلاف الخراج. «فأرض العشر هو ما استأنف المسلمون إحياءه...لا يجوز أن يوضع عليه خراج»، (الماوردي). و العشر في المسيحية: ضريبة تحصل عليها الكنيسة أو طبقة الأشراف من المواطنين بشكل إجباري في العهود الإقطاعية. (د.محمد بشير علية. القاموس الاقتصادي. ص269 ، 289. المؤسسة العربية).

جديدة، غير محبَّذة لدى الوَرِعين ولكنَّها جذابة غالبا (التصوير الفوتوغرافي، الكحول، تمدرس النساء...)، وفعالة كذلك، على نحو خاص. بإدخالها في الحياة اليومية، وابتذالها، وخلق القبول لها، ثم اعتبارها ضرورية، كانت فرنسا تقوم بتهدئة الحماسة الدينية.

كنا نشهد، بشكل عام، محاولةَ إضعافٍ منهجيٍّ لمصداقية الإسلام وسلطته السياسية؛ وقد شكَّل إنشاءُ ساحةِ الحكومة إلى جنب مسجد الوعظ والإرشاد، الرمزَ الأقصى الدالَّ على ذلك: "في الساحة، تمثالُ خيَّال لدوق **أورليون**، ابن الملك **لويس فيليب** الذي قُتِلَ بالجزائر، وكان التمثال يرمز للهيمنة الفرنسية وسَطَ ما كان يشكل مركز الجزائر العاصمة المسلمة"[65]. في هذا العمل، متعدد الأشكال، الموجَّه لزعزعة الاستقرار الثقافي، كانت المساعدة التي قدَّمها ضباط المكاتب العربية بين سنة 1844 و1867، ثمينةً. فقد كانوا مطَّلعين على الثقافة العربية أحسن من أيِّ شخص

[65] David Prochaska, "History as Literature, Literature as History: Cagayous of Algiers", *American Historical Review*, June 1996, p.677.

آخر. يتكلَّمون العربية، يعرفون العشائر، بعاداتها، وكذا التقاليد الإسلامية، والتاريخ المحلي والأساطير. ضِفْ إلى هذا، أنَّ منشورا من المارشال **بيجو** Bugeaud، يفسِّر القرار الوزاري الصادر في الأول من فيفري 1844 عن تنظيم المكاتب العربية، يأمر الضباط بالبحث عن أيِّ نوع من المعلومات المتعلقة بـ «تاريخ العشائر»، وإضافة تلك التي يمكنهم استجماعها شيئا فشيئا عن العائلات ورجال السياسة الموجودين بها"[66]. وهكذا، كانوا يُكملون مهمة فهم الآخر، التي يقوم بها المثقفون، والتي بدونها لم يكن بوسع السلطات استخدامَ الثقافة سلاحا لاستئصال التهديد الداخلي، والرفع بالتالي من قبضتها، والتجذر على نحو أشد صلابة.

2. افتكاك التحكم في التربية الإسلامية العليا.

كانت المدارس، بوصفها المؤسسات الإسلامية للتعليم العالي، تحتلُّ مركز السياسة الدينية الفرنسية، إذْ

[66] Yver, cité dans Leimdorfer, *op. cit.,* p.52.

داخل هذه المنشآت كانت تُنقَل الثقافةُ العلمية، وتتشكَّل النخبة الأهلية المستقبلية. وبوقوعها تحت أيدي رجال الدين، أشدّ المتحمِّسين لعداء لفرنسا، كان يمكنها أن تتحوَّل إلى أعشاش رهيبة للرفض؛ ولكنَّ إدارة فرنسا لها جعلتها، على العكس من ذلك، أدواتٍ للتحكم عبر عَلْمَنة النخب المستقبلية وإضعاف سلطة الجيل القديم من المثقفين المتدينين، وسائل للتصالح بتعزيز الاندماج الثقافي.

شهدنا إذن، في الخمسينيات من القرن التاسع عشر، افتكاك التحكم في المدارس، التي من خلالها ستتمكن السلطاتُ من إدارة تكوينها للنخب المستقبلية المسلمة (قضاة، وضباط وزارة، ومسلمين مكلَّفين بتطبيق الفقه القرآني المكيَّف، ورجال العبادات الإسلامية وأساتذة المدارس كذلك)، وهذا بعد جرِّها خارج كلِّ دعاية معادية لفرنسا، وقيام التعليم فيها باللغتين، وتوجيهها نحو التعاون مع القوة الاستدمارية. شجَّعت الإدارة، على نطاق واسع، تطوير هذه

المؤسسات، ووصلت إلى حد مكافأة التلاميذ إنْ بدا ذلك ضروريا[67]: «[...] مدرسة تلمسان هي مستنبت قضاتنا المسلمين بغرب مقاطعة وهران. هي تستحق الدعمَ الرسمي الذي تقدمه الحكومةُ الفرنسية: إنها وسيلة فعَّالة لنشر التعليم ولإفهام العرب أننا نريد احترام دينهم وقوانينهم المدنية ونجيد ذلك»[68]. ويدفع تقرير صادر في سنة 1860 متعلق بمدرسة قسنطينة، إلى استشفاف ابتهاج فرنسا الكامل، لرؤيتها تَقَدُّمَ الإزدواجية اللغوية :«المجموع الكلي للتلاميذ تقريبا، مكوَّن من أفراد أذكياء حقا، وقد استُقبِل الإعلان كذلك عن دروس في اللغة الفرنسية ابتداء من العام المقبل، بأشدِّ التعبيرات، عن مشاعر الفرح، حيويةً، سواء من جانبهم أو مِنْ جانب أساتذة المدرسة. جميعهم يتفهَّمون ويقدِّرون أهمية هذه الدروس وكذا الفضائل العديدة

---

[67] لأجل ضبط استعمال القرض المفتوح بميزانية الجزائر، والمتعلق بمنحة الإقامة المقدَّمة لعدد معيَّن من تلاميذ المدارس، قررت الحكومة العامة انطلاقا من سنة 1867، أنَّ هذه المنحة المحددة بمائة فرنك للتلميذ سنويا، ستُدفَعُ فصليا، في الأجل المستحق عن حالات مسجلة بأسماء أصحابها وموقع عليها من الأطراف القابضة.

CAOM, 24S/1, Le 3 mai 1866, Circulaire aux trois provinces du gouvernement général de l'Algérie.

[68] CAOM, 24S/1, Rapport sur la Medersa de Tlemcen, 20 mars 1857, Le capitaine chef du bureau arabe.

التي هم مدعوون لاستخراجها من معرفتهم بلغتنا، حيث سَتُمَكِّنُهُم من توسيع تعليمهم، إلى ما وراء الحدود الضيقة المُسَيِّجة له حاليا»[69]. وكانت السلطات العمومية مُبْتَهِجة، وهي ترى أمارات التعاون* مع الإنجاز الكولونيالي وعلامات التعاطف مع الثقافة الغربية، التي كانت تثبت بالضربة نفسها أهمية الاستمرار في السياسة الثقافة الفرنسية.

3. الجماليات النمطية الجديدة في مجال الهندسة المعمارية وفنون الزخرفة.

أدَّت الهندسة المعمارية وفنون الزخرفة دورا مُهِمًّا، بمساهمتها في مسار احتواء الأهالي عبر التحكم في ثقافتهم. سِيَّما في عهد الأعمال المرتبطة بالاستكشاف العلمي للجزائر، حيث كلَّفت السلطات

---

[69] CAOM, 24S/1, Rapport sur la Medersa de Constantine, 2ème trimestre 1860.

* رأي الجزائريين في الاحتلال الفرنسي موجود في الكتابات والعرائض والصحف والرسائل والخطب والأعمال التي قاموا بها أفرادا وجماعات وأحزابا منذ سنة 1830 إلى غاية سنة 1962. وكانت الثورات تعبيرا آخر عن هذا الموقف من الاحتلال، وكذلك الحركات المنظمة في أحزاب وجمعيات خلال القرن العشرين. فمطالبها مدروسة ومفصلة في مختلف الدراسات الجزائرية. إن من يرجع إلى كتابات حمدان خوجة زخطب الأمير عبد القادر وأوامر أحمد باي وإعلانات الجهاد في الثورات الجزائرية العديدة، وعرائض أعيان المدن،وكتابات رجال الإصلاح، وصحف الأحزاب الوطنية، سيجدها معبرة أصدق تعبير عن رأي "الأهالي" في الاحتلال الفرنسي لبلادهم. ولكنَّ فئة قليلة من المتجنسين لاحقا بالجنسية الفرنسية أو المتزوجين من فرنسيات نادت بالاندماج. (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 296/6. طبعة البصائر2009.)

الاستدمارية، مهندسا معماريا مشهورا، بإعادة استنساخ النصب التذكارية العربية على الألواح، لاعتقادها بأنها جديرة بالاهتمام وحَرِيَّةٌ بالتصنيف. بفهرسة القيمة الجمالية لهذه «المنتوجات الثقافية» ودراستها والحكم عليها، كانت فرنسا تأخذ بزمام التحكم فيها واسترجاعها. وقد ساعدها في ذلك، أنَّ المحافظة على النصُب التذكارية* غير ذات قيمة في الثقافة العربية. وتشرح **نبيلة أولبصير** أنه لا يوجد في اللغة العربية مكافئ لمصطلح patrimoine والكلمة العربية الأقرب هي التراث التي تحيل على مفهوم الإرث المادي والروحي على حد سواء. التقاليد الإسلامية ونظرا لاعتبارها أنَّ كل شيء «محكوم عليه بالتناهي»، لم يعد الإنسان لديها مركزا للكون،

* هذا الكلام ليس دقيقا، فالمحافظة على الآثار ودراستها من خلال علم الآثار، أمر طارئ على الغربيين أنفسهم. ومعلوم أنَّ التماثيل التي صنعها الأقدمون قبل الإسلام، تمثل تراثًا تاريخيًا، ومادة حية من مواد التاريخ لكل أمة؛ فلا يجب تغييرها باليد، بل هي دلالة على نعمة الله تعالى على الأمة التي هداها للإسلام، وحررها من عبادة الأصنام. وبقاء الآثار التاريخية القديمة في بلاد المسلمين دليل على أنهم ليسوا أقل اهتماما من الغربيين بها. وقد اعترف علماء فرنسيون بأن الجزائريين حافظوا على الآثار. ومنذ 1846 كتب أشيل فوكيه، بعد أن تجوَّل في نواحي قسنطينة وبسكرة، قائلا:"إن العرب (يقصد الجزائريين) قلما يهدمون الآثار، فالصخور المتراكمة فوق بعضها لا يمسونها. واعترف فوكيه أن الفرنسيين قد هدموا خلال الخمس عشر سنة من الاحتلال ما لم يهدمه العرب خلال عشرة قرون، وهو هنا يتكلم عن الآثار الرومانية.(أشيل فوكيه. "جولة من قسنطينة إلى بسكرة". مجلة الشرق. ص144-145. 1846.) (أنظر: المرجع السابق. ص144).

والإجلال موجَّه حصرا للإلهي. والرجال الذين أوتوا العلم والحكمة هم حملة التراث المهيأ للتبليغ [...]"[70].

ضمن هذه الشروط، احتكرت فرنسا الهندسة المعمارية العربية، واختارت النماذجَ المحتذاة للنصُب التذكارية، التي ستُحْفظ وتُرْعى (في حين يُدمَّر غيرها أو يُهجَر)، وفق ما تحدِّده هي نفسها من معايير جمالية. ويجب أنْ نلاحظ بهذا الصدد، أنَّ فرنسا انتقت هذه النماذج من العَيِّنة المنتمية إلى المدرسة الأندلسية (ذات الاستلهام القوطي): «لِعَرَبِيَّتي رائحةٌ قوطيَّةٌ» هكذا كان يقول بهذا الشأن **دوطوا** Duthoit، أحدُ صانعي هذه الحركة. وانتهى العرب أنفسُهم بقبول واستيعاب قنوات ثقافية اختارتها فرنسا.

ظلت السلطات، لفترة طويلة، غير آبهة بِحِرَف الأهالي، إلا قليلا. ويمكننا أنْ نُسَجِّل، رغم ذلك، المبادرة المهمة في مجال السياسة الثقافية، والمتمثلة في تشجيع تعليم نساء الأهالي الشابات (في معارضة

[70] Oulebsir, *loc. cit.*, p.74.

للتقاليد الدينية) عبر دعم المعامل التي تمارس فيها النساء أشغال الطرز والخياطة المستوحاة من الحرفة المحلية، إذ كانت تتلقى كذلك مبادئ أولية في التعليم (العربية صباحا، والحساب بعد الزوال). وكان هذا الدعم يتجلى تحديدا، في مِنَح ومكافآت للعاملات الشابات، ويهدف إلى تيسير العمل على تحسين وضعية النساء في المجتمع بتوفير إمكانية التعلم لهن. ولم يكن هذا العمل الأساسي، الذي قامت به فرنسا في معظم مجالات الثقافة التقليدية والدينية، إلا المرحلة الأولى في مسار طويل وعسير لإعادة التنشئة الاجتماعية، يتمثل في إلغاء كل عنصر معارض للثقافة الاستدمارية بالجزائر.

ب. التغريب

1. اللغة

سعت السلطات، في بداية المرحلة المعنية، إلى تطوير ثقافة مختلطة، ومزدوجة، عربية-فرنسية. ولكنَّ هذا المشروع لم يكن مُبَرَّراً من الاعتبارات السياسية. فقد بدت العربية، سريعا، أداة ضرورية لإدارة الأهداف السياسية جيدا. "إنَّ السلطات بمراعاتها للفائدة الآنية، رأت في دراسة لغة البلد وسيلة للاختراق السياسي، أكثر من كونها عنصرا للثقافة الفكرية"[71]. كانت الحملة العسكرية مجهَّزة بهيئة كافية من المترجمين، ولكن غالبيتهم جاؤوا مؤقتا، وحينما كانوا يغادرون المستدمَرة، كانوا يتركون بغيابهم شعورا قاسيا. وهكذا، ولأجل إشباع حاجات إدارية وعسكرية بديهية، كان من اللازم تكوين مترجمين، من الأهالي والفرنسيين. "كان لزاما، خلق كل شيء في هذا المجال، الذي لا يُخْفِي أهميتَه

[71] Esquer, *loc. cit.,* p.16.

أحد"[72]. بدأت المحاضرات التعليمية للغة العربية منذ سنة 1832. وأصبح هذا التعليمُ مُرَسَّمًا بخلق كراسي عمومية في المدن، ابتداء من سنة 1836. وقد **ألقى لوي بريسنيي**، أوَّل حائز على أول كرسي (بالجزائر العاصمة)، خطابا افتتاحيا صريحا قال فيه :«يمكن لهذه الدراسة، أن تمنح لوطننا فضائل عظيمة بإتاحتها لعلاقاتٍ مع الأهالي، وجعْلِنا نقدِّر على نحو أحسن طبع شعوب، نحن مدعوون إلى تلقينها شيئا فشيئا أفكارَ حضارتنا». إنها الوسيلة الحقيقية لكسر الحاجز، الذي نصبته لغةٌ وعاداتٌ مختلفة عن عاداتنا، بيننا وبين الشعوب التي علينا العيش معها في انسجام»[73]. وقد بدا، أكثر فأكثر، أنَّ وراء الجانب العملي الآني، يقف مستقبل المشروع الاستدماري كلّه، المرتبط بهذا التكيُّف الفرنسي. ضِفْ إلى هذا، أن مدير دار مصطفى للمعلمين، كان مقتنعا بأنَّ تعلم المدرِّسين للعربية ضروريٌّ، بالنظر إلى «التطبيق الممكن لهذه المعرفة،

[72] *Ibi.,* p.16.
[73] 17 janvier 1837, cité dans *ibid.,* p.16.

سواء من الناحية المدرسية أو السياسية»[74]. وحتى إنْ بدا مِنْ بعض الخطابات استشفافٌ لمواقفَ مثالية ذات إلهام **سانت-سيموني،** فقد كانت العربية مراعاة لأجل جانبها النفعي.

بالإضافة إلى ذلك، شارك اللغويون في مهمة ترقية اللغة الفرنسية. وبوساطة التصنيف الكمي للغات، الذي تُشَكِّل فيه العائلة الهندو-أوروربية قمة السُلَّم، "أُقْحِمت فكرة اللغات، ذات البُنى البدائية والواقعيات الأولية"[75] التي كانت تساهم في تبرير شرعية التوسع الاستدماري عبر تفوق المستدمِر. وُضِعت نظرية الكلام واللغات إذنْ، في خدمة السياسة الاستدمارية الفرنسية". ويتحدَّث **موريس أوي** Maurice Houis عن "كفالة علمية للسياسة الاستدمارية"، ......[76]. ويصف **مصطفى الأشرف**

[74] Cité dans Aimé Dupury, "Les débuts de la formation des instituteurs à Alger", *L'Algérianiste,* p.17.
[75] Louis-Jean Calvet, *Linguistique et colonialisme - Petit traité de glottophagie*, Paris, Petite bibliothèque Payot, 1979, p.38.
[76] Maurice Houis, *Anthropologie linguistique de l'Afrique noire,* pp.30-31. Cité dans *ibid.,* p.39.

مسار تهميش اللغة العربية قائلا:"أُعْلِنَتِ الفرنسية لدى الشعب لغة الحياة الدنيا، في مقابل العربية التي أصبحت لغة الاستحقاق الروحي في الحياة الأخرى" [77]:

> تحتل اللغة الغالبة (الفرنسية هنا) المجال الدنيوي. أيْ كل ما يتعلق بالحياة اليومية، الإدارة، والعدالة، والتقنيات، والسياسة، والدراسة، إلخ.. في حين أن اللغة المغلوبة* (العربية هنا) دُفِعت إلى المجال المقدَّس. وهكذا أصبحت المقابَلة بين اللغة الغالبة واللغة المغلوبة، محوَّلة إلى مقابلة بين القديم والجديد: فاللغة المغلوبة، مجبورة تقريبا على تقبل حال اللغة

[77] Mostapha Lacheraf, *L'Algérie, Nation et Société*, Paris, 1965, p.324. Cité dans *ibid.*

* الغالب والمغلوب هنا، ليسا صفتان ذاتيتان ملازمتان للغتين، بل مرتبطتان بالحالة العسكرية - السياسية لأهل اللغة.

الإيمانية الرجعية، وهي الصورة التي تقدِّمها عنها وسائل الإعلام على الأقل[78].

كان تحقير اللغة العربية يترافق مع حطٍّ من قيمة الثقافة التي تحمِلُها، ويساعد المشروع الاستدماري الذي كان بحاجة إلى فرض الفرنسية لغةً للتقدم وللمستقبل. هناك استثناء جدير بالذكر، فقد استعمَلت فرنسا بالضبط اللغة البربرية ضد التعريب، بل أنشأت أبجدية غير عربية لإعادة تدوين لهجاتها. نشرت وزارة الحرب في سنة 1844 قاموسا فرنسيا-بربريا عنوانه اللهجة المكتوبة والمنطوقة من سكان القبائل في منطقة الجزائر العاصمة.

ومهما يَكُنْ مِنْ أمر، كان الكثيرون يعتبرون الفرنسية عنصرا رئيسيا في الحضور الفرنسي، و«أكثر الأدوات فعالية» (**ديوو دو روفيڤو** Due de Roviguo، 1832) لإحراز تقدم في تحقيق المصالح الفرنسية بالجزائر. لم يكن بمقدور فرنسا أن تحافظ

---

[78] *Ibid.*, pp.76-77.

على وضعيتها دون أن تجعل من لغتها اللغة الأولى، لغةَ الإدارة والتربية. كان على اللغة الفرنسية أن تمكِّن الحضارة الأوروبية من التدخل في الدائرة الثقافية، لكي تتسلل شيئا فشيئا إلى مجتمع الأهالي والتحكم فيه، في نهاية المطاف، بفضل إدراج معايير جديدة. كدَّت السلطات إذن، في تعزيز نشر اللغة الفرنسية، التي تَوَفَّر لها الدعمُ النشط لجهاز الدولة:"كانت السلطات الفرنسية تتسامح مع المدارس القرآنية وتدعِّمها، تلك التي برهنت عن « حكمتها» بقبولها تخصيص خمسة عشر سنة أسبوعيا للغة الفرنسية"[79].

2. تربية المسلمين

أدركتْ السلطات العمومية في وقت مُبَكِرٍ جدا، أنَّ نشر اللغة والثقافة الفرنسيتين، يمر عبر المدرسة* حتما. وقد حاولت فرنسا فرض هذه المدرسة بنشر

---

[79] Guy Pervillé, *Les étudiants algériens de l'Université française*, 1880-1962, Paris, éd. Du CNRS, 1984, p.26.

* كل الذين درسوا موضوع التعليم بالجزائر غداة الاحتلال اندهشوا من كثرة المدارس وحرية التعليم وكثرة المتعلمين ووفرة الوسائل من أجل التعليم. للإطلاع على الحالة المزدهرة للتعليم بالجزائر قبل سنة 1830، (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. الجزء الثالث. طبعة البصائر2009.)

واسع للوسائل وعلى نحو شبه "استحواذي"[80]. وإذا كان الكثيرون يدافعون عن فكرة، أنَّ هذه المهمة أُريد لها أنْ تكون إنسانية، فإنَّ بعض الكتَّاب يعتبرون على العكس من ذلك أنَّ " [...] «الرسالة التمدينية» الممثَّلة في المدرسة الفرنسية، قد بدت منذ البدء، أداةً للهيمنة في خدمة المغامرة الاستدمارية"[81]. وهذا لا يلغي ذاك، ومهما يكنْ من أمر، فقد كانت السلطات تعي، بلا شك، أنَّ التربية على الطريقة الفرنسية، وخارج الاعتبارات الفلسفية، يمكنها أن تكون أداة عظيمة للسلطة، ذات نتائج جوهرية على مستقبل المستدمَرة. في سنة 1848، أخذت السلطات العمومية بزمام الأمور، وتحوَّلت الجزائر إلى أكاديمية وأعيد تنظيم التربية[82]. وقُسِّم التعليم العام إذنْ، إلى فرعيْن مختلفيْن: فإدارة التعليم في المدارس الفرنسية واليهودية من الاختصاص الحصري لوزارة التعليم العام، بينما

---

[80] Expression employée par Yvonne Turin.
[81] Lanasri, *op. cit.*, p.33.
[82] CAOM, 1S/1, Ministère de la Guerre sur l'Arrêté de la présidence du Conseil en date du 30 mai 1848 - L'administration de l'instruction publique en Algérie est remise au ministère de l'Instruction publique.

سيظل التعليم العام في المدارس الأهلية الإسلامية موضوعا ضمن صلاحيات وزارة الحرب، لأن «التعليم المخصَّص للمغلوب -كما يشرح ذلك هو نفسه- كان دافعه الاعتبارات السياسية لا المدرسية». وهكذا، وكما يلاحظ **أحمد الأنصاري** :"لم تُعَرَّفْ صلاحيات كلٍّ مِنْ وزارتَيْ الحرب والتعليم العام، من خلال طبيعة التدريس وإنما من خلال طبيعة المدرَّسين"[83]. أدرَكَ العسكريون، في وقت مبكر، عبر المواجهة الدائمة مع الواقع، أهميةَ تمدرس المسلمين برعاية فرنسية:«إذا قرَّرنا الحفاظ على السكان الأهالي فوق الأرض الجزائرية، وإذا أردنا ضمان مصالحنا المادية، وتطوير هؤلاء السكان وربطهم بسكاننا عبر الوَحدة. لا مجال للشك في أنَّ إدارة التعليم العام لهذا الشعب، هي هنا، وأكثر من أي مكان آخر، وسيلةٌ قويةٌ للحكم»[84].

---

[83] Lanasri, *op. cit.*, pp.33-34.
[84] CAOM, 22S/1, Armée d'Afrique, Province e Constantine, le 12 février 1847, Rapport du lieutenant général commandant la province au Gouverneur général de l'Algérie.

كـان علـى المدرسـة الفرنسـية أنْ تقـومَ بـالغزو الروحـي للأهـالي، تُـوَعِّيَهُمْ بتفـوُّق حضـارتها وتُعَـزِّزَ هيبتهـا، وتُشَـرْعِنَ الحضـور الفرنسـي، وتَصْـنَعَ سكانًا أقلَّ عداء وتَنْشُر اللغة والثقافة الفرنسيتين، لأجل خلق ظـروف مسـاعِدة فـي نهايـة المطـاف علـى الديمومـة السياسية للغزو. «إنَّ فتح مدرسة وسط الأهالي يَعْدِلُ كتيبـةً مخصصـةً لإخمـاد الـرفض فـي البلـد» كمـا كـان يقول **دوك دومـال**[85] Duc d'Aumale. انكبَّتْ فرنسا إذنْ، على مهمة صعبة، هي نشر تعليم عربي-فرنسـي مخصَّص للأهالي، لـه أهميـة سياسية عظيمـة، لهذا لـم يكن ممكنا ترك أيٍّ شيء فيه للصدفة. في سنة 1849، قـدَّمت الحكومـة مشـاريع قـوانين عـن التعلـيم العـام الأهلي، لأجل المصادقة عليها. يتعلق الأول بالمدارس الإسـلامية تحديـدا، تَبَنَّـاه المجلـس خـلال جلسـة 24 ديسمبر 1849؛ والثـاني بالمدارس العربيـة-الفرنسـية، تبنـاه المجلـس نفسـه خـلال أسـبوع 24 جـانفي. وكانـت

[85] Pervillé, *op. cit.*, p.16.

الحكومة قد عرضت على الوزارة الاعتبارات التي أدت بالمجلس إلى تبني هذه المشاريع:

> في الوضع الحالي للأمور، يجري تعليم الشعب العربي خارج مجال تأثيرنا. والمؤسساتُ المكلَّفة بإدارته، ونظرا لعدم تلقيها أيّ شيء منا وعدم تعرضها كلية أو تقريبا لرقابتنا، مجبرةٌ على تجنب غرس أفكارٍ مشجِّعة لهيمنتنا في عقول التلاميذ العرب، بحيث أن الجيل المربَّى لن يكون أقل عداء، من الجيل الذي هو مهيأ لخلافته، إذا لم نأخذ حذرنا من ذلك. ولتحاشي ذلك، يجب أنْ نجعل أساتذة الشبيبة في صفنا، يجب إذنْ، أنْ نمنحهم مزايا بحيث يكون من مصلحتهم خدمتنا [...]. [في الظرف الحالي] حتى أشدُّ الأهالي ولاء لقضيتنا لديهم نفورٌ كبيرٌ جدا من تعليمنا [...]. والهدف الذي نقترحه من

وراء هذه القوانين الجديدة هو أن ندرج في مبدأ المدارس الإسلامية عناصر غير تلك التي تشكِّلها حاليا. علينا النفاذ داخل هذه المادة اللطيفة عبر زاوية حادة، وستنفتح الزاوية تدريجيا وسنصل فيما بعد إلى الهدف الذي بإمكاننا استشفافه - وليس تحقيقه- منذ الآن[86].

وقد بدا أنَّ المرسوم المؤرِّخ في 14 جويلية 1850، الذي صادق عليه ووقَّعه رئيس الجمهورية، **لوي نابليون بونابرت**، يتابع هذه الاعتبارات:

نظرا لاقتراحات الحكومة العامة بالجزائر، ومداولات مجلس الحكومة بتاريخ 21 و24 جانفي 1850 حول مشروع قانون متعلق بتنظيم المدارس الإسلامية الفرنسية [...] الذي يعتبر أنَّ مِنَ المهم تيسير نشر

---

[86] CAOM, 22S/1, Secrétariat général du Gouvernement, Alger, le 23 février 1850.

اللغــة الفرنســية وســط الســكان المســلمين للجزائر، فقد قرر [...] رئيس الجمهوريـة (الفصــل الأول، فقــرة مــدارس الــذكور، المـادة الأولـى) أنْ تُنشَـأ فـي كل واحدة من مــدن الجزائــر التاليــة: قســنطينة، بونــة (عنابـة)، وهران، بليدة، مستغانم، مدرسـةٌ ابتدائية للتعليم المزدوج للعربيـة والفرنسية لصـالح التلاميذ المسلمين. وسَيُوسَّع إنشـاء هـذه المـدارس بالتتــابع، إلــى المـدن ذات الأهمية العامة المعترف بها لدى الحكومة العامة بالجزائر، بـاقتراح من الوالي [...]. (المـادة الثانيـة) التعليم الابتـدائي بالمجـان، ويشمل: قراءة العربيـة وكتابتهـا، وعناصـر اللغة الفرنسية، وقراءة الفرنسية وكتابتهـا، وعناصـر الحساب، والنظـام الشرعي للثقل والقياس [...]. (فقرة مدارس البنات. المـادة 7) تُنْشَأ مدرسـة ابتدائيـة للفتيـات المسلمات

في مدن الجزائر التالية: قسنطينة، وهران وبونة. (وسَتُوَسَّع هذه المؤسسة تدريجيا) [...]. (المادة 8) ومثلما هو الحال مع الذكور إضافة إلى أعمال الخياطة [...][87].

وضعت السلطات منذئذ يدها كلية على تعليم الأهالي، وكانت الاعتبارات السياسية تشمل تنظيمه على جميع المستويات. كانت الكتيِّبات المدرسية، مثَلا، جزءً جوهريا من النظام وكانت تُصَمَّمُ بعناية: بل كَلَّفت اللجنةُ المؤسَّسة بمرسوم 16 جوان[88]، أكاديميةَ الجزائر العاصمة بـ "تحضير عدد من الكتب الأولية وتحريرها، وترجمتها إلى العربية بعد الموافقة عليها، وهي كتب مخصصة لتعليم التلاميذ المترددين على المدارس الإسلامية ذوات المستويات المختلفة [...] ومذكور في التعليمات أنَّ الكتب المحضَّرة من اللجنة

---

[87] CAOM, 22S/1.

[88] CAOM, 22S/1, Algérie, le 16 juin 1849, Arrêté du général de division gouverneur général de l'Algérie, Art. 1 : «Une commission est instituée à Alger dans le but de rédiger des ouvrages élémentaires en langue arabe destinés à l'instruction des élèves des écoles indigènes de l'Algérie et d'en préparer l'adoption du gouverneur général».

لن تُتَرجم إلا بعد الموافقة عليها. وترى اللجنة أنَّ هذه رقابة سياسية تراد ممارستها على هذا العمل عوضا عن الرقابة الأدبية. وَهِي مُسْتعدَّة لأن تخضع لذلك، بهدف تجنُّب إفلات أيِّ شيء من السيطرة، بإمكانه إيقاظ مشاعر العرب والإضرار بقضيتنا"[89].

اتفقت الحكومة العامة بالجزائر ووزارة الحرب على اعتبار التعليم العام للمسلمين أولويةً حرجةً، تتطلَّب تنظيما يمنحهما سلطةً أكبر في القرار. وتشهد مراسلاتهما على ذلك، كما تعطي فكرة جيدة عن نتائجها السياسية، المعترَف بها للمنظومة التربوية أكثر فأكثر، بحكم الدور المراد لها لعبه وسط السكان الأهالي، لدعم مهمة الفرنسة ومحو الإسلام، وهذا لتعويض المنظومة التربوية التقليدية في نهاية المطاف، شيئا فشيئا، وتكوين نُخَب جديدة في صف القضية الفرنسية. وعلى إثر رسالة مؤرخة في 19 أوت صادرة عن الحكومة العامة بالجزائر، أرسل

[89] CAOM, 22S/1, Académie d’Alger, Université de France, Rectorat d’Alger, le 25 juillet 1849.

وزير الحرب الردَّ التالي إلى رئيس الجمهورية (سبتمبر 1850):

وسط المسائل المهمة التي يُؤَثِّر حَلُّها حتما على مستقبل هيمنتنا بالجزائر، هناك في المقام الأول التعليم العام للأهالي. لم يعد تدخل الحكومة ضروريا في أيِّ مكان لتنظيم ومراقبة وإدارة التعليم العام. وإذا كان على الرعب المستوحى من أسلحتنا، أنْ يظل طويلا الضمانة الرئيسية لديمومة خضوع سكان متمردين، يفصلنا عنهم بشدة، العرقُ والدينُ، علينا أن نعترف أن عدلَ حكومتنا، وخدماتِنا للشعب، بإمكانهما طمأنة الأهالي بشأن نوايانا، وتهدئة قلقهم نتيجة غزو الاستدمار الأوروبي التدريجي لجزء من أراضيهم الزراعية. ولا شك، أن العناية الممنوحة للتعليم العام ستخدم هذه النتيجة. في مجال الاعتقاد، يثير العنفُ

الوعيَ بينما يمكننا عبر التطوير المتدرِّج والذكيٌّ للدروس أنْ نَأْمل في تجاوز التعصب وإبطال مفعوله. إنَّ إعادة إنشاء مدارس الأهالي، تحت وصايتنا، في الأماكن التي تخضع أكثر لهيمنتنا، هو تهيئةٌ للسكان العرب لتقبل تدخلنا في أشد المجالات تعقيدا. وعبر اختيار الأساتذة، لدينا وسيلة للتأثير على أبعد الطبقات عنا، طبقات رجال العلم والدين. بعد أن أجرينا حساب الذين نسميهم رجال السيف ويسميهم العرب رجال البارود، علينا أن نضم إلينا أولئك الذين يُؤَثِّرون على العوام، من خلال سلطة التقاليد وقوة الكلام، وهو التأثير المسلَّم به أكثر من غيره[90].

وقد اقترح الوزير لاحقا إعادة تنظيم المدارس العليا في حين تظل المدارس الابتدائية والثانوية تحت

---

[90] CAOM, 22S/1.

سلطة الحكومة العامة بالجزائر. في 30 سبتمبر، ردَّ قرارٌ رئاسي بالإيجاب على توصياته ووضع المدارس الإسلامية تحت سلطة الحكومة العامة.

نلاحظ، عند قراءة الأرشيفات المختلفة (قوانين، مراسلات، قرارات) أنَّ إحدى وسائل الحركة والذي بدأ انبثاقه واستمرَّ يتعزز لتيسير انتشار هذه المنظومة التربوية و«شعبيتها»، هو وسيلة المِنَحِ. كما يمكننا أن نقرأ تحديدا، في المادة 2 من القرار المذكور آنفا أن «رأسمالا سنويا مسَجَّلا في ميزانية الدولة سَيُوجَّه للموافقة على علاوةٍ للمدرِّسين المميَّزين وأكثر التلاميذ جدارة». ولا تؤكد هذه الفقرة إلاَّ الطابع السياسي لنظام الاستحقاق في التعليم الأهلي كما رُسِّمَ سنتين قبل ذلك في المادة 8 من تنظيم التعليم العام[91] («تعيين ثلثي التلاميذ المستفيدين من المنح مِنْ حق وزير الحرب») وفي المادة 9 («في حالة الدعم المخصَّص لإشراك

[91] CAOM, 1S/1, ministère de la Guerre sur l'Arrêté de la présidence du conseil en date du 30 mai 1848 – L'administration de l'instruction publique en Algérie est remise au ministère de l'Instruction publique.

الأهالي المسلمين الجزائريين في التعليم داخل المدارس الفرنسية، يكون تعيين هؤلاء الأهالي من حق وزير الحرب، دائما وحصرا»). في تقرير مؤرخ في جويلية 1848 لوزير الحرب، يمكننا أن نقرأ بهذا الصدد: [...] إنَّ نص المادة نفسها (8) الذي يخوِّل لوزير الحرب على نحو حصريٍّ، تعيين التلاميذ المسلمين المستفيدين من المنح، هو نتيجة للمبدأ الذي يُبْقي ضمن مهام دائرته جميعَ الشؤون المتعلقة بالسكان المسلمين. وستكون مِنَح هذا الصنف، بالإضافة إلى ذلك، مُقَرَّرَةً وفقا لاعتبارات سياسية، وحده الوزير بإمكانه تقديرها، والذي من مهامه الحكم العام للبلاد»[92]. وهكذا، فضَّلت السلطات أبناء رفيعي المقام من رجال الدين، أو أبناء حلفاء الخيمة الكبيرة. وفي سنة 1849، مثلا، تلقى منحةً ابنُ شخصيةٍ دينيةٍ مهمةٍ، وكلَّفت الحكومة العامة للجزائر أحدَ موظفيها بـ

---

[92] *Ibid.*

"إيصال الشاب ابن سيدي أحمد بن الحاج علي، إمام مسجد بجاية، إلى باريس"[93].

حاولت فرنسا بكلِّ الوسائل، جذْب الشباب الأهالي نحوها، و«ترسيخ التعليم العربي-الفرنسي وتطويره»[94]. انطلق كلُّ شيءٍ لأجل هذا الهدف رغم ممانعات السكان: هناك مِنَحٌ، بالتأكيد، ولكنْ توزيع جوائز أيضا[95]، وعلاوات مختلفة، ومكافآت يومية، وتسامح ديني (تقبلت الجمهورية الثانية والإمبراطورية الثانية الصلاة الإسلامية بالمدرسة الفرنسية). وإذا كانت النتائج قد تمثلت تحديدا في جلب أشد التلاميذ فقرا، فإن السلطات العمومية أظهرت تفاؤلا معينا بشأن ترددِ الطبقات الميسورة أكثر على مدارسها، والآفاقِ المستقبلية للمدرسة العربية الفرنسية. في تقريرٍ طلبَه وزيرُ الحرب عن النتائج الأولية لتطبيق

---

[93] CAMO, 22S/1, GGA, Secrétariat général, liste de divers dossiers traités entre 1846 et 1849, Alger, le 4 octobre 1849.
[94] Y. Turin, "Une page de publicité scolaire: la distribution de prix des écoles arabes- françaises à Alger en 1852", *Revue d'histoire maghrébine*, n°21-22, avril 1981, p.72.
[95] Ibid; p.72.

القرارات المتعلقة بتنظيم تعليم المسلمين، يمكننا أنْ نقرأ أنَّ «التلاميذ يجيئون على وجه خاص من الطبقات الاجتماعية الفقيرة، ولكنَّ رفض الطبقات الميسورة أكثر لوضع أبنائها في المؤسسات الجديدة يتجه نحو التضاؤل. بحيث نشهد تدفق تلاميذ عليها تدريجيا، و هم ينتمون إلى جميع طبقات المجتمع»[96]. يبدو الاندماج الثقافي متقدما كذلك إذ «يُلاحَظ من وجهة نظر التعليم، اندماجُ عددٍ لا بأس به من التلاميذ المسلمين في اللغة الفرنسية، وفي عاداتنا وأعرافنا، لا شعوريا، تبعا لذلك»[97].

شكَّل تكوينُ المعلِّمين عنصرا جوهريا في السياسة المدرسية الفرنسية. إذ كانوا يمثِّلون في مجال التربية، صورةَ ثقافةٍ، وحواملَ صرحٍ بأكمله، وضماناتِ نجاحٍ باختصارٍ شديد، ولم يكونوا القوى الموجِّهة لرؤية العالم بشكل من أشكال، فحسب. إنَّ

[96] CAOM, 22S/1, Préfecture d'Alger, Administration indigène, ministre de la Guerre, direction des Affaires de l'Algérie, 1er Bureau, vers 1850.
[97] *Ibid*.

المصداقية التي اكتسبوها وسط السكان بفضل سماحتهم وإخلاصهم، ما فتئت ترفع هذه الأهمية في عيون السلطات العمومية. ولم يكن ممكنا رغم ذلك، نقل الحضارة الفرنسية، ومعاييرها، وقيمها، إلا عبر المدرسة، التي ما تزال غير منتشرة، ولا تمس إلا جزء يسيرا من السكان الأهالي. وهكذا، وُضِعَتْ أَدَوَاتٌ مُسَاعِدةٌ أخرى في خدمة هذا المشروع الكبير، الذي كان المُبَشِّرُ به هو الناطقُ بِلِسانِ رِسالةٍ، تحمل في ذاتها، وفيما وراء دلالتها الدينية، أَحَدَ أُسُسِ الحضارة الغربية نفسها.

3. الفلسفة المسيحية

كانت الصراعات مألوفة بين السلطات العمومية وعلماء الدين المسلمين. وكان الإسلام بالجزائر، يتمتع في الواقع بـ "الحماية العمومية"[98]، ولم يكنْ رجالُ الدِّين المسيحيِّين، مكلَّفين رسميا، إلا بالمسيحيين. أخذ

---

[98] A. Berenger, "Dupuch (A.A.) premier évêque d'Alger", *Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclésiastique*, tome XIV, 1960, p.1148.

رجال الإيمان المسيحي، بتشجيع من السلطات الكهنوتية، المبادرةَ بالتعدي على أرضية السلطات السياسية عبر حماسة تبشيرية، انتقدتها بعنف "إدارة فولتيرية أو لم تُلْقِ لها بالا في أحْسن الأحوال، فقد كانت تشك في النتائج السياسية لتبشير كاثوليكي وسط الأهالي"[99]. كَدَّت السلطات لإبقاء سلطتها على الكنيسة الجزائرية، التي رغبت في إبقائها أسقفية «مشابهة في جميع علاقاتها بأسقفيات المملكة»[100]، "يحكمها إذن الميثاق ولها أسقف يُعَيِّنه الملك"[101].

وكان يقابل هذا، إرادةٌ تبشيرية أكَّدتها مرات عديدة السلطات البابوية التي كانت تنوي ربط المستدمَرة الفرنسية بدعايتها، وإذا لم تبرز الإرادة التبشيرية وسط المسلمين صراحةً في الوثائق الرسمية لرجال الدين المسيحي، فلا شك في أنها كانت رغم

[99] Pierre Soumille, "Les Multiples activités d'un prêtre français au Maghreb: l'Abbé François Bourgade en Algérie et en Tunisie de 1838 à 1858", dans Collectif, *Histoires d'Outre-Mer – Mélanges en l'Honneur de Jean-Louis Miege*, tome I[er], Aix-en-Provence, Publications de l'Université de Provence, 1992, p.236.
[100] Archives du ministère des Affaires Étrangères, vol. 976-980: *Mémoires et documents*, vol. 115. Cité dans Berenger, *loc. cit.,* p.1148.
[101] *Ibid.* p.1148.

ذلك واقعةً فعلا (تظهر في مراسلات كثيرة خاصة لرجال الكنيسة الجزائريين). وكان **لافيجري** بمساعدة الآباء البيض قد باشر حتى تحويل سكان القبائل الكبرى إلى موارنة جُدُد. "كان رئيس الأساقفة مفتونا بالماضي الباهر للكنيسة الأفريقية، مستدعيا لرمزها السابق القديس **أوغسطين**، يرى من الواجب إدماج هؤلاء البربر (المسيحيين ماضيا !!) بتنصيرهم: ورغم أنَّ آماله لم تكن وهمية، فقد تبدَّدت سريعا جدا، بتصدي البعض لها ومنهم السلطة"[102]. كان أسقف العاصمة يأمل في تعميد اليتامى كذلك، الأمر الذي جلب له صواعق الحاكم، رغم أنه كاثوليكي، وقد عارضه «بالنظر إلى التزامات فرنسا»[103].

وبحرص السلطات العمومية، قبل كل شيء، على تجنُّب الموضوعات التي تُغْضِب الأهالي، قلَّصت

[102] Goinard, *op. cit.,* p.302.
[103] *Ibid.,* p.302.

إذن، وبانتظام من مبادراتِ التبشير الديني*، «العنيفة» أكثر من اللازم. رفض المارشال **فالي** Valée ترشيح اثنين من رجال الإيمان المسيحي للمنصب الرئيسي لكوليج الجزائر العاصمة لأن العَهْدَ بإدارة كوليج بالعاصمة لرجل دين كاثوليكي أو مسيحي، كما يشرح ذلك، يختزن سلبيات كثيرة، بالنظر إلى وضعيتنا الخاصة بأفريقيا: «ستكون صفتهما موضوعَ تحدٍّ للسكان الحسَّاسين جدا إزاء مشاعرهم الدينية والذين نرغب في اجتذاب أبنائهم إلى مدرستنا، كوسيلة للتقارب والانصهار لصالح المستقبل»[104]. من ناحيته، ردَّ وزير الحرب في الاتجاه نفسه في 31 جويلية 1838، على وزير المالية، مُسْتدعيا «الاعتبارات

---

* في الواقع، كان الدافع الديني قويا في أذهان القادة الفرنسيين لاحتلال الجزائر. فقد وعد تقرير العقيد **كليرمون تونير** إلى الجنرال **شارل العاشر** بتحقيق انتصار الكنيسة الكاثوليكية على الإسلام ورجوعها إلى أفريقيا كما كانت. ومن يتأمل في عبارات التقرير المذكور يدرك أن الروح التي كانت تقود رجال الدولة الفرنسية عندئذ لم تكن تختلف عن تلك التي كانت تقود إيزابيلا وفردينند في الأندلس ثلاثة قرون قبل ذلك. كم تلاحظ السلوك الديني لدى الجنرالات (**بورمون** و**كلوزيل** وغيرهما) بعد نجاح الحملة. وأوضح من ذلك، أن ممثلي السلطة الفرنسية هم من داسوا على اتفاق 5 يوليو 1830 الذي ينص على احترام الدين الإسلامي ومعابده، وهدموا المساجد وجعلوها مستشفيات واسطبلات ومخازن، وتحت سلطتهم تحول بعضها إلى كنائس، والقائمة طويلة. والفرق الوحيد، أن رجال الدين كانوا يريدون المواجهة وتحدي المسلمين، أما المسؤولون المدنيون والعسكريون فينهجون سبيل التوغل الهادئ والتسرب البطيء. (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 6/105-140. طبعة البصائر2009.) وللاطلاع بالتفصيل عن العلاقة بين التبشير المسيحي والاستعمار يرجى مراجعة كتاب: التبشير والاستعمار في البلاد العربية. مصطفى خالدي وعمر فروخ. المكتبة العصرية. 1986 أو كتاب: الاستعمار أحقاد وأطماع. الشيخ محمد الغزالي.)

[104] CAOM, F80-1562, 14 juillet 1838, le gouverneur général au ministre de la Guerre. Cité dans Soumille, *loc. cit.*

السياسية المحض، التي لا تغيب عنكم خطورتها الشديدة في الظروف الحالية، والتي تبدو لي متعارضة بشكل قاطع مع العهد بإدارة مؤسسة إلى رجل دين، بينما على جميع جهودنا أن تُوَجَّه إلى جذب الشباب الأهالي»[105]. وقد اقتُرِح أستاذٌ للغة العربية، في نوفمبر 1838، مديرا لكوليج الجزائر[106].

رغم ذلك، أجادت فرنسا الاستفادة في نواح عديدة، من حركة رجال الإيمان المسيحي. أولئك الذين كانوا يساهمون تحديدا في نشر الثقافة الفرنسية، بإحياء تقاليدها في التعميد أو الزواج، مثلا. بعبارة أخرى، كانوا يشكلُّون ضماناتٍ لكل الحامل الثقافي للهوية الفرنسية. بممارستهم للشعائر المسيحية، كانوا ينشرون ثقافة الحاضرة الفرنسية، ويضمنون تأثيرها. ساعد المبَشِّرون كذلك في «أَوْرَبة» européaniser الأهالي بأنْ غرسوا في أذهانهم، وعبر حركة اجتماعية، ممارسات ثقافية كانت تخلخل المعالم

[105] A.N., Paris, F19 6215, dossier Bourgade. Cité dans Soumille, *loc. cit.*
[106] *Ibid;*, p. 237.

العربية الإسلامية التقليدية. ويمكننا أن نقول أيضا أنَّ الكنيسة، ساهمت بحضورها وحركتها في نشر اللغة الفرنسية، باعتبارها عاملا ضروريا للنجاح السياسي: هيَّأ المبشِّرون الأرضية للإدارات عبر تعليم الأهالي اللغةَ الفرنسية، الناقل الضروري للأوامر الواجب توصيلها ووسيلة السلطة تبعا لذلك"[107]. شاركوا إذن بشكل عام، في الدِّفاع عن مصالح الحاضرة الفرنسية داخل المستدمَرة ومكَّنوا – كما كان يقول وزير البحرية في 1843- من توسيع الحركة السياسية والأخلاقية وسط السكان الأفارقة عبر التأثير الديني"[108]. في هذه الظروف، كانت العلاقات مع الدولة المستدمِرة، من حيث المبدأ، وثيقةً وجَيِّدة. وكان المبشِّرون يُعَدُّون من نواح عديدة، "أكبر المساعدين للاستدمار"[109]. ويُعَدُّ الكاردينال **لافيجري** رئيس أساقفة العاصمة سنة 1867 مثالا على ذلك: فقد

[107] Meynier et al., *op. cit.,* Tome I[er], p.530.
[108] *Ibid.,* Tome I[er], p.380.
[109] Xavier de Montclos, "Les «armes» du cardinal Lavigerie", dans Georges Balandier et Marc Ferro (dir.), *Au temps des colonies*, Paris, Seuil/ *L'Histoire*, 1984, p.82.

اعتبَرَ الإدماجَ الإداري والسياسي ضروريا لإعادة "الفتح المسيحي"، لهذا أقام روابط وثيقة مع السلطات العمومية التي ساعدها مباشَرة تقريبا في مهمتها (تقارير، معلومات).

4. الممارسات السوسيو-ثقافية الجديدة

كان يمكن لبعض الممارسات السوسيو-ثقافية الأوروبية، المنبوذة من الإسلام التقليدي، أنْ تَبْدُوَ أدواتٍ ثمينةً لدى السلطات الفرنسية إنْ أُحْسِنَ استعمالها. وحسب **لاباسيت** Lapasset، كان على الطب العسكري الذي حملته معها المكاتب العربية إلى العشائر، أنْ يكون «عنصرا قويا للتمدين، ومَقَامًا للاعتراف»[110]. ساهمت الصحة إذن، بصفة مهمة جدا في تغيير الذهنيات وتكييفها مع الحضارة الغربية. يُعَلِّق **إيفون تورين** Yvonne Turin على هذه الظاهرة قائلا :"نحن أمام جانبيْن من جوانب الطب

---

[110] République française, GGA, Cinquantenaire de l'Université d'Alger, Alger 1959, p.20. Cité dans Leimdorfer, *op. cit.*, p.11.

العلمي والسياسي-العسكري [...]. أحدهما يمنح أرضية ممتازة للمقاومة والتهيئة النفسية لملهمي التأطير الدفاعي، والآخر حيث يوطِّد الفكر الأوربي قدميه، دون أن يكون ممكنا واقعيا، معرفة إنْ كان الأمر متعلقا فعلا بثورة ثقافية أم بممارسات فقط"[111]. كانت الوضعية الصحية في تلك الفترة، كارثية (وباءات، وفيات أطفال...) ولم يكن عسيرا على الفرنسيين أن يثبتوا فعالية طرائقهم، بتبرير شرعية رسالتهم من وجهة نظر إنسانية، ولكنْ في الوقت نفسه، بجعلها مفيدة في عيون السكان أنفسهم. "الطب، انتصار الإنسان على المرض والموت، هو أحد الرموز المضيئة لمفهوم الحضارة"[112]. بتقبل الأهالي للصحة الغربية وحتى إستيعابها، كانوا يؤكدون تطورهم بالنسبة إلى إسلام تقليدي، ترتبط به الممارسات الثقافية والمدرسية والدينية ارتباطا

---

[111] Yvonne Turin, *Affrontements culturels*…, p.351.
[112] Jean-Claude Vatin, "Exotisme et rationalité: à l'origine de l'enseignement du droit en Algérie (1879-1909)", dans Vatin et *al., Connaissances*…pp.161-162.

وثيقا[113]. كما يلاحظ ذلك تحديدا **إ.تورين**، "المدرسة والطب هما الانعكاس، الحساس على نحو خاص، لتطورٍ يَتَّهِمُ من ناحية أخرى، نظرةً دينية معيَّنة للأشياء"[114].

[113] Turin, *Affrontements culturels*…, p.12.
[114] *Ibid.,* p.417.

الفصل الثالث

تعزيز الفرنسة: الفنون والثقافة

مع وصول الفرنسيين، أو بالأحرى، بمجرد أخذهم لقرار مباشرة مشروع الاستدمار والاستيطان في أربعينيات القرن التاسع عشر، كدُّوا كما رأينا في جعل الجزائر مقاطعة فرنسية جسدا وروحا. وكان القضاءُ على الإسلام، والفرنسةُ، مشروعيْن طويليْن وعسيريْن، عليهما أنْ يعثرا على مساعِدين فعَّالين، خارج الشرعية التاريخية والثقافية والإنسانية والعرقية التي حاولت فرنسا تطويرها. ولكنْ، أيُّ شيءٍ أحسن من «أدواتٍ» ثقافية فنية للدفاع عن قيمة الحضارة الغربية وإنجازها، وبذر رموزٍ للفرنسة والتغريب في تراب المقاطعة الجديدة وأذهان سكانها؟ كان لهذه العلامات وظيفة سياسية وإيديولوجية أساسية. فقد كان عليها إتمام الإنجاز الإداري والقانوني المباشَر لجعل الأرض الجزائرية قطعةً جديدةً من فرنسا، ببرهنة أنَّ

الجزائر أصبحتْ منذئذ فرنسيةً ثقافيا، وأنَّ عامل الوَحدة الذي كانت تصنعه الثقافة العربية-الإسلامية سابقا، قد فقد علة وجوده.

أ. الهندسة المعمارية والتخطيط العمراني.

1. التخطيط العمراني.

توضِّح دراسةُ المهندس المعماري **شاسيريان** Chasserianلمشاريع التنظيم العمراني بمدينة الجزائر العاصمة، الطريقةَ التي يَتْبع من خلالها التخطيط العمراني تغيرات المشروع السياسي للاستدمار"[115]. وهكذا، تجاوزت الأولويات، في هذا المجال، سريعا، المستوى اللازم (بُنى تحتية للتموين والتجهيز، وتعزيزات) لاكتساب بعد سياسي (إعادة إنتاج النمط الأوروبي في الحياة، وتنصيب الرموز). ومن هنا، تحديدا، جاء بناءُ مسرحٍ أُنجِز سنة 1853، كأمرٍ له الأولوية فعلا على بناء فندق للمدينة أو قصر للثقافة (سيُبْنى هذا الأخير، بين سنَتَيْ 1875 و1885).

في أواخر الخمسينيات من القرن التاسع عشر، سيتوافق على الأصح، برنامجٌ

[115] Gérard Monnier, "Architecture et urbanisme en Algérie sous le Second Empire: le cas de l'architecte Charles Frédéric Chasseriau (1802-1896)", lieu, éditeur et date inconnus, CAOM, p.299.

للمدينــــة الجديـــدة أنشــــأه **شاســـــريان** Chasserian، وهــذا حســب **ج. مــونيي** G.Monnier، مـع الأفكـار الجديـدة عـن فرنســة الأرض (التسـطير مِـنَ الكاتــب) [...]. وهكـذا، عبـر مشـاريع مـن اقتـراح **شاســريان** ســنة 1858 انبثــق طابعــان للهندسـة المعماريـة العموميـة بـالجزائر فـي حكــم الجمهوريـــة الثانيـــة: أولا تكييفهـــا المـــدروس مـــع الاســـتلزامات الوظيفيـــة والثقافية لسياسة جديدة للاستدمار عليها أنْ تشـــدِّد علـــى حضـــورٍ فرنســـيٍّ تجـــاريٍّ وصــناعيٍّ خصوصـــا، أيْ عمرانـــي، كمـــا سيُعَرِّفُها **نـابليون الثالـث** فـي سنة 1865، غـداة سـفره الثـاني إلـى الجزائـر[116]. وفـي الأخيـر، اسـتعدادُ مهنـدسٍ معمـاري لتأويـل برنـامج طمـوح للتخطـيط العمرانـي (لـيس

[116] Cf. *La lettre sur la politique de la France en Algérie*, Paris, 1865. Cité dans *ibid.*

خاصا به شخصيا) باتجاه وظيفيةٍ fonctionnalisme منهجيةٍ [...] طرحَت الآفاقُ المدهشة للاستدمار بالجزائر حوالي سنة 1860، مشكلةَ المدينة الجديدة، وبمفردات تنبثق فيها الكفاءةُ الوظيفية للفضاءات والأثرُ الاجتماعي للتنظيم، رفقة بعدٍ جديد[117].

2. الهندسة المعمارية

لم تُحدِّد السياسات الاستدمارية التهيئة العمرانية، وإنما أيضا الأشكالَ المعمارية التي كانت تكتسب في السياق السياسي للاستدمار قيمةً رمزية مهمة جدا. بترجمة جائزة روما في الهندسة المعمارية عن «قصر مخصص لحكام الجزائر» (1862)، لمنحى فرضته الفَرْنسة دائما، فقد مُنِحت إلى مشروع كلاسيكي لـ**شابرول** Chabrol على حساب مشاريع المرشَّحين الآخرين، التي كانت تبدو متأثِّرة بالشرق

[117] *Ibid.*, p.299.

orientalisants فوق اللزوم، وهذا بيانٌ لإرادةٍ في عدم الابتعاد عن النموذج التقليدي. خلال الفترة الممتدة من سنة 1840 إلى نهاية القرن التاسع عشر، كان المهندسون المعماريون منخرطين أساسا ومشجَّعين، لنفث شخصيةٍ فرنسيةٍ تحديدا في البنايات العمومية التي كانت تتكاثر بالجزائر. كان يبدو ضروريًّا، من ناحية أخرى، بناءُ نظامٍ مرجعيٍّ مفهومٍ لأجل زيادة تأثيره وفُرَصِه في التجذر:"تَعَلَّقتْ الإدارةُ بإدامة لغةٍ معمارية مفهومة فيما وراء البحر الأبيض المتوسِّط، مرجعيتُها الصروح العمومية الفرنسية. [...] على كل بناية عمومية أنْ تدلَّ بشكل واضح على ما تؤويه من وظيفةٍ مؤسَّسية"[118].

نلاحظ بالجزائر، وأكثرَ من أيِّ مكان آخر، الأهميةَ السياسية والإيديولوجية الممنوحة للبنايات العمومية. ومن خلالها، كانت صور فرنسا وثقافتِها

[118] Stéphanie Burth-Levetto, "Le Service des bâtiments civils en Algérie (1843-1872) Entre discours et réalité", *Revue du monde musulman et de la Méditerranée*, n°73-74, 1994, Paris, Edisud, p.149.

ونظامِها في الحكم، وبالتالي، شرعيتِها ومصداقيتِها وقُوَّتِها، على المحك. كان لقصر العدالة، ضمن هذا المنظور، أهميةٌ أساسية، من حيث كونُه "التمثيل المادي والرمزي للعدالة"[119]. هذه العدالة الفرنسية (ذات التقاليد الرومانية) التي عليها أنْ تفرض نفسها على الأرض الإسلامية، مع الإيحاء بالخوف منها والاحترام لها وبطابعَها الديمقراطي كذلك. مِنْ خلال هذه الوضعية والهندسة المعمارية التي تُمَثِّلُها، كان على العدالة أنْ تُعيدَ هذه الصورة المعقدة، وتُقْنِعَ الأهْلي أنَّها مشيَّدة لأجله أيضا. ظلَّ قصر العدالة، كما هو الحال بالحاضرة الفرنسية، وفيًّا للنمط الكلاسيكي الجديد المتشدد والنبيل. وبالإمكان مضاعفة الأمثلة، وقد تميزت هذه الفترة عموما بتمسكٍ كلِّي بتقاليد الحاضرة الفرنسية، باستثناء بضع محاولات دقيقة.

[119] Sylviane Leprun, "Droit romain en terre musulmane, un siècle de présence française en Algérie (1836-1935)", *Monuments historiques,* n°200, janvier-février 1996, p.47.

3. التماثيل.

ثمة عنصر ثقافي جوهري في المشهد العمراني، لم تتخلف فرنسا عن استعماله لأغراض سياسية، هو: التماثيل. "لقد حرَّكت الدلالة الرمزية، المشحونة عن قصد في هذه القطع الحجرية الضخمة، مشاعرَ الجزائريين في العمق. و**فانون** Fanonالذي فهمها، كَتَب عن الحالة الاستدمارية قائلا :«إنها عالم من التماثيل»"[120]. كانت هذه التماثيل ناطقة دائمة بلسان النصر الفرنسي، تمجِّد إنجازاته عبر إجلالات مرئية لجنرالاته وصانعيه. نُصِّبت في أماكن مختارة لاستيراتيجيتها، وكان لها أثر قوي جدا.

4. أسماء الشوارع.

كان يوجد في النهاية، شَكْلٌ من الدعاية الثقافية العمرانية يَرْجع إليه عدد قليل من المؤلفين، ولكنَّ **دافيد بروشاسكا** David Prochaskaيوضِّحه بمهارة

[120] Frantz Fanon, *The Wretched of the Earth, New York*, 1968, pp.51-52. Cité par David Prochaska, "History as Literature…,p.677."

شديدة، ويتعلق الأمر بتغيير أسماء شوارع المدن والقرى الجزائرية المستدمَرة[121]. بإجرائه دراسة معمَّقة في أسماء شوارع بونة*، تَوَصَّل هذا الأخير إلى إثبات الخلفية الفكرية، الإيديولوجية والسياسية، التي حددت اختيارها. إنها كالتماثيل، تُشَكِّل إبرازا لفرنسا وإنجازها*.

كانت الأولوية بالنسبة للسلطات العمومية إذنْ، هي تعزيز الشعور بالانتماء الفرنسي للمدينة والمستدمَرة، سِيَّما بإعادة تثمين ماضيها اللاَّتيني، وتوضيح مجد الأمة، واستثارة احترام فرنسا والخوف منها. ضمن هذا المنظور، نَعْثر غالبا على أسماء كبيرة من تاريخ فرنسا المعاصرة (شخصيات أو معارك). كان تغيير أسماء المدن يعكس أيضا الرجوع الثقافي إلى الانتماء المسيحي، وإلى الانتماء اللاتيني لأفريقيا

---

[121] David Prochaska, "Reconstructing «l'Algérie française»", dans Vatin et *al.*, *Connaissances…*, pp.65-78.

* عنَّابة حاليا.

* خلَّدت فرنسا الكولونيالية أسماء السفاحين من قادة عسكريين ودعاة الإبادة من مروِّجي إيديولوجية طبق الأصل من وليدتها النازية، وأطلقتها بلا استحياء وفي اعتزاز بالإثم على شوارع ومدن جزائرية وفي أرض يرقد على أديمها ضحايا المذابح الجماعية والمحارق، بلا حساب ولاعقاب. الاستعمار بين الحقيقة التاريخية والجدل السياسي. أعمال ملتقى وزارة المجاهدين 2006. محاضرة د.محمد العربي ولد خليفة. ص159.

في صنف كبير منه: "أسماء مستخلَصة من تاريخ أفريقيا، أي من الفرنسيين أو مَن سبقهم من أباطرة أفريقيا الرومان (ساحة **تيرنس** Terence، طريق **سيبيان** Scipionالمسدود، شارع **بليسار** Bellissaire، شارع القديس **لوي** Saint-louis، شارع **روفيقو** Rovigo...)"[122]. كان هناك كذلك شارع للنوميديين يُذَكِّرُ القبائل بتاريخهم قبل مجيء العرب. ولكنَّ الصنف الأهم وبفارق كبير، كان بلا منازع، ذاك المتعلق باحتلال فرنسا للجزائر، وببونة على وجه الخصوص. داخل هذ الصنف، كان الغزو والتهدئة يحتلان موقعا ممتازا. كانت العديد من الأحياء تُذَكِّرُ بأسماء البوارج الفرنسية التي حملت الوحدات العسكرية (شارع **بيارنيز** Béarnaise، شارع **سوفران** Suffren، شارع **بيدوان** Bédouin، شارع **المفاجأة** La surprise، شارع **بيلون** Bellone...) أو بأسماء العسكريين (شارع **دامريمون**

---

[122] *Ibid*, p.66.

Damrémont، شارع **هودر** Huder، شارع **أرماندي** Armandy، شارع **ليون** Lion، شارع **بريار** Préart، شارع **شاري** Charry، شارع **أوزير** Uzer، شارع **راندون** Randon، شارع **بيجو** Bugeaud، شارع **مسمير** Messmer...) أو بأسماء مدنيين (شارع **لاكومب** Lacombe، شارع **مايو** Maillot...)، أبطال تلك الواقعة.

لا نعلم بالتحديد الظروفَ التي كان يتم فيها اختيار الأسماء [...]. ومع ذكر هذا، تعكس أسماء أحياء **بونة** رؤيةً مغرِضة مشوَّهة، وقراءةً غير تمثيلية لتاريخ المدينة. فالمسلمون غائبون واقعيا،[...] كلُّ هذه المرايا تُوَضِّح تَوَجُّه السياسة الفرنسية بالجزائر، المتمثلة في بعث الرومان باعتبارهم أسلاف الفرنسيين بأفريقيا، وتأكيد الماضي المسيحي الميِّت حاليا

والتفرقة بين العرب والبربر بهدف الهيمنة على كلِّ طرف بشكل أكثر فعالية[123].

واستُبْعِدت منهجيا كلُّ الأسماء المقترَحة التي ترجع إلى الماضي العربي-الإسلامي والاحتلالات الإسبانية أو الإيطالية، وكان شارعان فقط يحملان اسميْن يرجعان صراحة إلى الإسلام وثقافته (شارع **الهلال** وشارع **القاضي**). "تشير هذه الأسماء الثانوية المقترحة (وغير المتبناة أبدا)، بقدرٍ ما، إلى أيِّ حدٍّ «نَسِيَ» الفرنسيُّون بسهولة الماضي العربي، التركي والأوروبي غير الفرنسي لبونة، وإلى أيِّ حدٍّ عانوا من حالة نسيان تاريخي، حينما بنوا المدينة وسمَّوا الأحياء على وجه الخصوص.كانت الرسالة **الكولونيالية** المترسِّخة في التركيب نفسه للبنية التحتية للاستدمار الفرنسي [...] غيرَ ملتبسةٍ"[124]. كان التخطيط العمراني والهندسة المعمارية وكل العناصر المُشَكِّلة للمشهد العمراني أدواتٍ مساعدةٍ ثمينةٍ، وكان أثرها بلا

[123] *Ibid*, p.68.
[124] *Ibid*, pp.69-70.

شك مُهِمًّا. بل إننا نعلم أنَّ الجزائريين اجتهدوا منذ استرجاع السيادة في إعادة تسمية الأحياء والمدن الجزائرية، وهدم التماثيل، ولم يبق اليوم تقريبا أيٌّ من رموز المجد* الفرنسي هذه.

* أنظر هامشنا ص 17.

ب. الفنون الجميلة والرسم.

ساهمت الفنون الجميلة حتما، ودون قصد، في نشر إدراكٍ لفرنسا مُعَيَّنة، بالإضافة إلى أنَّها كانت في هذه الفترة الناقلَ الوحيدَ للصورة. فقد أذاعتْ بفرنسا وبالمستدمَرة (تزيين البنايات العمومية، معارض، ومتاحف) رؤيةً لفرنسا وتاريخها، وعلاقتها بالمستدمَرة، وهيبتِها. من وجهة النظر هذه، كانتْ لها وظيفةٌ سياسية ليس بمقدور السلطات تركها للصدفة.

اعتبر الكثيرون، ولا يزالون، الاستشراقَ** تيارا لفكرة رومانسية، خاليا من الاعتبارات السياسية، تجلَّى في الفنون الجميلة والأدب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر بالتوافق مع نمط منتشر، هو نمط الغرائبية أو العجائبية الشرقية. ولكنَّ هذا لا يلغي واقع

** إنَّ ظاهرة الاستشراق ليست ظاهرة موازية للنسق المعرفي الغربي ولا منقطعة عنه أو عرضية فيه، إنما على العكس استمدت جذورها من هذا النسق بكل مكوناته المعرفية والمذهبية وتضافرت خيوطها في كنفه (مقدمات الاستتباع، الشرق موجود بغيره لا بذاته. غريغوار مرشو. ص16). وارتباط الاستشراق بالتبشير والاستعمار والاستتباع الثقافي، حقيقة لا ريب فيها (الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. محمود حمدي زقزوق. دار المعارف. 1997.) وهناك من يذهب إلى القول: إن الاستشراق هو الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بين العالم الإسلامي والعالم الغربي. والاستشراق كما يراه إدوارد سعيد ليس إلا رؤية سياسية للواقع.. رؤية الفرق بين المألوف (أوروبا وأمريكا، نحن) وبين الغريب (الشرق، هم). وهذا التحديد للآخر (الشرق) والتمييز له، ليس مسألة نفسية لإبداء الفروق الوصفية وحسب في بلدان مثل بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة، بل هو مسألة سياسية تدخل في نطاق التعليم والتربية والتبليغ الإعلامي وضمن نطاق توجيه السياسة الخارجية لهذه البلدان.

أن الأعمال المنتَجة بهذه المناسبة كانت تُستعمَل غالبا أدواتٍ ملائمةً وفعَّالةً للسياسة الثقافية. في تلك الأوقات، حيث كانت الجزائر مقاطعة بعيدة، وقليلون هم المستشرقون الذين يعرفون البلد حقا، ولهذا كانت أعمالهم إذن، في الغالب، التمثيلَ المُقَوْلب لشرق استيهامي كما كان يفهمه في تلك الفترة علم «**كولونيالي**» جدا، وكما كان يصوِّره الكُتَّاب مِثاليا، ويحلم به الفرنسيون. ولكنَّ هذه الصورة الفنية كانت على وجه الخصوص متوافقة مع فلسفة تلك الفترة، فالرسم ممجِّد للأمة والإمبريالية. وبمساهمته في نشر فكرة الإمبراطورية، وفي الشموخ الوطني الفرنسي، كان أداةً مهمة بيد السلطات العمومية، يسيرٌ استعمالُها عسيرٌ انتقادُها. وكانت النتائج غير المباشِرة للرسم الاستشراقي مهمَّة كذلك. وهكذا، نعلم تحديدا، أنَّ هذا الأخير، رغم استلهامه من تمثيلاتٍ représentations متعددة، كان المُلهِمَ لفنون أخرى كذلك، وأنَّ كلَّ تمثيل للمستدمَرة كان إذنْ نتيجةَ

تـأثيرات متنوعـة ومتبادَلـة: "كانـت موضـوعات الرسـم الاستشـراقي تـؤثر علـى الأخبـار والروايـات وقصـص الـــرحلات والأشـــعار والمؤلَّفـــات العلميـــة الشـــعبية، الجديدة، وتتأثر بها"[125].

كان للصـورة التـي ينقلهـا الفنـان، بـلا شـك، نتـائجُ ممتدة فعلا إلـى مـا وراء الجماليـة البسيطة، لهذا كانـت الدولـة توليهـا أهميـة كبيـرة. ولأجل توجيـه هذا الأخيـر في الاتجاه «الصحيح»، كانت الدولة تملك رقابـة زائدة علـــى مؤسســـة الفنـــون الجميلـــة (المدرســـة العموميـــة) وعلى أساتذتها، الذين كانوا يشاركون علـى نحـو واسـع فـي «مسـار التنشـئة الاجتماعيـة» للرسَّـام الشـاب. وإذا كان الفنان، بالإضافة إلى هذا، يريد اكتساب الشـهرة أو تلقـي طلبيـات عامـة مربحـة، لـيس أمامـه غيـر الانحنـاء لهذا التوجه الرسـمي، السياسـيِّ أكثـر مـن كونِـه جماليـا. "كان الفنـانون يُنتجـون جزئيـا، لصـالح حكومـةٍ تكـافئهم بإرسـالهم فـي بعثـات رسـمية. يحـدثنا **ألكسـندر دومـا،**

[125] Vatin et *al., Connaissances…*, p.51.

الذي دعته الحكومة الفرنسية سنة 1846 إلى أفريقيا الشمالية، لتحسين هجرة المستدمِرين colons نحو الجزائر، عن نكت عديدة حول فنانين اثنين كانا برفقته خلال رحلته"[126]. أوصت الحكومة الفرنسية بالعديد من الأعمال الاستشراقية*، واقتنت البعض الآخر منها، لعرضها في القصور والمتاحف والبنايات العمومية. "تأكَّد حضور الفن على الساحة السياسية، وهو الموظَّف فضلا عن ذلك، في مهمة بيداغوجية: هي مهمة العمل على تقدم المجتمع، والوعي بهويته

[126] Laurence O. Michalak, "Popular French perspectives on the Maghreb: Orientalist painting of the late 19th and early 20th centuries", dans *ibid.*, p.49.

* لقد اعتمد الغرب الحضاري على علوم الاستشراق لتبرير احتلال الآخر المختلف، بل الغارق في الاختلاف الدوني، هذا العمل الاستشراقي المنحاز والمتمركز حول ذاته والذي (نمَّط) الشرق، ثم اعتمد على هذا التنميط كحقيقة ثابتة، وربما تكمن المشكلة الأكبر التي واجهها المفكرون وعلى رأسهم "إدوارد سعيد" في المجتمع الغربي هي التمسك بهذه الصورة المختلَقة، ورفض التخلي عنها وتغييرها. إن الناظر بعين الحياد يعرف أن المؤسسات الاستشراقية سارت تماماً جنباً إلى جنب مع زمن التوسع الاستعماري الأوروبي منذ بداية القرن السابع عشر حيث سيطرت أوروبا على 80% من مساحة العالم، وليس من قبيل المصادفة أن يكون الحيز الذي تتحدث عنه علوم الاستشراق في نهاية الحرب العالمية الأولى، هو نفس الحيز الذي تمتد به حدود الإمبراطوريات الفرنسية والبريطانية.127 ويتحدث إدوارد سعيد عن الاستشراق، باعتباره اختراعا غربيا، غايته أن يمثل الشرق ويعبِّر عنه بما يخدم المصالح الاستعمارية الغربية، وأن جميع المعارف الاستشراقية اعتمدت في الأساس على (الإنشاء) والتخيل دون تصوير الواقع الحقيقي، فالشرق الذي صوَّره المستشرقون ليس واقعياً، إنما جاء كما أريد له أن يكون، لذلك أحدث تطبيق هذا التصور المتخيل أزمة أدت إلى الشعور بالتفوق الغربي. ويؤكد أن الاستشراق ليس إلا إسقاطا غربيا على الشرق وأنه على علاقة مشبوهة مع الأنظمة الكولونيالية والنظريات العرقية العنصرية، التي قسَّمت العالم إلى شرق وغرب افتراضيين. ويرى أن للاستشراق ثلاثة ظواهر: الأولى: هي إطلاق التسميات الجاهزة والتي ما زالت تستعمل حتى الآن في التحدث عن الشرق، وثانيها: هي طريقة التفكير المبنية على التقسيم الأنطولوجي، وثالثها: استخدام التدريس عن الشرق للهيمنة عليه.(الاستشراق: المعرفة - السلطة – الانشاء. إدوارد سعيد. تحقيق كمال أبو ديب. 1993. بيروت. وكذلك : الثقافة والإمبريالية. إدوارد سعيد. ترجمة كمال أبو ديب. بيروت. دار الآداب .1998.)

الماضية والمستقبلية. كانت هذه الوظيفة البيداغوجية متميزة على نحو غريب في الرسم على النصب التذكارية. وهنا كان يتجلى الطلب الاجتماعي الذي يُسنِدُها ، وليس العلاقة بين الفن والطلبية العمومية فحسب."[127] كانت هذه الوصاية الرسمية تفرض خطَّ سيرٍ معيَّن: يصف **دولاكروا** في يومياته حوارا مُرهِقا، أجراه مع ناظر الفنون الجميلة الذي أخبره أنَّه «إذا كان يرغب في أفضال الحكومة، فعليه أن يعدِّلَ أسلوبَه»[128]. ومِنْ بين هذه الأفضال، نَذْكُر تحديدا الترخيص بالعرض في الصالون، هذه «الواجهة التي تراقبها الدولة» وتشكِّل مكافأة قصوى، لترسيم عملِه لهذه المناسبة، بميدالية الرتبة الأولى. بل كان، بإمكان الرسَّامين المرموقين جدا أن يأملوا، في بعض الأحيان، كما كان الحال بالنسبة لـِ **فرومونتان** Fromentin سنة 1859، في تلقي صليب جوقة

---

[127] François Pouillon, "La peinture monumentale en Algérie: un art pédagogique", *Cahiers d'étude africaines*, v.36, n°1.2., p.184.

[128] Jack J. Spector, Delacroix : *The death of Sardanapalus*, New York, The Viking Press, 1974, p.112. Cité dans Michalak, *loc. Cit*., p.49.

الشرف Légion d'honneur واستلام دعوة لِلِقاء الإمبراطور (تلقى **فرومونتان** دعوة للالتحاق بكومبيانيو Compiégne لرؤية **نابليون الثالث** شخصيا).

وهكذا، كان الفن التصويري، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مثل تعبيرات فنية عديدة أخرى، متأثِّرا باعتبارات سياسية، وبالتالي مستقِّلا عن الإرادة الوحيدة للفنان. ضِفْ إلى هذا، كما لاحظ ذلك البعض بجلاء: "لو كان الفن بالأساس التعبير عن رؤية فردية فقط، ما كان يمكن وجود تاريخ للفن*"[129]. في 1837 شرع **لوي فليب** في تحويل جناح من قصر فرساي إلى متحف مخصص لتمجيد الانتصارات الاستدمارية للنظام. لم تر «قاعاتُ أفريقيا» النور أبدا ولكنْ "ضمن هذا الإطار انخرطت الدولة في برنامج

[129] E.H. Gombrich, *Art and illusion – A study in the psycology of pictural representation*, Princeton, Princeton University Press, 1960, p.4. Cité dans *ibid.,* p.49.

مكلِّف، يخص طلبيات للأعمال الفنية المخلِّدة للحدث بكفاءة"[130]. كُلِّف الرسامون الرسميون بتخليد الأحداث العسكرية الكبرى لغزو الجزائر. وهكذا شاركوا في فلكلرة المجتمع الأهلي وتمجيد الهيبة العسكرية الفرنسية. **أوراس فرني** Horace Vernet بونابرتيٌّ منحازٌ إلى قضية النظام الجديد، جُنِّدَ سنة 1833 مؤرِّخا رسميا للحملة على الجزائر. ويبقى بلوحاته الزيتية على القماش المتجاوِزة للحدود (احتلال **زمالة عبد القادر** طولها 21 مترا) المثال الأشهر، بيد أنَّ آخرين اشتهروا بهذه المهمة. في سنة 1853، أَعلَم وزيرُ الحرب الحاكمَ العام بأن "**أوجين فرومونتان** (رسام) قد كلَّفته إدارة الفنون الجميلة بإنجاز لوحة لحساب الحكومة، وعليه أنْ يستخلص موضوعَها من العمليات الحربية، أو مِنْ المؤلَّفات المنشورة للجنرال **دوما** عن جنوب ما نملكه بأفريقيا[131]. أَنْجَز **شاسريو**

---

[130] Pouillon, "La peinture monumentale…", p.184.

[131] CAOM, 53S/1, ministère de la Guerre, Minute de la lettre écrite par le ministre à M. Le gouverneur général de l’Algérie, le 26 mars 1853.

كـذلك، لحسـاب السـلطات العموميـة بضـعةَ أعمـالٍ " إيديولوجيةٍ على نحو سافر، تمجِّد فضـائل الـوطن الأم، والكولونيالية والتجـارة: كلوحـة *"العـرب وهُمْ يجمعـون موتـاهم"* (1856) التـي تُبَـيِّن نتـائجَ معركـة هـزَم فيهـا الخيالةُ spahis العربَ، وظلَّ هذا الرسم نموذجيا دائما في المعرض الكولونيالي لمرسيليا سنة 1906، نصـف قـرن بعـد ذلـك؛ أو لوحــة *"الغـاليون Gaulois وهـم يـدافعون عـن أنفسـهم"* وهـي مركزيـة عرقيـة خالصـة، «نشيد رائع لبطولة الأسلاف»"[132].

[132] Jean Laran, *L'art de notre temps : Chassériau*, Paris, Jean Guilleguin et Cie, 1906, p.12. Cité dans Michalak, *loc. cit.,* p.55.

ج. الأدب

ومقابل هذه الحركة، سنرى كيف أنَّ الدولة تعلَّقت بالاستفادة من الاستشراق الأدبي، وهو نظيرُ الحركة نفسها في المجال التصويري والتي تحمل الاسم نفسه. كان الاستشراق، من نواحٍ عديدة، بحثا جماليا ورومانسيا، شخصيا أكثر من كونه سياسيا. كان الشرق يدفع للحُلُم، وكثير من الكُتَّاب الذين واتتهم فرصة اكتشاف الجزائر حاولوا قبل كل شيء إعادة تسجيل جمال مشاهدها وغرائبية نسائها. كانت مُلْهِمة **فرومونتان، دوي، دوما الأب، فلوبير، موباسون، لي ڤونكور، كوكطو، مونترلون،** و**أندري جيد**. "مع أنَّ الروابط التي تجمع هذا الجنس الأدبي بسياسة الغزو ذاتُ بال، إذ يميل هذا الأخير عموما إلى تبرير الوجود الإمبراطوري الكولونيالي: وقليلة هي الأعمال الغرائبية التي لا تقدِّم صورا مثالية تقريبا للمستدمَرات"[133]. كانت هذه الامتثالية

[133] Calmes, *op. cit.*, p.60.

conformisme السياسية في غالب الأوقات لا إرادية، وتَحَوَّل الكُتَّاب المتشَبِّعون بتياراتٍ الفكر المهيمِن، تلقائيا، إلى أبطال. ليس كل سلاح سياسي مَصُوغًا انطلاقا من نوايا سياسية، ولكنَّ المسيِّرين عرفوا دائما كيف يستفيدون من الأسلحة الفعالة: "ورفضُ اختزالِ إنجازٍ في الأطروحة التي يحويها (أو سيحويها)، ليس هو بالرغم من ذلك إنكارٌ لكلِّ فعالية سياسية للأدب. في مجال السياسة، يُعَدُّ الأدب سلاحا رهيبا، وأولئك الذين كنا نسميهم فيما مضى طغاة يعرفون ذلك جيدا، كما يعرفه مجدَّدا أخلافهم المعاصرون*. [...] يمكن للأدب أن يُستعمَل في معركة سياسية"[134]. ويجب أنْ نلاحظ رغم ذلك التأثير غير الهام للمستشرقين في المستدمَرة نفسها، حيث لم يكن المستدمِرون راضين أبدا عن الصورة الوحشية

---

* والاستدمار الفرنسي هو خير خلف لأشر سلف.

[134] Denise Brahimi-Chapuis et René Challande, *Littérature et politique*, Paris, Delagrave, coll. G. Belloc, 1976, p.3.

والدموية التي تُلصَقُ بهم عموما، ولم يكن المستدمَرون متلهفين أبدا لهذا الأدب المُقَوْلَب.

من ناحية أخرى، سعت السلطات بالجزائر إلى حركة مباشِرة، باتجاه طلبيات أدبية لهدف سياسيٍّ وضوحًا، ومخصَّصٍ لنفثِ الحماس القتالي والوطني[135]. انخرط بضعة مثقفين وعسكريين في إنتاجٍ تاريخيٍّ رسمي مُهِمٍّ. بعد الاستكشاف العلمي، تَرَك التاريخُ الذي صنعه العسكريون، المكانَ لتاريخٍ عن العسكريين. "وبالتوازي مع المطبعة التي حطَّت الرِّحال مع الجيش سنة 1830 وأصبحت تُسمى المطبعة الرسمية، لم تتأخر التجهيزات الخاصة عن التحوُّل إلى النشر"[136] (مكاتب، مطابع). كان **أ.لومرسيي** A.Lemercier، مثلا، متخصِّصا في المؤلفات العسكرية. وباستناد الأدب إلى بُنى صلبة، تطوَّر على نحو سريع.

---

[135] Meynier et *al., op. cit.,* p.331.
[136] Goinard, *op. cit.,* p.286.

أصبح الغزوُ القطاعَ المتَّسم بالغلو والتضخم في التاريخ الاستدماري بمجموعه. وتضاعفت كذلك، لفترة طويلة، الصورُ الفنية لوجوه الأبطال*، مرفَقةً بمذكراتٍ أو مراسلاتٍ من أكثرهم ألقابا، **بيجو** Bugeaud، **كلوزيل** Clauzel، **شانڤارنيي** Changarnier، **ماك-ماهون** Mac-Mahon، والبعض الآخر من الأقل شهرة. وابتداء من تلك اللحظة سيتغلب وصفُ البطولات، ونشرُ مذكرات ممهورة بعظائم ليست أقل شهرة، وخدمات مرتبطة بحرفة السلاح. ستخدم قضية اختصاص بدرجة أقل من خدمتها لقضية الإيديولوجية الكولونيالية[137].

* أنظر هامشنا صفحة 56.

[137] Vatin, *L'Algérie politique*…, p.22.

كانت فرنسا ترى هيبتها في ازدياد بوساطة البطولات المجيدة، وذلك عبر هيمنةٍ واسعةٍ للتاريخ العسكري، وكانت حكاياتُ الغزو، تُمَكِّن من بيانِ قيمة رجالها الشجعان وأمَّتِهم المجيدة. مِنَ المؤكَّد أنَّ السلطات العمومية لم تستطع الاستفادة من الإيجابيات السياسية، المرتبطة بهذه الصورة المثمِّنة المنقولة عبر الأدب. "أوَّلُ قصة صالحة هي *الحملة على الجزائر* لـ**ألفريد نتمون** Alfred Nettement، وهو الكتاب الذي ظهر سنة 1856، [...] مُكَرَّسًا بإخلاص للمَلَكية الشرعية، [...] يتبنى بلا تفحُّص الرواية الرسمية [...] بشكل يُبْرِز موقف الحكومة الفرنسية"[138]. ولكنَّ هذا «الإنتاج الصادر تحت الطلب»[139] المخصَّص للاحتفال بالنصر، سقط سريعا بسبب قيمته الأدبية الضعيفة وطابعه الملحمي فوق اللزوم.

---

[138] Esquer, *loc. cit.*, p.22.
[139] Meynier et *al., op. cit.,* pp.331-332.

د. المسرح

كان المسرحُ أوَّلَ فنٍّ شعبيٍّ تطوَّر بالجزائر، ، وهو القادمُ في حقائب العسكريين. "بوصول الفرنسيين، كانوا يحملون معهم تذوقهم للمسرح، الذي نتخيل سلطانه في فترة بلا سينما أو راديو أو تلفاز"[140]. ضِفْ إلى ذلك، أنَّ مراسلات عديدة للحكومة العامة للجزائر تعكس السخط الهائج في سنوات الأربعينيات، حيث لم يكن مَسْرَحَا الجزائر يسعان أماكنَ كافية لتلبية الطلبات[141]. وقد بُنِي في نهاية المطاف مسرحٌ كبيرٌ بالجزائر في سنة 1853. وكان أوَّلَ مَعْلم عمومي وأوَّلَ صرح تذكاري. كان للمسرح في تلك الفترة قيمةٌ رمزية مهمة، مادام حضوره نفسه، يكفي لتأكيد موقع الثقافة الغربية في المستدمَرة الجديدة. وكان له، فوق هذا، بسبب شعبيته، أهميةٌ يُعتدُّ بها، رغم أنه كان موجَّها في تلك الفترة، إلى تسلية الأوروبيين. دعَّمته السلطات العمومية باستمرار ولكنها

[140] Goinard, *op. cit.*, p.279.
[141] CAOM, 61S/1.

أبقت عينها يقظة على العُروض عبر مقص الرقابة[142] وعبر قوانين (نجد لها آثارا عديدة في الأرشيف الكولونيالي)، تَفْرِض على المديرين أنْ يُرْسِلوا «إلى السلطات الإدارية العليا جدولَ الفرقة المسرحية وفهرسَها [...]» مع بداية كل عام مسرحي[143]. كانت هناك، على نحو جليٍّ، رقابةٌ للدولة على هذه المؤسسة الثقافية الشعبية.

عقب أربعين سنة من الحضور بالجزائر، أنجزت فرنسا عملا مُعْتَبَرًا. غزتْ أرضا، لا يربطها بها شيءٌ سلفا، وفَرْنَسَتْها جزئيا. وبفضل وضع جهاز واسع، فكريٍّ وثقافيٍّ، استطاعت أنْ تساعِد حركة الجيش، وتُمَكِّن لغلبته على وجه الخصوص، بحيث لنْ تكون محلَّ رَفْضٍ أو ارتيابٍ، أو تهديدٍ بشيء من ذلك. وسيُثْبِت تنصيبُ النظام المدني، فعلا، أنَّ فرنسا بعد بضع عشرات من السنين، لم تكن بحاجة أبدا لاستعمال

142 CAOM, 3S/3, Lettre de la Sous-préfecture de Mostaganem au Préfet du Département d'Oran, 30/10/1869.

143 CAOM, 3S/3, Ministère de la Guerre. Arrêté du Maréchal E. Daumaz, Ministre Secrétaire d'État au développement de la guerre, Directeur des affaires de l'Algérie, 10 janvier 1853, Conditions d'exploitation.

قوة السلاح؛ كانت الجزائر تبدو محصَّلة بشكل نهائيٍّ. خلال كل هذه الفترة، شهدنا انتشارا مُهِمًّا للوسائل الثقافية التي مَوَّلتها واستَخْدمتها السلطات العمومية علنا، في سبيل القضية الاستدمارية، ولم تتردد في الاعتراف بأنَّ الثقافة كانت مفتاحا للهيمنة. ولم يترك العسكريون، الماسكون بإدارة السياسة أيَّ شيء للصدفة.كانت هناك فعلا سياسة ثقافية، هي جزء مكمِّل للسياسة الاستدمارية، المحدِّدة لها بالتضافر، في اتجاه المصلحة العليا، وبقاء الجزائر فرنسية وإدماجها الكليِّ في فرنسا.

الجزء الثاني

ذروة الاستدمار (1870-1939):

السياسة الثقافية في إطار سياسة التشارك

أكَّدت الجمهورية الثالثة رسميا، ودون لبس، إرادتها في استعادة مسلك الإدماج بشكل أكثر فعالية. وكان **أرتور جيرو** Arthur Girault، أحد المنظِّرين الرئيسيين للتشريع الاستدماري، والذي كان يؤمن إيمانا صادقا بفضائل الإدماج، يشرح في سنة 1894 إلى أيِّ مدى تظل روما التي نجحت في نشر لغتها ودينها وعاداتها ببلاد الغال وإسبانيا وأفريقيا، مثالا سياسيا لفرنسا الإمبراطورية:«نحن الفرنسيين، لاتينيون، شكَّل تأثير روما عقولنا طيلة قرون، ولا يمكننا الإفلات من هذا الاستحواذ، وسيكون انحرافُنا عن الدرب الذي خطته لنا، تكليفًا لأنفسنا بما لا تطيق. نحن لا نجيد، وبالتالي لا نمارس، إلاَّ الإدماج»[144].

---

[144] A. Girault, *Principes de colonisation et de législation coloniale*, t.1,1894, P.34. Cité dans Ageron, *France coloniale*…, p.196.

وكان الشباب الجزائريون، نتاجُ الثقافة الفرنسية، قد بدأوا يحلمون بهذا الإدماج مع فرنسا. كانوا مُعْجَبين بالثقافة الغربية وحضارتها، وسَيُشَكِّلون بهذا حلفاء ثمينين للسياسة الثقافة الفرنسية. هم قليلو العدد، ولكنَّهم نشطون، سِيَّما بواسطة الصحافة والدعاية السياسية، يجلبون تعاطف الرأي العام والطبقة السياسية الفرنسية.

ولكنْ، بينما كان الأهالي قد بدأوا في تقبُّل مبدأ الإدماج*، مع نتائجه الثقافية، أيْ مع فرنسة تدريجية (لغة، ونمط حياة....)، كان بعض رجال السياسة بالحاضرة الفرنسية على خلاف ذلك، يحذِّرون الطبقة السياسية من مخاطر هذه السياسة المضلِّلة في نظرهم، بل التي تمثل حسبهم خطرا على الديمومة الفرنسية بالجزائر، وكانوا يطالبون بسياسة جديدة مع الأهالي، أكثر مرونة على المستوى الثقافي تمكِّن من تشكيل طبقة من الوسطاء intermédiaires، مفرنَسة قليلا،

* راجع الهامش ص34. وأضيف: لم يكن الشعب متقبلا للاندماج والعناصر المطالبة به هي ما اصطلح على تسميته آنذاك بالنخبة، ويسميها الوطنيون بالعناصر الاندماجية.

محاوِرة ومتميِّزة، قائمة بين الثقافتين. ابتداء من سنة 1901 سيُتْرَكُ الإدماجُ، الذي لم يعد يصنع منافسين، مكانَه تدريجيا لسياسية جديدة، متوافقة أكثر مع أفكار العصر ومتطلبات السياسة. في 14 جوان 1901، كان رئيس المجلس آنذاك، **والديك روسو**، يطلق رسميا فكرة «سياسة أهلية» في خطاب شهير بالغرفة: «بالنسبة للأهالي، كما كان يؤكد، دون أنْ ننخدع بأمل جلبهم نحو تحضُّر مستحيل، علينا أنْ نثابر في جعلهم يدخلون طريق التقدم، باتجاه صفاتهم ومنطقهم، وعاداتهم وتقاليدهم، ونحملَهم -إنه التعريف الأكثر سحرا الذي يمكنني العثور عليه- على تطوير أنفسهم ليس داخل حضارتنا وإنما حضارتِهم»[145]. وهكذا انفتحت الطريق لهذه «السياسة الأهلية» التي كان الكثيرون يطالبون بها، والمتمثلة في إرخاء القبضة الثقافية المرتبطة بسياسة الهيمنة مع ترك الاستمرارية للهوية التقليدية، أيْ الكد لتطوير كلِّ تجمُّع عرقيٍّ داخل

[145] Cité dans Ageron, *France coloniale*…, p.219.

وَسَطه الخاص بالإبقاء على خصوصياته، وعاداته الخاصة»[146] ("داخل ثقافة، هي في الواقع، مختزَلة في الرتبة الثانوية، كما أبقت المصالح الفرنسية قبضتها عليها"[147]). ولكنَّها كانت سياسة استدمارية أكثرُ لطافة، تزعم إشراك السكان المحليين في إنجاز مشترك للتقدم، حيث على الجميع، أوروبيين ومسلمين، أنْ يكونوا مستفيدين. كان الهدف إذنْ، هو جلب السكان المحليين نحو القوة الاستدمارية بملء رغبتهم، مع البرهنة لهم أنَّ في ذلك مصلحتهم. كان **شيلاي-برت** Chailley-Bert يزعم بهذا الشأن، وجوب توفر «علم للسياسة الأهلية»، سياسة مدروسة بدقة، تُحَفِّزُها أسبابٌ محدَّدةٌ جدا، وتطبَّق بذكاء. كان هذا التوجه الجديد يتطلب إذن، سياسةً ثقافية دقيقة، فقد تُرِكت الحالة الخاصة للجزائر جانبا لفترة طويلة، لأن "السياسة الأهلية" تتطابق مع قاعدة الوصاية، ولا مفر

[146] Déclaration du gouverneur William Ponty, 1909, cité dans *ibid.,* p.221.
[147] Vatin, "Exotisme…", *loc. cit.,* p.170.

من الإعتاق على المدى البعيد[148]. ولكنَّ المبادئ الجديدة الضمنية للسياسة الباريسية، أثَّرت بالتأكيد على التوجه العام للسياسة الفرنسية بالجزائر، وهذا بالإضافة إلى أن التقديرات بالجزائر نفسها، كانت ترى أنَّ من الضروري العثور على بديل لسياسة الإدماج التي يجب «رفضها بسبب المصلحة العليا للدولة»[149] لتجنب تحوُّل السكان ذوي الأصل الأوروبي إلى أقلية غير ذات بال.

تحدَّدت النظرية، المضطرِبة قليلا، لـ «السياسة الأهلية» تدريجيا، واتضحت لتأخذ اسم «سياسة التشارك». وتعود نسبة المصطلح إلى السانت سيمونيين ونابليون الثالث. بالجزائر، في سنة 1902، كان **فكطور باريكون** Victor Barrucand قد زوَّد جريدته *"الأخبار"* بشعار «لا استغلال، لا إدماج، تَشارك». وتأكد الطعن الرسمي في صلاحية سياسة

---

[148] L'important était dans ces conditions de "laisser sur ses pupilles son empreinte culturelle". Charles-Robert Ageron, *Les Algériens Musulmans et la France* (1871-1919) – *tome second*, Paris, PUF, 1968, p.991.
[149] Brouillet, chef de Cabinet du gouverneur général Cambon, puis chef du service de l'Algérie au ministère de l'Intérieur, 1901.

الإدماج سنة 1905 بواسطة وزير المستدمرات colonies، **كليومنتيل** Clémentel، الذي قدَّر أنَّ من الضروري «استبدال سياسة التشارك **ب**سياسة الهيمنة»، وسيتواصل هذا التوجه الجديد للسياسة الاستدمارية إلى غاية نهاية الجمهورية الثالثة، رغم أنَّ الضرورات الملاصقة لنظام الاستدمار نفسه، ساهمت من حيث الممارسة، في إدامة مبادراتٍ من النمط الإدماجي. "وهذا **پنون** Penant على سبيل المثال عند إدانته للإدماج، يستدعي أمانيَه عن اليوم الذي يتمَكَّنُ فيه المستدمَرون-المنبعثون عبر مسيرة الزمن ومن خلال التعاطف الذي سيثيره لديهم موقفنا الجديد (التشارك)- من استقاء عاداتِنا عند الاحتكاك بحضارتنا"[150]. هو يوضح بهذا، الالتباسَ الجوهري الذي يشمل كل السياسة الاستدمارية، أيْ عدم التوافق بين الخطاب والواقع السياسي، بين الخطابة

[150] Cité dans Y. Paillard, "L’Association, une nouvelle politique coloniale. Discours et pratique (1905-1914)", dans *Histoires d’Outre-Mer, Mélanges*…, P.82.

الإيديولوجية والمصلحة الوطنية. وضمن هذا المنظور ستلعب السياسة الثقافية، أيْ سياسة الظاهر، دورا أساسيا أكثر فأكثر.

تُصَاغ السياسة الثقافية، التي أساسها المصلحة العليا للدولة، بالحاضرة الفرنسية، على مقاعد القاعات نصف الدائرية، والدواوين الوزارية. كان الحزب الكولونيالي، الحاضر في جميع أجهزة الدولة، أحدَ الروَّاد في مجال صياغةِ السياسة الثقافية والوعيِ بأهميتها، في مسار تأكيد الإمبريالية الفرنسية. وقد سمح له «امتداده السياسي» الواسع بتطبيق نظرياته على المستوى الحكومي. "كان حاضرا في المسار الثقافي داخل جهاز الدولة نفسه، الذي يملك دورا من الرتبة الأولى في هذا المجال"[151]، ولكنْ أيضا عبر الاستعمال المكثَّف للأجهزة الثقافية المدرسية، والإعلامية (صحافة، ثم إذاعة)، والفنية (نشر)، ولشبكةٍ منظَّمةٍ علميًّا، بحيث "يخلق التفاعل بين

[151] Marc Lagana, *Le Paris colonial français*, Québec, Presses de l'Université du Québec, coll. Éléments d'Histoire, 1990, p.141.

الحزب الكولونيالي والأجهزة الثقافية ديناميَّة تتجه نحو الشمولية أكثر فأكثر. وأصبح الصرح الإيديولوجي هائلا أكثر فأكثر"[152]. لم يكن مطروحا أنْ تفلت الجزائر من هذا النظام المذهل. بالإضافة إلى هذا، كان أعضاء كثيرون من الحزب الكولونيالي معنيين بهذا إلى أعلى درجة، مثل **أوجين إيتيان** Eugène Etienne، أحد زعمائه، الذي كان أيضا نائبا عن وهران مدة 47 سنة.

انطلاقا من منعطف القرن، كان السكان الأهالي يُظْهرون ممانعة أقل في وجه القوة الاستدمارية وبدت عليهم علامات التفرنس. وكانت السياسة الثقافية للعهد الأوَّل قد بدأت تؤتي ثمارها الأولى، وانطلاقا من العشرينيات، أصبح بإمكاننا القول أنَّ "البُنى الثقافية الجَمْعية [...] التي ما زالت في مرحلة ما قبل الحرب، وواقع النخب «المفرنسة» الضعيفة، تحديدا [...] كانا

---

[152] *Ibid.*, p.178.

يميلان نحو المستوى الشعبي"[153]. كان الأهالي مستقبِلين أكثر فأكثر لهذه الثقافة الغربية التي بدأوا منذ تلك اللحظة في استيعابها. بارتياح الفرنسيين لموقف «**لابسي الردنغوت*** redingote»، شَعَروا بالثقة التامَّة في أنفسهم فتركوا الأهليَّ «يأتي من تلقاء نفسه إلى الحضارة الفرنسية». تكيَّفت السياسة الثقافية مع هذه الوضعية الجديدة وانقلبت أكثر لطافة بحيث أنَّ إيديولوجيا التشارك عوَّضت رسميا إيديولوجية الإدماج، مع حظر كل مبادرة للمثاقفة القسرية. لم يكنْ بإمكان جوِّ الغليان الكبير، الفكريِّ والثقافيِّ الذي ميَّز تلك المرحلة البهية، أنْ يترك نخبا أهلية مثقفة غير مبالية، فقد خدمت إذنْ، عن وعي أو بدونه، مصالح الحاضرة الفرنسية.

بالجزائر، تميزت الحياة الثقافية في هذه الفترة بشخصية رجل، هو الحاكم **جونار** Jonnart، هاوٍ

---

[153] Meynier et *al., op. cit.,* Tome II, p.192.

* ردنغوت، سترة طويلة مشقوقة الذيل.

كبير للفن والثقافة، الذي باشر في هذه المجالات سياسة نشطة ومجدِّدة. شكَّل تقريرُ **أرسان ألكسندر** عن وضعية الفنون بالجزائر، بإمرة **جونار** سنة 1906، بلا شك، "منعطفا في العلاقة الثقافية بين الحاضرة الفرنسية والمستدمَرة"[154]. بإدانته للوضعية الكارثية للفنون الأهلية والأوروبية على حد سواء، كان يُسَجِّل بداية سلسلة نشاطات مهمة مباشَرةٍ سعيا لمعالجة هذه الوضعية. وقد تجلَّى بوضوح، تدخُّل السلطات العمومية انطلاقًا من هذا التاريخ في جميع المجالات التي تُلامِس عن قرب أو عن بعد الثقافة والفنون الجميلة. وقد شهِدت الهندسةُ المعمارية والموسيقى والرسم تطورات حقيقية. شُرِع في إطلاق الفن الأهلي، وانتشر الأسلوب «الموريسكي» في تشييد البنايات العمومية، وقد أُسِّست مِنَحٌ ومدارس فنية لتطوير تيار جزائري، وبُنِيت متاحف وقاعات للعرض..باختصار،

[154] François Pouillon, "Echange agonistique et marché des valeurs artistiques: situation de la peinture en Algérie: l'image dans le monde arabe", *Annuaire de l'Afrique du Nord*, 1993, vol.32, p.166.

كان هناك بالتأكيد، موقف سياسي جديد إزاء الثقافة. "إنَّ البنية التسلطية التي نُصِّبتْ شيئا فشيئا، ولكنْ رفقة ارتجاجات و ضلالات، نَقَلت الجزائر من *علاقةٍ أساسُها القيادة السياسية* المهيمِنة إلى *علاقة قائمة على الإدارة الثقافية* الرئيسية"[155]. كانت الجامعة والباحثون، وراء إنتاج خطابٍ مُشَرْعِنٍ، وكان أنصار المدرسة الأوروبية بالجزائر يهتفون بالنجاح الفرنسي، وكنا نشهد فرنسا واثقةً من نفسها في كل مكان، لم تعد غازيةً، بل ساعية لتعزيز بصمتها وجذب الآخرين وإبهارهم.

ستشهَد هذه السياسة تألُّقَها بمناسبة احتفالات الذكرى المئوية، التي أحاطت، طيلة عشر سنوات، النجاحَ الفرنسي بهالة، وسَتُسَجِّل حتما «عبر بلاغة الوقائع، الاتحاد السرمدي بين فرنسا الحاضرة وفرنسا الأفريقية، لأنها ستكون ثمرة المجهود المشترك»[156].

---

[155] Vatin, "Exotisme…", *loc. cit.,* p.180.

[156] CAOM, 64S/51, Commissariat général du centenaire de l'Algérie, L'œuvre du centenaire.

وُضعت دعاية رسمية موضع التنفيذ، مبرهِنة أكثر من أيِّ وقت مضى، على أنَّ فرنسا كانت تنوي لعب الورقة الثقافية للدفاع عن موقعها:«إنَّ مصيرًا فرنسا هذه وفرنسا تلك قد اتحدا إلى الأبد: ستكون كلُّ واحدة كبيرة بالأخرى، وتُدْرِك الجزائر جيدا ما تَدِين به لأمِّها فرنسا*، لهذا هي لا تفكِّر، في أشدِّ أحلامها طموحا، أنْ تتحرَّر من سلطتها الشرعية. ماذا يمكن لهذه الأعمال أن تكون؟ هي تلك التي سَتُشِعُّ أحسن داخل هذا البلد بعبقرية الوطن-الأم، حاضرة الفنون والحضارة هذه [...]»[157].

* وذلك لأنَّ العكس هو الصحيح، ففرنسا هي المَدينة للجزائر، نتيجة ما ارتكبته بحقها من جرائم على جميع المستويات، لأجل هذا فكرت الجزائر وقررت منذ احتلالها القيام بثورات عدة للتحرر.

[157] Ibid.

الفصل الرابع

الثقافتان العربية-الإسلامية والبربرية

تَرَافق مجيء نظريات التشارك في بداية القرن مع تعديل في سلوكات فرنسا إزاء الثقافة الأهلية، التي شُرِع في تقبُّلها وتثمين واقعها. وابتداءً من تلك اللحظة، سَتَخْنِق فرنسا على الأصح هذه الهُوِية، وستحاول فَلْكْلَرَتِها وإضعافَ وزنها السياسي عبر حركة أساسية أكثر سرية وفعالية، وجعلَها باختصار مُسالِمة، مع إبداء علامات التعاطف معها والدعم لها.

أ. الإسلام.

1. التحكم الفرنسي.

كـان موقـف السـلطات العموميـة بشـأن الـدين الإسلامي إذنْ، علـى نحو عام، يمزج تسامحا ظاهريا مـع إبقـاء رقابـة شـديدة عليـه. بعبـارة أخـرى، كانـت السلطات تتسامح مع الدين بقدر عدم تمثيلـه لتهديدٍ مـا. فيما يتعلق بالتربيـة الإسـلامية، أَكْمَل تنصيبُ المدرسـة اللائكيـة عمليـة إضـعاف الزوايـا، ويَـذْكر **أجـرون** Ageron «هـذه الحـرب الصـغيرة التـي شُـنَّت علـى المـدارس القرآنيـة، المتسـامَح معهـا ولكـنِ المضـايَق عليها». يورد تحديدا مرسوم سنة 1892 "الذي يحظر علـى المدارس الإسـلامية الخاصـة المجـاورة للمـدارس العامة استقبال أطفال في عمر التمدرس خلال سـاعات الصف"[158]. ولكنَّ الإسلام، كـان فعلا، محلَّ انشغالاتٍ أكثر جديـة. وحينمـا تعلـق الأمـر بتوسيع نظـام الفصـل séparation بـالجزائر، عبَّـرت شخصيات عديـدة عن

[158] Ageron, *Les Algériens Musulmans*.., p.957.

استهجانها للأمر، معلِّلة ذلك، بأن المسلمين لن يعارضوا ذلك فحسب (لأنهم سيفهمونه نهبا)[159]، وإنما كذلك، لأنَّ فرنسا لا يمكنها التخلص من هذه الأداة الرقابية الأساسية على السكان الأهالي والمتمثلة في التحكم في العبادة. وكان الحاكم العام -أحد المنخرطين في ذلك- قلِقا بشكل صريح:«تفرض المصلحة العليا لهيمنتنا -كما كتب إلى وزير الداخلية- أنْ نحافظ على حركةٍ مباشِرة إزاء اشتغال الشعائر الإسلامية [...]». ويبدو جيدا، أنه إذا لم يُشِر التشريع إلى ذلك، فقد كان الحاكم راضيا ووجد في التطبيق صلاحياته القديمة. وهكذا، "عاودت الإدارة التكفل سريا سنة 1909 بجميع المساجد، التي لم يُمْنَح الانتفاع بها إلى الجمعيات الثقافية الموجودة، وسمحت لنفسها عبر التأهب القليل المتجلي لدى السكان، بإنشاء جمعيات

---

[159] عقب مصادرة الدولة للأملاك الوقفية التزمت بتلبية حاجيات الشعائر الإسلامية، فشيَّدت 35 مسجدا قبل الحرب العالمية الأولى (15 منها كانت مع بداية القرن العشرين)، وتعهَّدت 189 مسجدا رئيسيا و253 مسجدا ثانويا.(المؤلف) (لم تنتعش حركة بناء المساجد إلا منذ العشرينات من القرن العشرين مع ظهور الحركة الإصلاحية، وهي المساجد التي كانوا يطلقون عليها اسم (الحرة) في مقابل تلك الواقعة تحت إدارة الشؤون الأهلية الفرنسية. وإذا قرأت عن إنشاء مسجد في العهد الفرنسي فاعلم أنه بُنِي من أموال المسلمين وليس من أموال الدولة الفرنسية. (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 78/5. طبعة البصائر2009.) المترجم)

ثقافية جديدة لأجل استرداد حق التعيين المباشِر، فعليا وفي كل مكان"[160].

2. الحج إلى مكة.

يبقى الحج إلى مكة، باعتباره في مركز الحياة الدينية للمسلمين، موضوعا مُعَقَّدا يوضح تماما لُبْسَ السياسة الدينية للإدارة العمومية. وقد عُدَّ خطرا سياسيا واقعيا بسبب الاحتكاكات المنعقدة بهذه المناسبة مع الشرق الأدنى، كما تعرَّض للرقابة (بشكل قاس) أو للتثبيط عبر إكراهات إدارية «لا تُقْهَرُ»[161]. كان يُمْنع دوريا لـ «أسباب صحية»[162] أو بسبب «وضعية دولية غير مواتية» انطلاقا من 1907. وحينما كان يُسْمح به، كانت فرنسا تتدبر الأمر كيْ تُشْرِفَ عليه (مرافقة، إيواء).

[160] Ageron, *Les Algériens Musulmans*…, p.896.

[161] "عمليا، كان على الحجاج 1) الحصولُ على جواز سفر مسلَّم من سلطة العمالة، 2) تبريرُ امتلاك مبلغ 1000 فرنكا، 3) تقديمُ كفيل موسر مقيم بالبلدية نفسها، يلتزم عبر عقد أصلي بتسديد التسبيقات المقدَّمة إلى الحاج عند اللزوم، 4) الشهادةُ بتسديده للضرائب والرسوم المستحقة عليه، 5) الشهادةُ بكون عائلته خارج الاحتياج".Ibid; p.899.

[162] توفي 2000 حاجا من 7000 بالكوليرا سنة 1983.

3. الخلافات العشائرية

في هذه المجتمعات حيث يحتل الدين موقعا أساسيا في التنظيم السوسيو-ثقافي والسياسي، أدركت فرنسا مبكرا، أنَّ بإمكانها الاستفادة من هذه الوضعية. وقد استغلت الخلافات العشائرية لهدف سياسي للغاية، ومثال الصراع على السلطة بين عشائر الواحات في **توات وتيديكلت** بداية القرن، يضيء هذه الممارسة التي استعملتها فرنسا بشكل متكرر. ويشكل الخلاف الحاصل بين أهل **عزِّي بيلو** (أحفاد الزواج الأول* لعلي) و شرفة سيدي **مولاي عمر** (أحفاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من بنته فاطمة، الزوجة الثانية لعلي)، التوضيح التام:

> وبهدف إرساء كل واحد لسلطته، يتنافس الزعيمان على تحالف مفضل مع الجيوش الكولونيالية. ولكنَّ هذه المنافسة بين

* هذا خطأ تكرر عند بعض الكتاب الفرنسيين، فالشرفة - وليس أهل عزي- هم أحفاد الإمام علي بن أبي طالب من زواجه الأول، أيْ من بنت رسول الله السيدة فاطمة الزهراء، أما أهل عزي فهم أحفاد الإمام علي بن أبي طالب ، من ولده السيد محمد بن الحنفية وأمه خولة بنت جعفر بن قيس الحنفية، وهي إحدى زوجات الإمام علي بعد وفاة فاطمة الزهراء.

الـزعيمين لخدمـة الاحـتلال فاقمـت بينهمـا تنافســا أصــمَّ يمكــن أن يكــون ضــارا بالسلطات الكولونياليـة وخطـرا عليهـا. وقد نجحـت هذه الأخيـرة، بمهارتهـا فـي تعقيـل حميـة كل طـرف مـع تفضـيل **بيلـو** المفيـدة أكثـر لغـزو **الأهــقــار**، لأن **أهـل عـزي**، منـدمجين أحسـن فـي أبنـاء **كَـلْ أَهَــقَّــار**، ويمارسون تـأثيرا أكيدا. وهكذا كُلِّفت **بيلـو** بقطع **الأهـقـار** لأجل الثناء على المسيحيين (أي الفرنســيين) وإطــراء قــوة الجــيش الكولونيـالي، وهـذا بهـدف جعـل أبنـاء **كَـلْ أَهَـقَّـار** ينضـمون باتجـاه **موزا آغ أمستان** للالتحاق بعين صالح للخضـوع للفرنسيين. خلال تسعة أشهر، بعد معركة **تيت** Tit في سـنة 1902 التـي شـهدت هزيمـة أبنـاء **كَـلْ أَهَـقَّـار**، نجح **بيلـو** جزئيـا فـي نقل الدعايـة الكولونياليـة وتحصـيل اتفـاق كـافٍ يسـمح

بانتقال **موزا** إلى عين صالح. نجحت السياسة الكولونيالية إزاء علماء الدين في الاستفادة من الانشقاقات الحاصلة بين الأحفاد المباشرين للرسول (**الشرفة**) وأحفاد الزواج الأول* لعلي (**أهل عزي**)[163].

كانت عملية التلاعب بصراعات التأثير والسلطة، المؤسَّسة على العنصر الديني إلى حدٍّ بعيد، من ثوابت السياسة الفرنسية. بيد أنَّ الالتباسات والمفارقات، في مجال السياسة ذات الانعكاسات الثقافية، كانت جائزةً غالبا.

4. الإخوانيات والمرابطيَّة

وهكذا، كان موقف السلطات العمومية إزاء الإخوانيات** الدينية الإسلامية، والمرابطيَّة تحديدا،

* أنظر هامشنا السابق.

163 A. Bourgeot, "Résistance et collaboration en Ahaggar", *Annuaire de l'Afrique du Nord*, 1984, p.485.

** الإخوان: الأتباع، المريدون، ومن ثمة المؤاخاة والرابطة بين أصحاب الطرق الصوفية.

متميزا بلعبة غامضة. كانت فرنسا، وفيةً لسياستها فرِّقْ تَسُدْ، تُواصل إنجاز هدم البنية الثقافية بتعزيز شق الصفوف: " فقد تلقَّت الإدارةُ الأمرَ بالإبقاء على الانشقاقات الداخلية، وعدم وقف الانقسامات"[164].

كانت الإخوانيات ملغمَّة في الداخل بفقدان المصداقية، المرتبطِ بتَوَرُّط فرنسا في الشؤون الدينية (تعيين الشيوخ، استعمال التأثيرات الإخوانية خلال الانتخابات...). كانت مجموعة الأهالي (المدعوين لأن يصبحوا وسطاءها، والنواب عن سياستها وسط العشائر) يُخْتَارون تبعا لتأثيرهم الديني، وشجرة نسبِهم، والأساطير والكرامات المرتبطة بهم؛ "فتنمحي الثقافة المحلية التي تقوم عليها الوجاهة شيئا فشيئا [...]. إنها كل هذه القاعدة الثقافية التي ستنهار مع القادمين الجدد وحلفائهم [...] للمهيمنين الجدد إذن، ميلٌ ليس إلى إعادة إنتاج أنماط الهيمنة السابقة، وإنما

---

[164] Arnaud, *Précis de politique musulmane*, Alger, 1906, p.119. Cité dans Ageron, *Les algériens Musulmans*…, pp.901-902.

إلى إفراغها من جوهرها الثقافي والإبقاء على الغلاف الشكلي فحسب"[165].

كانت الإخوانيات محبوسة داخل غُلٍّ ثقافي من صنع الفرنسيين. ويُعَدُّ مؤلَّف **أ.دبون** Depont و**ك. كوبولاني** Coppolani[166]، عن الإخوانيات الدينية الإسلامية، المنشور برعاية الحاكم العام للجزائر **جول كومبون** Jules Cambon، مثالا توضيحيا على ذلك. لقد مكَّن السلطات من محاصرة الإخوانيات، وتنظيم الممارسات الدينية الأهلية، وهو بهذا "يؤدي وظيفة الحبس نفسها التي أداها مؤلَّف **هانوتو** أو **لوطورنو** بشأن العادات القبائلية. قام سكرتير وإداري لبلديات مختلطة -والحدث يستحق التأكيد عليه- بجمع المعلومات عن الإخوانيات المشهورة. كانت القيادة رسمية وكان المحرِّرون موظَّفين مدنيين. يرمزون

[165] Tassadit Yacine-titouh, *Les voleurs de feu, éléments d'une anthropologie sociale et culturelle de l'Algérie*, Paris, éd. De la Découverte/Awal, 1993, p.77.

[166] A. Depont et X. Coppolani, *Les Confréries religieuses musulmanes*, publié sous le patronage de Jules Cambon, alger, Jourdan, 1897. Cité dans Lucas et Vatin, op. cit.

فعلا لنهاية التحقيق المؤدَّى عن إسلام المرابطين، الذي لـم يكـن النظـام لـيخش منـه شـيئا"[167]. وقـد استُعمِلت الإخوانيات أخيرا، لتقديم الإسلام على صورةٍ منحطـةِ القيمــةِ، فــي إطــارٍ ثقــافي غيــر متوافــق مــع التقــدم والحضـــارة، ولِفَــرْضِ فكـــرة الحضـــور الغربـــي الضـروري. "إنَّ الإسـلام الصـوفي هـو الـذي وُضـع موضع الريبة، وأُعلِن حاملا لجينات متحجِّرة [...] لقد جاءت المرابطية، التي درسها الجامعيون بعناية، في وقتها المطلوب، لتقدِّم عن الإسلام، أكثر الصور فظاظة وتُبَيِّنَ عداءَه للتقدم"[168].

5. مصادقة الزعماء الدينيين

رغم أنَّ السلطات الكولونيالية، وبالتوازي مع هذا العمل في هدم البنى وهذا العرض قليل الإطراء، كان بإمكانها أن تستفيد بقوة من صداقة أشد الزعماء الدينيين تأثيرا.

[167] Lucas et Vatin, op. cit; p.20. Voir la note 176 sur hanoteau et Letourneux.
[168] Ibid; pp.32-33.

رغمًا عن تحذيرات **دوطي** Doutté الذي كان يقول «إنَّ المرابطيَّة لا يمكنها أن تصبح أداة للحكومة»، من المؤكد أنه قد فُهِمَ تحديدا من هذه الزاوية. كان يطرح أولا هذه الخصوصية، المعتبرة ملائمة لهيمنتنا، تفتيت التظاهرات الإيمانية، ومضاعفة أقطاب الجذب الصوفي وأماكن الزيارة. وعبر هذا، كان يهدف إلى خنق العلاقات بين مسلمي المغرب وإخوانهم في المشرق، والتقليل من أثر السحر المحقق للشرق العربي على «بربر الغروب البعيد» هؤلاء[169].

وفي المقام الثاني، كما لاحظ ذلك، ضباط الشؤون الأهلية، كان المرابطون الحلفاء، بسبب تأثيرهم القوي جدا على السكان، مستعِدِّين لأنْ يصبحوا «أَوْثَقَ مساعدينا وأَشَدَّهُمْ نفعا» (**لوطو** Lutaud). في

[169] Ageron, *Les algériens Musulmans*…, p.904.

بدايــة القــرن، وَضَــعت السـلطات إذنْ، اسـتيراتيجيةً للتقـارب مـع 120 عائلــة مرابطيــة، كانـت إلــى تلـك اللحظـة مهمَلـةً. وقـد مُنِحـت بالتـالي إعانـاتٌ جوهريـة، لمن كانت محلَّ «ثقة» أكبر أو أبدتْ «اهتماما» أكثر، وقد لاحظت السلطات العمومية فعالية هذه السياسـة فـي وقت مبكِّر.

6. الإسلام باعتباره سلاحا حربيا.

شـكَّلت الحـرب العالميــة الأولــى، فــي المجــال السياســي والثقــافي والــديني، لحظــة مهمــة للسياســة الكولونيالية الفرنسية. في مواجهة دعاية تركية-ألمانيـة* عنيفة هادفة إلى إثارة الشحنة الإسلامية[170] لدى الجنـود الأهـالي (منشـورات، صـحف، مكبـرات صـوت) كـان علــى فرنســا أنْ تضــع للتنفيـذ ردًّا فعَّــالا. فاتخـذت فــي المجــال الثقــافي والــديني مبــادراتٍ متعــددةً، متظــاهرةً بكونهـا أحسـن صـديق للإسـلام. وفـي الموقـع الأعلـى،

* كان بعض الجزائريين يعتقدون مرارا أنَّ قيصر ألمانيا ڤيوم الثالث مسلمٌ، بوصفه عدوا لفرنسا، لهذا أطلقت عليه بعض الأغاني الشعبية اسم «الحاج ڤيوم».

[170] ترد ألمانيا كأداة للإرادة الإلهية، وتستغل صداقتها القديمة مع المغرب، حيث يُلَقَّب قيصرها بـ «الحاج ڤيوم Guillaume».

صدرت تعليماتٌ تؤكِّد على ضرورة احترام التقاليد الثقافية والدينية للجنود الموجودين بالحاضرة الفرنسية. لقد جرى العمل على تنظيم ممارسة الشعائر الإسلامية (طقوس الدفن، أعياد دينية، أماكن العبادة، الزيارات) ولكنْ كذلك، على إقامة مقاهي موريسكية وتقديم الكسكسي أو المشوي داخل الجيش. مع الارتياح التام لكُتَّاب السياسة (مثل **بيير أليب** Pierre Alype) والمؤرخين والصحفيين، وبطلب من الإدارة، كانت الصحافة والبرامج «المتَنَقِّلة» لـ «السينما الكولونيالية» تُثَمِّن ولاءَ الجنودِ الأهالي (الذين أصبحوا «متحضِّرين») باعتبارهم حلفاءَنا في الصراع ضد الهمجية، وتنشر صورا تثبت أنَّ الوطن-الأم قد قابل ذلك بالإحسان (رعاية الجرحى مثلا). وأخيرا، سهَّل الجيش، باعتباره وسيلةً للإدماج الثقافي، تطويرَ الوطنية، وسمح للمسلمين بالتآلف مع الثقافة الفرنسية، ونظَّم دروسا في اللغة الفرنسية.

ب. الثقافة العلمية والتقدُّم.

استهدفت السياسة الثقافية الفرنسية، الثقافةَ العربية الإسلامية التقليدية كذلك؛ وقد سهَّل المهمةَ تركُّزُ أقطاب العلم في مواقع العبادة، التي استعادت السلطات الكولونيالية السيطرة عليها، كما رأينا، أو فكَّكتها. وأصبح بإمكان الثقافة الفرنسية أنْ تخترق بسهولة هذه الدائرة الفكرية، لأنَّ طابعها الدنيوي لا يتعدَّى على تقاليد الأجداد، الدينية أساسا. وهكذا، كانت فرنسا، تعمل شيئا فشيئا، لأجل أنْ تصبح حليفا في السير نحو التقدم. "لم يكن الفرنكوفوني الجزائري بامتلاكه للثقافة العالمية، عبر اللغة الفرنسية، يفقد ثقافتَه الدينية العلمية ولا ثقافته الشعبية، المنقولة بواسطة لغته القومية، هو يُكَمِّلُهُما فقط بالثقافة العلمية الدنيوية الناقصة في الفضاء الثقافي التقليدي الجزائري"[171].

[171] Lanasri, op. cit; p.148.

تضاعفت الدوائر والمراكز الثقافية الموالية للفرنسيين بالجزائر العاصمة، مع أفق نشر تعليم التقدم وتذوقه عبر المحاضرات، وإنتاج كراسات ومؤلفات، أو إنشاء مكتبات. يمكننا أن نذكر تحديدا **الراشدية** بالعاصمة، دائرة **صالح باي** بقسنطينة، ودائرة **الشباب الجزائريون** بتلمسان، ورابطة **العلوم الحديثة** بخنشلة. وكان للتجمعات الاجتماعية الثقافية والجمعيات العربية للتربية الشعبية (التي بلغ عددها العشرين قبل الحرب العالمية الأولى[172]) نشاطات متعددة. وبعيدا عن وجهتها الخيرية، قُدِّمت بها محاضرات بالفرنسية والعربية حول موضوعات متنوِّعة جدا (فضائل التعليم، فضائل العلم، حث الإسلام على دراسة اللغات، البنى السياسية الفرنسية، القوة العسكرية الفرنسية، الفن العربي)، وكانت هناك كذلك دروس تقدَّم في اللغة العربية للصغار والكبار على حد سواء:"إنها مراكز تربية، وتبسيط وتخمر، والمناسبة المفضلة كذلك

[172] Par exemple al-Rashîdiyya (1902) ou al-Tawfîqiyya (1905) à Alger.

لتقاسم العلم، والوعي والمسؤولية الجماعية. لهذا السبب، هي تُجَسِّد قيمة رمزية وسياسية عليا "[173].
كانت مفيدة للسلطات التي تَمَكَّنت من خلالها أنْ "تَجُسَّ نبض النخبة وحقل نشاطها، وتقيسَ تطوُّرَها، وتستخرجَ الاتجاهات الأساسية والبحوث المجدِّدة فيها"[174]، والتحرك تبعا لذلك لحفظ مصالحها.

---

[173] Rachid Bencheneb, "Le mouvement intellectuel et littéraire algérien à la fin du XIXe et au début du XXe siècle", *Revue française d'histoire d'Outre-mer*, 1983, 70(1-2), p.22.
[174] Ibid; p.76.

ج. فَلْكَلَرَةُ الثقافة الشعبية.

بينما كانت الثقافة العلمية مهمَّشة والمثقفون مُوَجَّهين نحو فرنسا. كانت الثقافة الشعبية قد بُعِثَتْ بنكهة الحاضر. ولكنَّ إعادة الاكتشاف هذه، ترافقت مع فَلْكَلَرَةٍ ما. وانكشفت هذه النزعة على نحوٍ أكثر تفاقما بمناسبة الذكرى المئوية. وفي الأدب المنشور، كان الأهليُّ مطوَّقا داخل غُلٍّ محدَّد جدا:

> الحديث عن المستدمَر ليس مسموحا به، إلا داخل هوامش محدَّدة جيدا: المأكل، والكلمات، والمدهش والحِرَف، والعُرْف والشعوذة. تأكَّد وَضْعُ اليد على شعب بوساطة الخطاب التفسيري المتبنى بشأنه: هو ليس خطيرا مادام بالإمكان معرفته، والإحاطة به، واختزاله في بضعة نظريات. وهكذا يأخذ الأهليُّ مكانه في «خطاب مهيمِن يمثل نموذجا للآخرين،

الـذين يُنَظِّمـون ويؤمِّنـون انسـجام مجمـوع خطابات هذا المجتمع، الذي نعثر في كل مكان عن افتراضاته وصيغه»[175].

[175] C. Abastado, *Messages des Média,* Paris, CEDIC, p.44. Cité dans C. Achour et S. Rezzoug, "Brisure dans une cohérence discursive : l'autochtone dans les textes coloniaux de 1930 en Algérie", dans *Des années trente - Groupes et ruptures,* Meudon, éd. du CNRS, 1985, p.76.

د. التقنين الثقافي: مثال سكان القبائل.

كان التقنين الثقافي ميسَّرا عبر البصمة القوية لشفوية العادات العربية والقبائلية، التي تمكِّن القوة الثقافية المهيمِنة من استعادة التحكم فيها وإعادة ابتكارها، ربما، لامتلاك تأثير أكبر على السكان الذين تنتمي إليهم. وَضَع المثقفون هذه التقنية موضع التنفيذ وجسَّدوها. وقدَّم علمُ الأعراق، تحديدا، عناصرَ للتمييز بين الأعراق تسمح بفرض قوانين مختلفة عليها، يُزْعَمُ تكييفُها مع خصائصها الثقافية.

وهذا السلوك، في حالة سكان القبائل، فاضح على نحو خاص. ساهم **هانوتو**[*] Hanoteaux و**لوطورنو** Letourneux في التقنين الثقافي بفضل كتاب أصبح مرجعا في مجال العادات القبائلية طيلة الفترة

[*] كان هذا الضابط حاكما لزواوة فترة طويلة، وقد سبق غيره في الاهتمام بلهجتها وأصدر بشأنها عدة مؤلفات جاءت نتيجة اعتماده على علماء المنطقة وبحوثه في عين المكان. وقد خرج من ذلك بالكتاب الضخم الذي أصدره بمعية زميله لوطورنو بعنوان جرجرة وعاداتها. كما أصدر كتابا آخر عن النحو القبائلي، وثالثا عن الشعر الشعبي في زواوة... وغيرهما. (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 31/8، 32، 37، 38، وكذا الأجزاء 3 ، 4، 5، 6. طبعة البصائر2009.)

الكولونياليـــة برمتهـــا[176]، ســـيما بالنســـبة للســـلطات العموميـة. ويشـرح **لوكـا** Lucas و**فاتـان** Vatin هـذه الظاهرة:

> عاقبـت شـراكة **هـانوتو-لوطورنـو** [...] الثبـات الهيكلـي لأقليـةٍ، بالأشـكال الخاصـة للتنظـيم. وأصـبحت بـلاد القبائـل والعـادات القبائليـة هـي القـانون البربـري. كمـا غـدت التقاليـد المرنـة محبوسـة فـي غُـلِّ القـانون المكتـوب. وأصـبحت ممارسـات التبـادل والشرف، والقواعد الموروثـة فـي الـزواج، والملكيــة، والانتفــاع بالممتلكــات، حقوقًــا وإلزامـــات وواجبـــات. ويُغربِـــل ثَبْـــتُ (كاتـــالوغ) القـــوانين، الفـــوارقَ البســـيطة والدقيقـة ويسـتخرج الالتزامـات. «قـانون نـــابليون البربـــري» لقضـــاة الصـــلح، والمحـاكم، والمستشـارين أنفسـهم. ويبـين

[176] Hanoteau et Letourneux, *La Kabylie et les Coutumes Kabyles*, Paris, Challamel, 1872-1873, 3 volumes. Cité dans Lucas et Vatin, op. cit.

«**هانوتو ولوطورنو**»، في أقصى تقدير، أنَّ مرحلةً قد انقضت وأنَّ عالمًا قد أصبح تحت السيطرة[177].

كانت الثقافة الحجر الأساس فعلا، لكل تشريع كولونيالي. وبالتشديد على التنوع الثقافي التقليدي، كانت السلطة الكولونيالية تتفادى أنْ يمنح عامل قوي للتلاحم (كالإسلام أو الشعور بالتجمع الثقافي) فرصةً "لمجتمع، ما يزال متنافرا، للاتحاد انطلاقا من موارده المجدَّدة"[178]. لأجل هذا، لم يكن أعضاء الحكومة يخفون ذلك، وسيكون التقسيم الإمبراطوري المبدأ الجديد للسياسة الأهلية، وسيتوجب في سبيل هذا إعطاء الأولوية لمقابلة: العربي/القبائلي.

أما الطبقة السياسية المراقِبة للسلطة الفرنسية، فقد كانت حاجتها إلى حليف على التراب الجزائري، أقل من حاجتها ابتداء

---

[177] Lucas et Vatin, op. cit; pp.17-18.
[178] Ibid; p.43.

من الآن إلى استعمال القبائل ضد العرب. تعدَّل الأفق إذن، واستعاد السياسيون الخطابات القديمة للإثنولوجيا العسكرية أو الأكاديمية، بهدف العثور فيها على الذخيرة اللازمة لمنهجة التفرقة، وبالتالي المساعدة في نصب العهد الكولونيالي. عدم الفصل بين الطرفين لاسترجاع أحدهما، وإنما المعارضة بينهما لمراقبتهما معا على نحو أحسن[179].

وهكذا، بدَّلت «الأسطورةُ القبائليةُ» عن العرق المقارب، اليسير استيعابُها والمحتمل تحالفُها، وجهتَها تدريجيا. فلمْ يكن الأمر يتعلق بإطراء إدماجها الكلي، وإنما على العكس من ذلك بالتأكيد على خصوصية الطابع البربري المعتبَر سلاحا ضد العروبة. وستسجل هذه «السياسة البربرية» تقدما واضحا إلى غاية الحرب.

---

179 Ibid; p.46.

في منعطف القرن، بدأ القبائليون الأكثر تطوُّرا بإعادة النظر في التقنين التشريعي المتصلِّب لثقافتهم، إذ اعتبرَهُ بعضُهم «وحشيا» فوق اللزوم، وعدَّه البعض الآخر «بعيدا جدا عن الشريعة القرآنية». كانوا يطالبون بإصلاح القوانين وتوجيهها مجددا بما يتوافق مع دينِهم ومع التقدُّم الحاصل في المجتمع. ولم يكن بإمكان الإدارة أنْ تُسنِد هذا المطلب، في الوقت نفسه، الذي كانت تحاول تعزيز التفرد القبائلي بإبعاده عن الشريعة القرآنية. ظلت إذن، تصم أذنيها عن سماع هذه المطالب، مؤكدة على وجهة سياستها الثقافية. ونجد خلال الفترة كلها، أمثلة متعددة عن مبادرات ثقافية لفرنسا مخصَّصة لدعم الوعي بالثقافة البربرية ونهضتها (لغة، وتاريخا، وتقاليد)، كثمرة للإرادة السياسية الظاهرة، التي أكدتها الخطابات السياسية والمبادرات الثقافية، أكثر من مرة. ضف إلى هذا، أن "الحكايات، والأناشيد، والأمثال البربرية، كانت في

فتـرة الـذكرى المئويـة تجمِّـل رواياتنـا romans"[180].
ورغـم أن مفهـوم العـرق قـد اصـطُنِع لحاجـاتِ القضـية السياسية، فقدكانت توجد فعلا، كما يشـرح ذلك مطوَّلا سـالم شـاكر، أسـتاذ البربريـة بالمعهـد الـوطني للغـات الشـرقية ببـاريس، ثقافـة بربريـة خاصـة سـابقة فـي وجودها على التعريب والأسلمة، والتـي عزَّزت فرنسا نهضـتها. "لـم تكـن المراجـع (التاريخيـة والثقافيـة واللغويـة) البربريـة مجهولـة تمامـا فـي ثقافـة وعلـوم مـا قبـل-الكولونياليـة، ولكنهـا كانـت أكثـر ضـبابية: كـان الماضـي ما قبل-الإسلامي للبربر، مثلا، ينتمي إلى «مـا قبل-تـاريخ» أسطوري"[181]. اسـتطاع الفرنسـيون، بدقـة، أن يغرسوا نظامـا يصـنع نخبـا مسـتعدة لإعـادة اكتشـاف وتقيـيم هـذه الثقافـة مـا قبـل-الإسـلامية، والتـي كـان لخطاباتهـا تـأثير أكبـر مـن خطابـات القـوة الكولونياليـة،

[180] Achour et Rezzoug, loc. cit; p.78.
[181] Salem Chaker, "Langue berbère et influence française : le point sur une question délicate (Algérie-Kabylie)", *Présence francophone*, n°40, 1992, p.83.

ولم يكن وجودها يشكل تهديدا للهيمنة الفرنسية (التي يدعمها كثير منها).

كان القبائليون يشكلون، في الواقع، جوهر فريق النخبة، الذي يمثل وسيطا مع فرنسا (موظفين ومعلمين ومثقفين..). وكان شرط قبولهم ضمن هذه النخبة، متمثلا في محافظتهم على هويتهم الثقافية البربرية، التي كان يبدو أنَّ الوعي بها هو "نتيجة مباشرة لتداول معرفة علمية عن المغرب العربي دفعتها الجامعة الفرنسية"[182]: استفادت هذه النخب القبائلية من الهياكل الجامعية لإنتاج وترويج خطاب عن الهوية "ثقافي قبل كل شيء، يسلك فورا درب الإنتاج العلمي (لغة، أدب، حكايات بربرية...)"[183]، مادامت مدعومة من الوسط العلمي. وكان بوليفة* Boulifa، بلا شك، أشهر هؤلاء الآباء القائمين على الهوية البربرية. كتب بالتحديد مصنفا في الأشعار القبائلية سنة 1904، ومنهجا للغة

---

[182] Ibid.

[183] Ibid; pp.84-85.

* كان عمر بن سعيد بوليفة من أوائل النخبة الذين وقعوا ضحية المخططات الفرنسية. للإطلاع على حياته وأعماله بالتفصيل أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 8/58- 64. طبعة البصائر2009.

القبائلية سنة 1877 وسنة 1913. دعمت كلية الآداب بالعاصمة، على نطاق واسع، «التقليد الفرنسي المبربِر». وكان الأهالي، بغالبيتهم القبائلية، المكوَّنين في التعليم العالي الفرنسي، قد بدأوا التعريف بقيمتهم الثقافية، وكان خطابهم يتوجه غالبا ناحية الفكرة الكولونيالية :"ضمن محور التصورات والتحركات الأهلية، والخط المستقيم لسياسة انتقائية-مبتكرة لنخبة أهلية مستخرجة من القالب الفرنسي وقادرة على إعادة نشر ثقافة الاستلاب. وقد تطورت إثنوجيا محلية. [...] وساعد المجتمع الأهلي لأفريقيا الشمالية، لمحمد سوهالة (1937)، على نشر موضوعات الصيانة الإثنولوجية الكولونيالية، وتعزيزها تبعا لذلك"[184]. كان الإطار الثقافي للتعليم العالي إذن، ملائما بوجه خاص لتطوير «سياسةِ فرنسا إزاء البربر».

---

[184] Lucas et Vatin, op. cit; pp.61-62.

هـ. صناعة نخبة أهلية مُفَرْنَسة ولكنْ ليس بالقدر الكبير.

في حرب الحضارات هذه، كانت فرنسا تستعمل الثقافة بطرق شتى في محاولة لاستخراج الأحسن، وفي الوقت المطلوب، أيْ فرض معاييرها الخاصة بها أو معايير جديدة متكيِّفة مع ديمومتها السياسية. لأجل هذا، كان الأمر يتطلَّب ناطقين باسمها مقتنعِين، ولكنْ ذوي مصداقية كذلك. فرضت الضرورة نفسها بـ «تلقين حضارتنا وعاداتنا وجميع معارفنا لأناس شباب، سيكونون وسطاء نافعين بيننا وبين إخوانهم في الدين»[185]. ووجب على هؤلاء المبشِّرين بالقضية الفرنسية أنْ يكونوا مفرنَسين تماما دون أنْ يفقدوا، رغم ذلك، خصوصيتَهم الثقافية كُلِّية:« [...] من كان بعيدا جدا عن الغرب، كان أقرب إلى ثقافته الأصلية، لقد بقي عربيا (أو قبائليا). ولكنْ من كان قريبا جدا من الغرب، كان أبعد عن ثقافته الأصلية، لقد أصبح مجرَّدا

---

[185] Ministre de la Guerre Bernard en 1839, cité par Lanasri, op. cit; p.35.

من إسلامه وعروبته، هو يظن نفسه فرنسيا. نتوقف إذن عن كوننا ممتازين بمجرد عبورنا لدائرة الثقافة التقليدية. ولن نكون كذلك، مادمنا لم نلج إلى دائرة الثقافة الغربية»[186]. كان **جون ميليا** Jean Mélia يُوَضِّحُ خصوصيةَ النظام هذه، بسرده للحظ العاثر لشاب جزائري مفرنس، حاصل على الليسانس في الحقوق، يلتقي ممثل الحكومة العامة لاستجداء منصب قايد، قوبل بالرد التالي:«ولكنَّك لم تُفَكِّرْ في الأمر! فأنت تلبس على الطريقة الأوروبية، إذ تضعُ قبعة، أنتَ مْطُورْني m'tourni! لن يتعرف عليك إخوتك في الدين، وإنْ تعرَّفوا عليك سيكون بمقدورهم الإساءة إليك»[187].

كانت المدارسُ، باعتبارها المكان المفضَّل لتكوين الوسطاء الأهليين المستقبليين، أحدَ العناصر الجوهرية في السياسة الثقافية الفرنسية. ويُقدِّم الحاكم

---

[186] Fanny Colonna, *Instituteurs algériens 1883-1939*, Alger, OPU, 1975, p.169.
[187] Cité dans Lanasri, op. cit; pp.40-41.

العام مخطَّطا جيِّدا عن أهميتها في مراسلة عنيفة إلى وزيره سنة 1880[188]، التي تمكّن في الوقت نفسه من رؤية أنَّ فرنسا، وإلى غاية بداية القرن، لم تكن تأخذ فعلا احتياطات بشأن السياسة الدينية. فالمدارس التي لم تكن دينية، أُسِّست، حسب رأيه، «لكي يتم تكوين طلبة الدين المسلمين تحت تأثيرنا وإدارتنا، وهو التكوين المنفلت تماما من رقابة الدولة في المدارس، المسلمة كلية». كانت المدارس تشكِّل المكان المفضَّل لتكوين المحامين، وأئمة الشعائر الإسلامية، ومختلف موظفي الإدارة الكولونيالية، «الذين عليهم أنْ يتلقَّوا إدارةً غير تلك التي قد تُمْنَحُ لهم في ظل المساجد». كانت تمارس تعليما للفقه الإسلامي «مستخرج من النزعات العدائية الموجودة لدى كل العلماء المرتبطين بالمساجد أو مديري الزوايا الحرة، تقريبا». كانت المدارس إذنْ، وسيلة فعالة لـ«الكفاح ضد التحركات المعترف بها نوعا ما، من أحزاب دينية إسلامية، يمثلها أئمة

---

[188] CAOM, 24S/1.

ومدرِّسون وقيادات دينية وشيوخ زوايا»، قليلة التعاون مع فرنسا، مادامت تسحب من تأثيرهم النخب الأهلية المستقبلية. عملت السلطات كلَّ شيء، كي تقتلع منها «جذريا» دراسات علم الكلام، وتستبدل بها مواد لم يكن أئمة الشعائر الإسلامية قادرين على تدريسها (الفرنسية، التاريخ، الحقوق...) ولكنْ يُحَتِّمها دبلوم مطلوب للدخول إلى الوظيفة العمومية. كانت التجسيد الفعلي لسياسة متَّبعة بضراوة، وبشكل مستمر، منذ 50 سنة. ستبقى المدارس في مركز انشغالات السلطات العمومية. وسيبني الحاكم **جونار** Jonnart منها اثنتين جديدتين بالعاصمة ووهران سنتي 1904 و1905، مُبْرِزا بذلك العنايةَ التي تُوليها السلطة الكولونيالية للتكوين العالي للأهالي وللرقابة على رجال الشعائر الإسلامية.

و. الفنون والحرف الأهلية

1. نهضة الحرف الإسلامية وغرفة التصميم

تغيرتِ السياسة الثقافية بشأن الفنِّ الأهليِّ مع بداية القرن العشرين، مثل كل ما يتعلق بالثقافة العربية الإسلامية. وانطلاقا من هذا التاريخ، كدَّت السلطات العمومية لبعث الحياة فيه من جديد. بانضمام الحاكم **جونار** (الملقب بـ «التركي» أو «العربي») إلى الإيديولوجية الفرنسية الجديدة عن التشارك، باشر سياسة ثقافية مكثفة في مختلف المجالات الفنية. وكان هو نفسه هاويا كبيرا للفن، وقد دفعه تحذير تقرير **الإسكندر** سنة 1906، المتعلق بحالة التداعي التي يشهدها الفن الأهلي، إلى العزم على الشروع في إنقاذ هذه الثقافة، بل تجديدها وبعث إنتاجها كذلك. وقد نشَّط تحديدا الهندسة المعمارية ذات النمط الموريسكي الجديد، ونظَّم حفلاتِ استقبال فاخرة تنشطها فرق موسيقية أهلية، كما يدعى إليها ممثلو مختلف التجمعات

الثقافية، ولكنَّه حاول، قبل ذلك، منح حياة جديدة للفن والحرفة الأهليين، بوساطة مصلحة للفنون الأهلية (أنشئت سنة 1908) مرتبطة برئاسة جامعة الجزائر العاصمة. تساعد غرفة للتصميم هذه المصلحة في مهمتها، والتي كان عليها فهرسة كل ما تم فعله في هذا المجال لاستلهامه وإبداع «نماذج جمالية جديدة». ولكن بقيت «غرفة التصميم» مؤسسة ثقافية فرنسية، والرسامون الفنانون الفرنسيون هم الذين كانوا يجمعون من داخل البلد الزخارف النموذجية التي «يعيدون التفكير فيها» لأجل إنتاج تسلسلي لها باستعمال الخشب أو السجاد، أو الطرز، يقوم بذلك حرفيون محليون. كانت الحرف الأهلية في هذه الفترة إذن، "شكلا من أشكال الفن المنتج ضمن سياق كولونيالي ولأجله"[189].

[189] Mustapha Orif, "De l' « art indigène » à l'art algérien", Actes de la recherche en sciences sociales, 1988, n°75, p.35.

2. راسم والاعتراف بـ «غرب مسلم».

إنَّ **محمد راسم**، مدفوعًا* مِنَ السلطات العمومية، التي رأت في فنِّه جانبا زخرفيا موافقا لتصورها عن الفنِّ الأهلي، واعتبرتْه «ممثِّلا للأصالة المعتدلة»[190]، وَجَدَ نفسَه مُرْهَقًا، على نحو سريع، مِنَ العمل قليلِ الإبداع، الذي حصل عليه في غرفة التصميم، ورأى فيه غُلاًّ ثقافيا لفنٍّ أهليٍّ فَلْكَلَرَتْهُ السلطاتُ العمومية. وقدْ وجَّهه بعض مُثَقَّفي المستدمَرة نحو إبداعِ فنٍّ جديد ونصحوه بذلك، فنّ يكون تركيبا بين الخط المزخرَف العربي والمنمنمات الفارسية؛ وهكذا، يمكننا القول إنَّ هذا الفن الأخير قد «فَكَّر فيه» الأوروبيُّون**.

وكان **جورج مارسيه** Georges Marcais بالتحديد أحد هؤلاء. هو مؤرخ متخصص في الفن

---

* لقد عرف **راسم** كيف يستفيد من بعض المواقف والثغرات الكولونيالية، وكان دافعه إلى الإبداع ذاتي- وطني - حضاري، كما تدل على ذلك لوحاته. (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 9/397-401. طبعة البصائر2009.)

[190] Pouillon, "La peinture monumentale…", p.193.

** نسبة هذا الإبداع الجديد إلى الأوروبيين فيه تَجَنٍّ كبير على الحقيقة، وإجحاف بحق **راسم** وانتمائه الوطني والحضاري. وجورج مارسيه تحديدا، متخصص في التأريخ للفن الإسلامي، فحسب. ((أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 9/397-401. طبعة البصائر2009.) (المرجع السابق)

الإسلامي، وحاصل على كرسي علم الآثار الإسلامي من كلية الآداب بالجزائر العاصمة. كان يؤمن بوجود «فن للغرب الإسلامي» (أفريقيا الشمالية، إسبانيا، وصقلية) وكانت له فكرة دقيقة عن الوجهة التي على راسم أن يمنحها لهذه «المنمنمات الجزائرية» الجديدة. وكان يدفع مَحْميَّهُ إلى "المصالحة في رسمه، بين الجمالية التقليدية للمنمنمات وبين مكتسبات جعلتها ضروريةً خمسةُ قرون من الفن الغربي"[191]. تطورت هذه الإرادة في خلق ثقافة «شراكة»، ضد اللاتينيين المهيمِنين، بمبادرة من بعض العلماء والموظَّفين السامين: "كانت الإدارة الكولونيالية تتقاسم هذا الاعتراف بـ «غرب إسلامي» تحديدا، وهي التي أنشأت سنة 1916 منحة تسمى المنحة «الإسبانية-الموريسكية» (وقد كان راسم أحد المستفيدين منها)

[191] Cité dans Orif, loc. cit; p.38.

وهي مخصَّصة لجعل الشباب الفنانين يقدِّرون فنَّ هذه المناطق"[192].

كان ذيوع صيت **راسم** بالتأكيد، مكافأةً له، على مؤهِّلاته الفنية، ولكنه كان يوضح كذلك تَطَوُّرا فلسفيا، كما يشهد على ذلك خطابُ صديقه المثقف **أوديزيو** Audisio الذي كان يرى فيه يقينا «فنانا بارزا» ولكنْ، أيضا وعلى غرار **مارسيه**، البيانَ التام لاتحاد الحضارات المتوسطية: "تحالفٌ كهذا بين جميع اللَّبَاقَات الجمالية للثقافة الغربية وبين الدروس الموروثة للثقافة العربية، يُقْنِعنا بأنَّ اتحاد الحضارات ليس خرافيا"[193] كما كان يقول عن فن **راسم**.

أخذتْ الإدارة العليا مبادراتٍ متنوعة، في الغالب، أكملتْ بعثَ هذا الفنِّ الأهليِّ الجديد. نَظَّم **جونار** المعارضَ العامة الأولى من أعمال الفن والحرف الأهليّيْن. في سنة 1924، قدَّم **أوغسطين**

[192] Ibid; p.38.
[193] Ibid; p.47.

بيـرك Augustin Berque جَـرْدا للفنـون الأهليـة الجزائرية. أُنشِئت دار الحرف سنة 1925، وفي سنة 1926، كتـب **جـورج مارسـيه** مؤلَّفـا فـي جـزأين مخصَّصا للفن الإسلامي (كتيِّب الفن الإسلامي).

إلـى أولئـك الـذين اندهشـوا عنـدما لاحَظـوا البريـقَ المفـاجئ، للفنـون الأهليـة وإنشـاءِ مَعَامِـل للخيَّاطـات والغـزَّالات والنَـدَّافات، بينما استمرَّ جردُ الإرث اللاتيني، وتسجيل المِسَـلاَّت الرومانيـة، سـيكون مـن اللائـق الإجابة بالقول: إنَّ الأهداف المتابعة بالنظر إلـى ذلـك، يمكـن أن تكـون متكاملـة: إرسـال الأهليِّ إلـى ثقافتـه وتثبيت الأوروبـيِّ داخـل ثقافتـه هـو الآخـر. كـان العِلْـمُ الفرنسـيُّ ومنتوجُـه الجزئـي أيْ العلـم الكولونيـالي بالجزائر، ينقلان إذن، رسـائل مختلفـة تبعـا لــ أ) المحـيط، ب) الوضـعيات التاريخيـة،

أي موازين القوى بين «الشركاء الأعداء» المنشِّطين للنظام الكولونيالي[194].

ولقد بلغ الفن الأهلي أعظم نشاطٍ له بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية. إذ فُتِحَت ورشاتٌ-مدرسية للسجَّاد والنسيج والحليِّ والفخار، فغزت الحِرَف التقليدية المنشورات والكتب، وحصيلات الدعاية وكراساتها. يمكننا أن نسجل كذلك، أن مكانا قد خصص للفن الأهلي في المتاحف الثلاث المنشأة سنة 1930 (العاصمة، وهران، وقسنطينة) وكان جزء من ميزانية الاحتفال بالذكرى المئوية موجها لتطويره. وفي سنوات الثلاثينات، ستكتسب «المنمنمات الجزائرية» الشهرة العامة، وهذا بمبادرة من السلطات العمومية، حينما اشترى المتحف الوطني للفنون الجميلة اثنين من أعماله. "ولم تأت مبادرة شراء منمنمات راسم مِنَ المُحَافِظ وإنما مِنَ السلطات العمومية: وتتَوَافق سنة 1930 مع الاحتفال بالذكرى

[194] Lucas et Vatin, op. cit; p.58.

المئوية لغزو الجزائر الذي استشعره المجتمع الأهلي على نحو سيئ جدا، وحتى داخل الشرائح الاجتماعية المتسامحة أكثر مع الوضعية الكولونيالية"[195].

باتساع شعبيته كثيرا، كانت النخبة الباريسية (**ليوتاي** Lyautey، **بارتو** Barthou، **فيوليت** Violette ومحافظو المتاحف الوطنية) تشجِّعه، وكانت **لاكريتيك** و"أحزاب وشخصيات "أهلية" تكتب لتشجيعه في فنه"[196]. أكَّدت السلطات العمومية رسميا هذا الدعم لراسم وهذا التوجه للسياسة الثقافية إزاء الفن الأهلي بمنح هذا الأخير استثناء للمشاركة في الجائزة الفنية الكبرى للجزائر، رغم تجاوزه للسن المحدَّد، وإعطائه المرتبة الأولى. وقد اختير محمد راسم، أول مسلم يحقق هذا الانتصار (منذ إنشائه سنة 1922)، بالإجماع. أقرَّ الحاكم العام **جول كارد** Jules Cardes هذا الاختيار. "كان قرار الرسميين بتتويج عمل راسم ناتجا بدرجة أقل عن إرادة في مكافأة عمل فني بالمعنى

[195] Orif, loc. cit; p.42.
[196] Ibid; p.43.

الضيق، وإنما عن رغبة في بيان أن السلطات الكولونيالية يمكنها أن تعترف بالواقع «الأهلي» وتمنحه «مكانا» في المجتمع الكولونيالي. وهذا أمام الإرادة المؤكَّدة أكثر فأكثر للأحزاب «الأهلية» في إدارة مصيرها الاجتماعي الخاص"[197].

في سنوات الثلاثينات عُيِّن **راسم** أستاذا بمدرسة الفنون الجميلة بالعاصمة"[198]. كما أصبح كذلك عضوا في لجان تحكيم صالونات «جمعية الفنانين الجزائريين والمستشرقين» ومنافِسَتها «الاتحاد الفني لأفريقيا الشمالية». تَلَقَّى طلبيات عديدة من شخصيات رسمية بالإدارة الكولونيالية، كما تُوِّج بوسام الشرف. "جَلَبت له المنمنمات الجزائرية شكلا من الاعتراف الاجتماعي، سيما من جانب الأوساط السياسية التي رأت فيها مصلحة سياسية أساسا"[199]. ولكنَّ **راسم** لم ينجح بسبب هذا في رفع هذه المنمنمات إلى مقام «الفن

---

[197] Ibid; p.45.
[198] Ibid.
[199] Ibid; p.49.

النبيل»، وحينما حاول تحرير فنه تَعَرَّض فورا للتقويم من جانب السلطات الكولونيالية، كدليل نهائيٍّ على أنَّ السلطات العمومية كانت تستعمِل الفن الأهليَّ عنصرا ثانويا ضمن إيديولوجية، وأنَّ دوره السياسيَّ كان أهمَّ بكثير من أنْ تتركه بأيدي الأهالي.

رغم كل الجهود، الموافَق عليها، بشأن الثقافة العربية-الإسلامية، التي تشهد على تكيُّف فرنسا مع التوجهات الفلسفية الجديدة للعصر، يجب أنْ لا نُغْفِل أنَّ الهدف الأخير للحاضرة الفرنسية، كما هو شأن كل الإمبراطوريات الكولونيالية، تمثَّل في الحفاظ على مستدمَرَتها، وفي هذه الحالة بالذات، تسهيل إدماجها كمقاطعة فرنسية. كانت الثقافة الأهلية مدعَّمة إذنْ، ولكنْ لكي تُهَمَّشَ، وتَسْمَحَ في المقابل بفرنسة تدريجية، الشرط اللازم للتكيُّف الإداري والسياسي لفرنسا. حتى وإنْ كان الإدماجُ، في الاعتبار الرسمي، طوباويةً خطيرةً، فقد ظلت الفرنسة إذنْ، جائزةً. ولِأمر بسيطٍ يتعلق بالمصلحة العليا، كان على الأهالي أنْ يتكيَّفوا

ثقافيا مع فرنسا الجديد هذه، تلك التي أصبحت منذ تلك اللحظة موطنَهم.

الفصل الخامس

فرنسة الجزائر

أ. اللغة

1. دعم اللغة العربية.

بالإرادة نفسها المتجلية إزاء الإسلام والفنون الأهلية، بُذِلَتْ جهودٌ لدعم اللغة العربية. وكانت تحفِّز هذا الدعم، المنبثق عن سياسة تسوية، شروطٌ عملية على وجه الخصوص، سِيَّما سدُّ النقص الحاصل في المرشحين القادرين على النهوض بأعباء مناصب الإدارة الأهلية. أُنشئ سنة 1900 أحد عشر منصبًا للمدرِّسِين (زيادة بـ 100%)، ورُفِع عدد المنح، كما أُنشئت مكتبات مخصصة للشباب الأميين الجزائريين المسلمين. وستظل هذه الجهود مبادرات ظرفية غالبا، ولكنها ستتضاعف تدريجيا.

قي هذه الفترة، كان رجال المدرسة الأوروبية بالجزائر algerianistes، يحاولون، بالإضافة إلى

ذلك، مَنْهَجَة تطوير اللغة العربية لدى الأوروبيين، عنْ مثاليةٍ أكثر منها عن واقعيةٍ سياسية. ولكنْ، بدا أنَّ هذه الإرادة تتوافق مع توجه إيديولوجي "تشاركي" associationniste أكثر، كان يميز السياسة الاستدمارية في بداية القرن العشرين، وبين 1904 و1914، أصبحت العربية المنطوقة إجبارية على التلاميذ الفرنسيين في المدارس الابتدائية بالجزائر. وقد تطلبت هذه المبادرات ترتيبات، وتطويرات لبنى تعليم اللغة العربية، ولكنَّها تدهورت مع بداية الحرب العالمية.

لم تُكَرَّر التجربة مع عودة السلام، رغم أن العديد من رجال السياسة أبدوا دعمهم لهذا المبدأ. في سنة 1937، على سبيل المثال، وعقب محاضرة عن شمال أفريقيا، انعقدت بباريس تحت رئاسة **ألبير سارون** Albert Sarrant حول مسألة تعليم العربية، كلغة إجبارية في ثانويات أفريقيا الشمالية، تمخَض عن ذلك، أنَّ ترقية العربية وسط السكان الأوروبيين بالجزائر،

كان وسيلة لتحسين فعالية الإدارة بإتاحة مزيد من "الاحتكاك مع السكان الأهالي"[200]. وكانت مذكرةٌ صادرةٌ في سنة 1938 عن توسيع معرفة اللغات الأهلية وسط الموظفين ومختلف عناصر السكان الأوروبيين، تؤكِّد هذه الإرادة في تطوير العربية داخل الإدارة الفرنسية[201] : وكان الموظفون الأوربيون يشجَّعون عبر منحهم علاوات، جراء اكتساب اللغات العربية والبربرية (مرسوم 4 ديسمبر 1849 الموسَّع بمراسيم متعددة لمختلف أصناف العاملين بالمستدمَرة). كانت المنحة من 200 إلى 400 فرنك. وكانت المذكرة تقدِّر أن عدد الحاصلين عليها ونسبة زيادته (10%) غير كافيين.

كانت مَعْرِفَةُ العربيةِ، من ناحية أخرى، مفروضةً على بعض العاملين لأجل التقدُّم في الرتبة (إداري ونائب إداري للبلديات المختلطة) أو لأجل

[200] CAOM, 3 CAB 77, Lettre du GGA G. Le bureau au recteur de l'université d'Alger, 17 novembre 1937.

[201] CAOM, 3 CAB 77, Lettre du GGA G, Direction générale des affaires indigènes, Alger, 1er mars 1938, 2ème Bureau, Administration générale.

التثبيت في المنصب (محافظ محقق بالملكية الأهلية).كان مدير أكاديمية الجزائر العاصمة، يعطي رأيه للحاكم العام بهذا الموضوع:"أضيف أنه من الضروري أنْ نمتلك وسط كل جيل عددا من المعرَّبين، ضليعين أو مبسِّطين (للعامة)، قادرين على إبقاء الاحتكاك مع العالم الأوروبي والعالم المسلم، وكذلك على أنْ يكونوا مُخْبِرينَ informateurs [...]. كان عدد هؤلاء المخبرين الأكفاء، والإداريين والقضاة، القادرين تماما على فهم المتعاملين معهم والمتقاضين إليهم، يتناقص بشكل محيِّر جدا"[202]. وحسب رأيه، على المجهود أنْ يُبْذَلَ على مستوى التعليم (الابتدائي والمتوسط والثانوي) :"إذا عدَّلنا قليلا نصَّ قوانين البكالوريا، يمكننا رُبَّما أنْ نُسَهِّل التوجيه الذي نريده"، أيْ جعل العربية إجبارية إلى جانب الإنجليزية والألمانية؛ وعلى مستوى الجامعة بتسهيل دراسة العربية بسانت سير Saint-Cyr وداخل

[202] CAOM, 3 CAB 77, Lettre du recteur de l'Académie d'Alger au gouverneur général de l'Algérie.

مدارس الإدارة. ويشرح أنَّ مِنَ الضروريِّ: 1) تنظيم تعليم وسيط للعربية بين البكالوريا وبين مسابقات المدارس الكبيرة أو امتحانات التوظيف الإداري.

2) الفرض الإجباري لمعرفة العربية بالقدر الكافي بمجرد الدخول إلى الوظائف الإدارية أو القانونية الممارَسة بالبلدان العربية.

2. توسيع اللغة الفرنسية

رغم ذلك، لم تَعُدْ الجزائر في الستينيات، سِيَّما بعد عودة الجمهورية، «مملكةً عربيةً» ، وإنما «مقاطعة فرنسية» منذ تلك اللحظة. وبالتالي أصبحت الفرنسية إجبارية على نحوٍ مشروعٍ[203]. وإذا أراد الأهليُّ الاندماجَ، كان عليه تَبَنِّيَ اللغة الفرنسية للعمل أو الكتابة أو التعلم أو قضاء الحوائج الإدارية. في المدارس الريفية، كانت الجهود تُبذلُ لصالح تقدُّم الفرنسية، دون المرور بالعربية. "كانت البيداغوجيا

---

[203] النتيجة المنطقية لذلك، إعلان العربية لغة أجنبية بالجزائر، مرات عديدة (1935، 1938).
Cité dans Pervillé. Op. cit..p.25.

الأولى متمحورة حول تعلُّم اللغة الفرنسية بطريقة ملائمة: ليس بالرجوع إلى لغة الأم وإنما على نحو مباشِرٍ، بالتطبيق المتكرِّر للكلمة على موضوعها"[204].

رغم ممانعات سكان القبائل لتقنين ثقافتهم في مواجهة الثقافة العربية، كانت الإدارة تكِدُّ في إرادتها لفرنسة بلاد القبائل، يُغريها في تحقيق ذلك، المدرسةُ قبل كل شيء، و الإدارة كذلك. قرر **جول فيري** Jules Ferry، في إطار «سياسته البربرية» bèrbère، إيجاد ثماني مدارس ابتدائية بالقبائل على حساب الدولة. سُمِّيت «مدارس وزارية». وكان جهدُ الفرنسة أهمَّ وضوحا، في بلاد القبائل من بقية المقاطعة. وفي حين كانت العشيرة القبائلية بْنِي يَنِّي Beni-Yenniتملك أكثر من مدرسة بالقرية الواحدة (الأمر الذي يجعلها الأكثر تمدرسا بالجزائر في 1914)، لم تكن **فليب فيل*** بالمقابل، قد فتحت مدرسة أهلية واحدة.

[204] Goinard, op. Cit.. p.248.

* سكيكدة حاليا.

في 1906، على سبيل المثال، «وبهدف استبدال اللغة الفرنسية تدريجيا **بـ**اللغة العربية** في جميع العقود المنجزة بالقبائل»[205]، كان القضاة الموثِّقون مجبَرين على تحرير عقودهم بالفرنسية.

استفادت السلطات العمومية كثيرا من هذه السياسة في استئصال العربية لصالح الفرنسية. ولا حاجة لتحديد المصلحة السياسية البديهية لهذا التعديل الثقافي العميق: كانت النتائج لا تُعَدُّ ولا تُحْصى. وكان على هذه الفرنسة أنْ تترافق حتما مع تهميش للغة العربية، التي أصبح عليها منذ تلك اللحظة النزول إلى مجال المقدَّس، والانغلاق داخل صنف ثانوي باعتبارها لهجة محلية.

هناك في الواقع، معتقَدان لا يمكن للكولونيالية القاتلة للغات الأخرى glottophage أنْ تقتصد فيهما. الأول هو

** الباء متصلة بالمتروك.

[205] Gouverneur Jonnart au Ministre. A.G.G. G 28 rapport du 22 aout 1906. Cité dans Ageron, Les Algeriens musulmans…, p.880.

المعتقد الذي يكون المستدمَرون وفقه رابحين كل شيء بتعلمهم لغتنا، التي ستدخلهم إلى الحضارة والعالم المعاصر. الثاني يَنُصُّ على أن اللغات الأهلية تبقى عاجزة في كل الأحوال عن أداء هذه الوظيفة، وعن نقل المفاهيم المعاصرة والتصورات العلمية، وعاجزة عن أنْ تكون لغة تعليم أو ثقافة أو بحث [...] نبحث عن بيان أنَّ الْتِهَام اللغات الأخرى أمر بديهي، لا مفرَّ منه، وفوق هذا يتمناه المستدمَرون أنفسهم[206].

وكتوضيح لهذا المبدأ، يطرح **لوي جون كالفي** Calvet خطابا لـ**جورج مارسيه**، رغم كونه معرَّبا محترَما، مستخرَجا من العدد الأول من *المجلة البيداغوجية* (1931):

[206] Calvet, op. cit., pp.123-124.

من غير العملي، وغير المعقول، ومن النادر في الواقع، أنْ يتعايش لسانان حضاريان طويلا جدا في بلد واحد. حينما يحظى المتنافسون بمقام كهذا، يُعَبِّرون، على نحو ملاحَظ، عن الأشياء نفسها، وينطقونها جيدا بهذا وذاك على حد سواء، مع مبررات شاعرية مساعِدة، فإنَّ بإمكان هذا الإسراف في القوة أنْ يتمدد. ولكنْ، حينما تكون إحدى اللغتين هي لغة المسيِّرين، وتفتح الباب على حضارة معاصرة كبيرة، وتكون واضحة، ويكون التعبير المكتوب بها والتعبير المنطوق للفكر متقاربان بأقصى قدر؛ وأنَّ اللغة الأخرى هي لغة المسيَّرين، وتعبِّر في أحسن كتاباتها عن مثال من القرون الوسطى، وتكون ملتبسة، وتأخذ حين نكتب بها شكلا مختلفا عن نظيره حين ننطق بها،

فالجولة ليست متكافئة حقا: وعلى الأولى أن
تَصُدَّ الثانية حَتْمًا[207].

يبدو أنَّ السلطات العمومية، نجحت عبر سياسة رئيسية فعالة، في احتواء العربية بشكل أحسن، ضمن وضعية المُوَجِّه للثقافة الكلاسيكية، والبرهنة تبعا لذلك على عدم ملاءمتها للتقدم. في سنة 1896، أنشأ **الإخوة أحمد** (1872-1917) و**قدُّور الرودوسي** (1878-1973)، في قلب القصبة، أول مطبعة-مكتبة عربية للجزائر (*المطبعة الثعالبية*) التي أصبحت لاحقا أول دار نشر عربية. "حاجة السوق المحلية، ومنافسة المطبعة الشرقية والفرنسية (كان هناك طابِعان-مكتبيَّان-ناشران فرنسيان، متخصصان في النشر باللغة العربية قد استقرا بالعاصمة: **أدولف جوردان** و**بيير فونتانا**). كانت التقييدات الإدارية (مثل حظر بيع ونشر عدد معين من الكتب والدوريات، عبر مقص الرقابة الحكومية) تَحُدُّ مِنْ كَمِّ وكَيْفِ المنشورات. ولهذه

[207] Ibid. p.125, note I.

الأسباب، كان على الأخوين **رودوسي** بلا شك أنْ يلوذا بمجال الثقافة الكلاسيكية"[208].

3. اللغة البربرية ضد التعريب.

كان الكفاح ضد التعريب يمر عبر ترقية اللغة القبائلية*، التي سعت فرنسا إلى الحفاظ على لهجاتها المختلفة، كي لا تكون العربية في هذه المناطق لغة الثقافة أو لسان التخاطب. نُسَجِّل، مِنْ بين مبادرات عديدة مُتَّخَذة في هذا المجال، إنشاء كرسي للهجات البربرية في 1885 بدار الآداب بالعاصمة. وكانت دراسة العربية غير مشجَّعة بالقبائل بل محظورة في المدارس الفرنسية، وهما العنصران المحرِّكان لهذه «السياسة البربرية». في 1910، طلبت الحكومة العامة *تحقيقا عن توزيع اللغة البربرية بالجزائر* استثمره **فوتيي** Gautier و**دوطي** Doutté. "وهما مُدَرِّسان كُلِّفا بفرز النتائج والتعليق عليها. ولكنْ

[208] Bencheneb, loc.cit., p13.

* لا تلغي هذه الحقائق التاريخية مشروعيةَ تعلم البربري للغته ذات المضمون الإسلامي، كما يتعلم الفارسي لغته، والتركي لغته إلى جانب اللغة العربية. كما لا تعني هذه الحقائق غفلة علماء زواوة عن المشروع الاستدماري في تلك المرحلة.

لحساب الدولة، والإدارة. ليس هو بحثٌ جامعيٌّ، وإنما مشروع رسميٌّ يَتَطَلَّبُ جامعيين"[209]. وقد نتج عن التحقيق أن اللغة القبائلية في طور الاندثار لصالح العربية. وظل الكفاح ضد التعريب مُكَثَّفا. وفي سنة 1915، أُكْرِهَ القضاة-الموثِّقون على تقديم شهادة في اللغة القبائلية كي يمارسوا مهنتهم. وكثيرون هم الذين كانوا ما يزالون يعتقدون، زمن الحرب العالمية الأولى، على غرار الحاكم **لوطو** Lutaud أنَّ «الأهليَّ المعرَّب يأخذ وعيه أكثر بذهنيته الإسلامية وبالمسافة التي تفصله عنا»[210] وبالتالي كانوا يعتبرون أكثر من أيِّ وقت مضى ضرورة مواصلة استئصال العربية، سِيَّما بين سكان القبائل.

[209] Lucas et Vatin, op.cit., p46.
[210] Cité dans Ageron, Les Algeriens musulmans…, p.884.

ب. الفلسفة المسيحية والمدرسة الدينية

أُعِدَّ كلُّ شيء، لترسيخ الحضارة الفرنسية في قلب الجزائر. وباعتبار الثقافة المسيحية عنصرا مُدْمِجًا للسكان الأوروبيين، فقد"تأكدَّت تدريجيا كأداة للحفاظ على هوية فرنسيي الجزائر"[211]. ولكنْ انكشفت المسيحية أيضا، حليفا ضروريًا، في مواجهة الإسلام، ستستفيد منه السلطات العمومية. وقد لعبت المدارس الدينية* (اليسوعية، اللعازرية Lazariste، الآباء البيض، اليهودية...) تحديدا، دورا مُهِمًّا في تكوين 5000 مسلم، واعتبرَتِ السلطةُ الجمهورية والعَلمانية حركةَ المبشِّرين مفيدةً، تلك السلطة التي كانت تُقدِّر المضمون الأخلاقي للقيم المنقولة عبر هذه الحركة وكذا مضمونها الفرنسي. ومع بداية الملاحَظة لفشل سياسةِ الفرنسةِ عبر المدرسة بالقبائل، قَصَدَ البعضُ،

[211] Benjamin Stora, Histoire de L'Algerie coloniale (1834-1954), Paris. La Découverte. Repères. 1991, p. 35.

* بالمقابل، شَهِدت المدارس الحرة (الإسلامية) التي لم تتوقف يوما، انطلافة كبيرة منذ سنة 1920 وتعرَّضت كثيرا للإغلاق والمضايقات من الاستدمار الفرنسي. (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 238/6-264. طبعة البصائر2009. وكذلك: د.تركي بن رابح. التعليم رالقومي والشخصية الوطنية. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. 1975)

على نحو جِدِّيٍّ، المساعدةَ التي قد تقدِّمها «الفلسفة المسيحية» لأجل تفجير الوحدة الجزائرية. وهكذا، يشرح الصحفي والماسوني العاصمي (الجزائري) **أندري سرفيي** André Servier قائلا :"لم تنجح المدرسة العَلمانية أبدا؟ لِنَتْرُكِ الآباءَ البيض يتحرَّكون، والبربر ليسوا رافضين ألبتة لاعتناق دين آخر...فقد احتفظوا من ماضيهم المسيحي واللاتيني بموروثات [...] لست أبحث أبدا عن ممارسة التبشير الديني. فليس هذا متوافقا مع مبادئي، ولا مع تكويني الفكري. إنها مسألةُ انتهازيةٍ، تصبح المبادئ فيها ثانوية"[212].
مع الحرب العالمية الأولى، كانت الدولة قد أرخت قبضتها عن الكنيسة ولانت الإجراءات المناهضة للإكليروس. تضاعفت المدارس الحرة سريعا، وتزايدت التجمعات الرهبانية أكثر فأكثر، بحيث بلغت الطائفةُ الكاثوليكية لأفريقيا، من غير إبطاءٍ، ديناميةً

[212] Cité dans Ageron, Les Algeriens musulmans…, p.887.

كبيرة، يتمثل رمزُها في بناء الكنيسة الحديثة في القلب المقدس للعاصمة.

ج. المدرسة الجمهورية، والعَلمانية، والمجانية والإجبارية

1. أهمية سياسية

مع مجيء الجمهورية العَلمانية والإدماجية، عرفت السياسةُ الثقافية لفرنسا تطوُّرا جوهريا. فقد أصبح سلاحها الرئيسي ممثَّلا في التعليم المجاني والإجباري للجميع (1881 و1882)، بمَنْ فيهم الأهالي[213] الذين كان عليهم تعلم لغة الدولة المستدمِرة وثقافتها، والتحول كذلك إلى مواطنين صالحين. هذه الأداة الثقافية، هي حسب **لوي ألتوسير** "الجهاز الإيديولوجي المهيمن *في التشكلات الرأسمالية الناضجة*"، المعوِّض للجهاز الإيديولوجي القديم للدولة المهيمِنة ممثَّلا في الكنيسة. "فهو يغرس في ذهن الطفل [...]، المحصور بين جهاز الدولة -العائلة وجهاز الدولة -المدرسة، مهارات ملفوفة داخل

[213] تدهورت المدارس العربية-الإسلامية نتيجة انعدام الوسائل، عندما أشاعت الجمهورية التعليم البلدي. وقد قررت السلطات العمومية وقفها في 1883.

الإيـديولوجيا المهيمِنــة (الفرنسـية، الحســاب، التــاريخ الطبيعي، العلوم، الأدب)، أو بكلٍّ بساطة الإيديولوجيا المهيمِنــة فــي حالتهــا الخالصــة (أخــلاق، تعلـيم مـدني، فلسفة)"[214]. في حال الشباب الأهلـي، يمكننـا القول، أنَّ بالنظر إلى الجانب الثقافي لهذه القيم الجديدة التي عليهم إدماجهـا لتعـويض ثقـافتهم الخاصــة، أصـبح «الجهـاز الإيـديولوجي لــ الدولة/المدرســة» فعـلا أداةً للسياســة الثقافيــة. "وأصــبح التعلـيمُ أداةً سياســيةً فــي خدمــة الاسـتدمار، وكـان **جونــار** نفســه، يعلـن أنَّ «المدرسـة الابتدائيـة التـي هـي بفرنسـا حجـرُ أسـاسٍ للجمهوريـة، تُشَكِّل بالجزائر قاعدة هيمنتنـا»[215]. بالإضـافة إلـى هذا، سـتثبت السـلطات بالحاضـرة الفرنسـية هـذه النظريــة، بمنافستها للحكومة العامة على التحكم في التربية العامة التي أفلتت أخيرا من الحماية العسكرية.

---

[214] Althusser, "Idéologie et appareils d'Etat". La pensée. n°151, mai-juin 1970. p.20.
[215] Ageron, Les Algeriens musulmans…, p.943.

كشفت القوى المنشِّطةُ لـ «النظام الاستدماري» مصالحَها وسلطاتها الحقيقية، بتنازعها على التحكم في جهازٍ تربويٍّ، أصبح رهانا كُلَّما اتسع النظام المدني، وتزايد نمط الاستغلال الاقتصادي، واتضح الغزو الثقافي. تُبَيِّن التسويات المحقَّقة حول سلطة حيادية وغير مسيَّسة مبدئيا، أنَّ «الثقافي» في السياق الجزائري، عشية الحرب العالمية الأولى، كان يُشكِّل سَلَفًا، مسرحًا وأداةً سياسييْن[216].

بوساطة المدرِّسين، فرسان المدرسة الجمهورية، أصبحت هذه الأخيرة سلاحًا سياسيًّا، من حيثُ نشرُها لقيم الوطنية والمدنية، لأجل صناعة مواطنين في صَفِّ مُثُلها. كان على المدرِّس أنْ يُمَجِّد الوطنية الفرنسية، ويزرع حُبَّ فرنسا. يقول مدير **بوزريعة** «الحقيقة، أنَّنا تحت لون التاريخ، نُقدِّم دروسا في الوطنية الفرنسية، خُطَبًا عَلمانية تمجِّد شرف فرنسا»[217]. أوكِلت للمدرِّسين مهمةُ إقناع الأهالي، وجَرِّهم إلى أنْ يختاروا

[216] Vatin. "Exotisme… ", p.180.
[217] Ageron, Les Algeriens musulmans…, p.956.

حماية فرنسا لهم بملء إرادتهم. باختصار "عملوا، كما كانت تفرض تعليمات سنة 1890، ليس «لتخريج رعايا خاضعين وإنما لتربية مواطنين يَقْبلون بسلطة الجمهورية»"[218].

2. الكُتَيِّبات المدرسية

كانت الكُتَيِّبات المدرسية تُكَمِّل عمل المدرِّسين. وظلت، فترة طويلة، مدحا للإمبراطورية والعمل المنجَز، فحسب. كانت تُجَلِّي الكرَم الفرنسي، وبطولة جنرالاته وشجاعة جنوده. كانت تصف التقدم الحاصل وتشرح حسناته. كانت الكُتَيِّبات وطنيةً (فرنسية) وأخلاقية وعليها أنْ تثير الإعجاب والاحترام لدى الأطفال:«لا يوجد شعب مثلُ الفرنسيين، يملك أعلى درجة من الصفات اللازمة لتأسيس مستدمَرات، كروح المغامرة والطاقة والاستعداد لتحسين الصورة بين الأهالي، والبشاشة الصامدة في وجه كل مكروه، وعدم

---

[218] Rapport du sénateur Combes sur l'Instruction primaire des indigènes, annexe n°50 à la séance du 18 mars 1892. Cité dans Ageron, France coloniale…, p.198.

الاكتراث بالتعب والخطر» هذا ما كان يقوله، على سبيل المثال، **لوجاليفاير** le Jallifer و**فاست** Vaste لسنة 1884[219]. بعد الحرب العالمية الأولى، ومع تطور الموقف العام من الأهالي وارتفاع عددهم في مقاعد المدرسة الفرنسية، بدأت الكُتَيِّبات في إعادة صياغة أحاديثها وإضافة أجزاء جديدة. "أصبحت إنسانيةً، تؤكِّد منذ ذلك الحين، على المنافع التي يكسبها السكان الأهالي"[220]؛ وبينما كان جميع خصوم فرنسا قد تحوَّلوا إلى موضوع للسخرية، "عبد القادر وحده، «أصبح صَدِيقًا* لفرنسا» و«مُنْقِذًا لمسيحِيِّي لبنان»، كان له الحق في إجلالات شِبْه مجمع عليها"[221].

3. المثال الإدماجي assimilationiste

إن المثال الإدماجي، هو الذي كان يشكِّل قاعدةً للمدرسة الجمهورية، وهكذا فهمه من أنشأوه، كما

---

[219] Jallifer et Vaste, cours supérieur. 1884. Cité dans Ibid..p.243.
[220] Ibid. p.244.
* كان الأمير عبد القادر يعتبر نفسه صديقا للفرنسيين "الذين استقبلوه و احتكوا به و اكتشفوا نبله وشجاعته وأخلاقه، ولم يكن صديقا لفرنسا الاستعمارية، وهو الذي قاد خلال 17 سنة من الجهاد 116 معركة وواجه 142 جنرالا فرنسيا. ولولا الخيانات الداخلية الكثيرة وخذلان سلطان المغرب له ما كان ليضع السلاح.
[221] J.Gulot et Fr. Mane, Histoire de la France depuis les origines. 57 ème leçon. Cité dans Ageron, France coloniale…, p.240.

تُوَضِّح الكلمات غير الملتبسة للسيناتور **كومباس** Combes حول التعليم الابتدائي للأهالي (1892): «أكبرُ مِنَ القوة، أشدُّ مِنَ المصلحة، وأعظمُ من اللذة المادية، سيكون لتعليم الأهالي -وأقصد بالتعليم الابتدائي، تعليم عامة الشعب- هذه الفعالية في تقليص المسافة، وجعلهم يحيون بالمفاهيم نفسها، وتعويدهم على اعتبار أنفسِهم أعضاءً من العائلة الإنسانية نفسها، والأمة نفسها، والتعامل مع ذواتهم وفقا لذلك». لأجل هذا، على أطفال الأهالي أنْ يَتَلَقَّوا تعليم الفرنسيين الصغار نفسِه[222]. أُعيدَ النظر في المُثُل الإدماجية الجمهورية، المحدِّدة لوظيفة المدرسة الابتدائية، مع بداية القرن، بسبب تقدُّم التشارك association، ولكنْ أيضا، للخوف من رؤية السلاح ينقلب ضدَّ مستعمليه، والأوروبيين وقد أصبحوا مرهقين، بسكان أهالي أكثر تشبعا بالقيم الجمهورية مِنْ أنْ يقبلوا مبادئ النظام الاستدماري. كان الرأي الكولونيالي، إضافة إلى ذلك،

[222] Rapport du sénateur Combes sur l'instruction primaire des indigènes, annexe n°50 à la séance du 18 mars 1892. Cité dans ibid., p.198.

القريب أكثر من مُثُل التشارك، مصدوما جدا بهذا "التعليم الابتدائي على الطريقة الفرنسية، المقدَّم أساسا من مدرِّسين قادمين من فرنسا ضمن التقاليد الجمهورية الداعية للمساواة والإدماج". في سنة 1907، من بين 392 مدرِّسا ومدرِّسة بالمدارس الأهلية للجزائر، كان 77 فقط منحدرين من المستدمَرة، بينما كانت النسبة معكوسة في المدارس الابتدائية المخصَّصة للأوروبيين.

شهدت المدرسة، مع تطور السياسات الاستدمارية والمُثُل المُلْهِمة لها، بعضَ التعديل في شكلها وأهدافها. «على فرنسا القومية، التي أصبح العلمُ فعلَها الوطني الوحيد منذ الآن، أنْ ترفع بنفسها مِثَالَ الإنسانيات الدنيا، التي تولَّت هي قيادتَها وحمايتَها. ولكنْ، على هذه الحماسة السخية أنْ لا تُنْسِيَنا الواقع. لِنُحْسِنْ عملية التناسب بين الثقافة وبين قدرات تلاميذنا»[223]. بعد الاستقلالية المالية ورحيل رئيس

---

[223] Messimy Cité dans Meynier et al., op. Cit.. Tome II, p.33.

الجامعـــة **جونمـــار** Jeanmaire، وتعـــديل السياســـة الكولونيالية ضمن منظور أقل إدماجا، لم تعد مدرسة الأهالي تستهدف الثقافةَ العامة على الطريقة الفرنسية وإنمـا بـالأحرى، التكـوين التقنـي. وكُيِّفـت المـدارس الريفية مع الأهالي، رغم أنَّ القطيعة لم تكنْ تامة مع المدارس الكلاسيكية. بالمجمل، كانت تحتوي تعليما قاعديا، تُضاف إليه تقنيات زراعية وحِرَفية ومفاهيم فـي الصحة. فـي سنوات العشرينيات، وبعد الفشل المطبوخ لـ "المدارس-الأكواخ" écoles-gourbis، وجدت السلطات طريقا وسيطا عبر تربية عامة مكيَّفة، يقدمها مُدَرِّسون تَلَقوا تكوينا خاصا. في النهاية، ورغم تطوُّر السياسة المدرسية الفرنسية، فقد ظلت التربية، أيًّـا كـان أساسُـها الإيـديولوجي، الفكـرةَ المرجـعَ فـي السياسة الثقافية لفرنسا الاستدمارية.

4. تكوين أساتذة فرنسيين وأهالي.

كان المُدَرِّس جزءً من كيان النخبة في السياسة الثقافية المدرسية. لأجل هذا كان يتلقى تعليما خاصا، متكيِّفا مع تربية الأهالي. وكان ثقله عظيما لدى السلطات العمومية على قدر محبته واحترامه، حتى داخل الأعماق البعيدة للجزائر. كان موضع ثقة ويحظى بالإنصات له، لأنه لم يكن أستاذ مدرسة فحسب، وإنما بنَّاء، ونجَّارا، وطبيبا-ممرِّضا، وبيطارا وبستانيا أيضا. كان يُعَلِّم القراءة والكتابة والحساب، يُقَدِّم دروسا في الأخلاق والتاريخ والجغرافيا والتعليم المدني. كان يُدَرِّس كذلك الصحة والزراعة، وكان، في الغالب، سكرتيرا بالبلدية وكاتبا عاما. وكانت دار مصطفى للمعلمين، التي نُقِلت إلى بوزريعة سنة 1888، مِشتلةَ هؤلاء المدرِّسين الكولونياليين. وقد أُنشِئت دُورٌ أخرى فيما بعد بقسنطينة ووهران؛ وكان هناك 8 منها في سنة 1959.

كان يوجد منذ 1891، ‹‹فرعٌ أهليٌّ›› تحوَّلَ لاحقا إلى ‹‹الفرع الخاص بتكييف المدرِّسين الفرنسيين مع تعليم الأهالي››: كان مدرِّسو الحاضرة الفرنسية يتلقون بها تكوينا مكمِّلا لمدة سنة متكيِّفا مع ظروف البلد. كَوَّن فرعٌ مخصَّص للأهالي 800 مُدَرِّس أهليٍّ، معظمهم قبائليون*، بين سنة 1883 و1924، تاريخ انصهار الفرع الأهليِّ مع الفرع المخصَّص للأوروبيين. وقد كان هؤلاء المدرِّسون محلَّ تقدير خاص. إذ مَنْ بإمكانه أنْ ينقل أحسن منهم، هذا الحب للوطن الجديد ولحضارته إلى الشباب الأهالي، الذين يُمَثِّلون الدليل الحيَّ على تكيُّف ناجح. يتحدث الأستاذ **إيبازيزن**** Ibazizen (كاتب ومحامي مستشار للاتحاد الفرنسي

---

* لم يكن كثير من هؤلاء المدرَّسين القبائليين مدركين للسياسة الثقافية الفرنسية، وتاريخ بلاد القبائل في الجهاد الثقافي والعسكري ضد الاستدمار الفرنسي حافل بالبطولات الخالدة.

** ولد في 17 ماي 1897 بآيت الأرِبعاء (بني ينِّي) وتوفي بباريس في 10 نوفمبر1980. كان آخر منصب شغله هو عضو بمجلس
الدولة الفرنسية (1953-1958).

IBAZIZEN (Augustin-Belkacem), *Le pont de Bereq'Mouch, ou Le bond de mille ans*, Paris, La Table ronde, 1979, et *Le testament d'un Berbère. Itinéraire spirituel et politique*. Préface de Réné Rémond. Paris, Albatros, 1984.

أعلن أوغسطين بلقاسم **إيبازيزن** أنه اختار لنفسه اسم أوغسطين المسيحي وألَّف سيرة ذاتية برَّر فيها لماذا بدَّل اسمه ودينه رغم أنه من عائلة إسلامية معروفة. أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 431/6، 186/8 . طبعة البصائر2009.)

وأوَّل جزائري في مجلس الدولة) عن أبيه، الذي كان تحديدا أول طالب-أستاذ، قبائلي، بالمدرسة الفرنسية الأولى لبلاد القبائل: «ما كان يُدَرِّسُه، تَمَثَّل أوَّلا في فرنسا، وإجمالا، لم يَحْدُث التوغُّل إلا لاحقا. فقد تملَّكَهُ حبُّ رأسمال فرنسا الثقافي، وقُوَّتِها المادية، وإشعاعِها الفكري، وهو في ريعان شبابه، مقارنةً مع بلاد القبائل الفقيرة والشاحبة والجاهلة. كان يتمثَّلُها ويشعر بها في أعماق نفسه. كان يراها مثالية عبر أساتذته الأوائل وتعليمهم له [....]»[224]. وكدليل على الأهمية الممنوحة من السلطات العمومية للمدرِّسين سيما، المدرِّسين الأهالي، سنحتفظ بالسفر إلى باريس الذي أهدته الحكومة العامة للفوج الأول من المدرِّسين الأهالي في 1889، سنةَ المعرض العالمي، التي عادوا منها جميعا «وبرجُ إيفل في جيوبهم، منبهرين، مسحورين إلى الأبد»، كما كانوا يقولون هُمْ أنفسهم[225].

[224] Cité dans Paulette Dechavanne. "Conférence prononcée le 24 octobre 1992 à Aix-en-Provence", L'Algerianiste, p.12.
[225] Cité dans ibid., p.12.

5. اختيار نخبة: مِنَح التعليم الثانوي.

كان النظام المدرسي يُهيِّئ لصناعة نخبة مغرَّبة، تكون «وسيطا ثقافيا وسياسيا»[226] لدى السلطات الكولونيالية، وتُسَاهِمُ عَبْرَ حركة عميقة داخل مجتمع تقليدي، في بسط الرضى بالوجود الفرنسي ونَشْرِ قِيَمِه. كُوِّنت هذه النخبة، القبائلية أساسا، في غالبيتها ضمن الشُعَب «المتوسِّطة» الفرنكفونية أو مزدوجة اللغة، وفي معظم الأحيان بفضل مِنَح تُقَدِّمها السلطات العمومية التي وجدت في ذلك، أكثرَ الوسائل فعالية لانتقاء الأهالي المراد وصولهم إلى قمة الهرم الاجتماعي. وكان مرسومٌ صادر سنة 1886، يُمَكِّن فعلا السلطات العمومية من تجاوز شروط الاستحقاق الأكاديمي والضرورة المالية، للموافقة بلا امتحان «على عائلات قدَّمت خدمات مُنَوَّه بها لفرنسا». عشية الحرب العالمية الأولى، كان الحاصلون المئة والخمسة والعشرون على مِنَح الثانويات، أبناءٌ لأغواتٍ أو قيادٍ.

---

[226] Dominique Glasman et Jean Kremer, Essai sur l'université et les cadres en Algérie, Paris, Ed. du CNRS, 1978. p.17.

"رُفِعَ القرضُ الموجَّه إلى ميزانيةِ الشؤون الأهلية والمخصَّص لمنح التعليم الثانوي، بشكل كبير، من سنة 1904 إلى سنة 1914، بهدف تقوية «برجوازيةٍ محافِظة» تحت حكم **جونار** (1903-1911)"[227].

ساهمت المِنح بعد الحرب في مكافأة كلِّ المساعدين الأهالي الموالين: باشاغات، وأغوات، وقياد، وعسكريين، ورجالا للقضاء وللشعائر الإسلامية،.ومترجمين، ومدرِّسين، ومساعدين طبيين.

227 Pervillé, op. cit., p.32.

د. التعليم العالي.

في سنة 1879، أنشأت فرنسا بالجزائر مدارس عليا للحقوق والآداب والعلوم. إنَّ تشييد مدارس لا تمنح شهادة الدولة التي تُقَدِّمُها الكُلِّيَات، كان يستجيب رسميا لحاجات خاصة بالجزائر. ولكنْ يبدو أنَّ لهذا القرار محفزاتٍ سياسيةً على وجه التحديد. وحسب **ج.ك.فاتان** Vatin، فقد "كانت تختفي وراء الخطاب الرسمي، بلا شك، رغبة الجامعيين والسياسيين بفرنسا، ليس فقط في عدم استعجال أيِّ شيء، وإنما في تجنب الموافقة، السريعة جدا، على استقلالية التعليم العالي الجزائري"[228]. وطيلة عشرين سنة مضت، ظلت طلبات متكررة، حبرا على ورق «دفنتها مكاتب باريس» المنشغلة بتفادي انفكاك الجزائر شيئا فشيئا. بإجبارنا للشباب الراغبين في مواصلة تعليمهم العالي، على الالتحاق بفرنسا، كنا شبه متأكدين من ضَمِّهم إلى صف القضية. "كانت الحكومة نفسها حذرة من

[228] Vatin. "Exotisme… ", loc. cit., p.165.

الاستيطان البشري، هذه الإيديولوجية التي كانت تزدهر بالأرض الجزائرية تاركة وراءها شعارات انفصالية. كان الرابط المثَبَّت بين الجامعات الفرنسية ومدارس الجزائر، مِثْل إبقاء التحكم المباشِر للوزير الفرنسي، يُشكِّل ضمانةً قوية على عدم حصول أيِّ شيء دون موافقته"[229]. وقد تأخر في الوقت نفسه، إنشاءُ التعليم العالي بالجزائر، بسبب الإرادة السيئة للمستدمِرين colons، الذين لم يكونوا يُحبِّذون نَصْب الحاضرة الفرنسية لجهاز إيديولوجي رقابي على الأرض الجزائرية.

---

[229] Ibid., p.165.

هـ . الجامعة والبحث: الأسس الإيديولوجية للحضور الفرنسي.

1. الجامعة، «جهاز إيديولوجي للتحكم».

لم يكن تنظيم التعليم العالي، كما سنرى، غريبا عن إرادة حكومية تتوخى تحويلَه إلى ملحق سياسي وإيديولوجي. في هذه الفترة، كانت فرنسا قد بدأت تنظر على نحو مغاير للتعليم العالي، الموصول منذئذ، بالبحث الذي كانت تشجِّعه مختارة داخل هيئة الأساتذة. ولأنَّ هذا البحث الجامعي، كان مُنْتَجا ضمن سياق سوسيو-ثقافي ومؤسَّسي محدَّد، فقد كان متشبِّعا كثيرا بالإيديولوجية المهيمِنة المحدِّدة له جزئيا على الأقل. إذ فرضت السلطة خَطًّا توجيهيا على الباحثين. وعلينا أنْ لا ننسى، أنَّ التعليم العالي كان تحت مظلة وزارة التربية الوطنية، التي كانت تختار المحاضرات وتعيِّن الأساتذة وتقدِّم القروض. باختصار، بقيت الدولةُ المدبِّرَ الأكبرَ، وكان يبدو عاديا أنْ لا تشجِّع إنتاجَ علم قدْ لا

يخـــدم مصـــالحها. "فقــد دُعِـــيَ **أوغســطين برنـــار** Augustin Bernard، أستاذ بالسوربون والممثِّل، نوعا ما، لــ «مدرسة الجزائر» أو روحها في تلك المواقع (وهو جغرافيٌّ كذلك)، إلى المحافظة على النظام عبر رسالةٍ، لأنه ذَكَرَ إحصائيات غير مطابقة لإحصائيات الحكومة العامة"[230]. يمكننا أنْ نقول : إنَّ البحث كان محدَّدا بإطارٍ مُوجِّهٍ لاختيار الموضوعات، بل للمعنى الواجب إعطاؤه للنتائج، أحيانا. كان التعليم العـــالي «جهـــازا إيـــديولوجيا للـــتحكم»[231] تســـتعمله الإيديولوجيـــة المهيمِنـــة لنقـــل "افتراضـــاتها الأوليـــة"، وشـــرعية قوتهـــا، وأمنهـــا الخـــاص بهـــا واســـتحقاقها لذلك"[232].

أدرك جزءٌ من الأقدام السوداء جيدا هذه الإرادة، في الهيمنة سياسيا على الحياة الثقافية والإنتاج الفكري، التي كانت ترى أنَّ من غير العاديِّ «تجاهلُ المداخل

---

[230] Vatin. L'Algérie politique…p.31.
[231] Vatin. "Exotisme… ", loc. cit., p.182.
[232] Vatin. L'Algérie politique…p.50.

والمخارج، تحديدا»[233]. بصدمة هذا الجزء من " نجاح أساتذةٍ في الدخول إلى الحكومة العامة، أو مِنَ التَوَجُّه مباشَرة إلى المكاتب الباريسية"[234]، فقد عارض إذن، تطوير هذه الجامعة التي "كان أساتذتها المعيَّنين من الوزارة، مستعِدِّين لنشر إيديولوجيات موافقة للموضة داخل النوادي الباريسية"[235]. كان ينتقد بحيوية هذه اليعقوبية التي عجزت مؤسسة البعثات عن تلطيفها، بحكم أنَّ باريس تحافظ على مراقبة التعليم العام المنفلت من التحكم العسكري. مع أنَّ الجامعيين المنحدرين من النظام الكولونيالي (أي أولئك المولودين بالجزائر)، كانوا قد توصلوا إلى النتائج نفسها، دون قصد وبوساطة مقاربة مختلفة:

> يدفعهم تبشيرُهم بالحضارة، وإيمانُهم بالمساواة الجمهورية، إلى إدراك العلاقات بين الإثنيات، أو بين الجماعات، أو بين

---

[233] Vatin. "Exotisme… ", loc. cit., p.174.
[234] Ibid., p.174.
[235] Ibid., p.174.

الحاضرة ومستدمَراتها، بمفردات التقدم والترقية، والإدماج عبر التعليم، والمثاقفة. [...] بالعمل على جَرْدِ «المناطق المتخلفة» وتفسير حالتها [...] هم يعتقدون خدمة قضية نبيلة. [...]ولكنَّهم في الأفعال، يُدعِّمون لا شعوريا مشروع خلخلة البنى الثقافية المباشَر على المستوى نفسه، رفقة التفكيك الاقتصادي والتفجير الاجتماعي.[236]

وهكذا، "أصبح تنظيمُ تعليمٍ عالٍ للآداب تجربةً كانت فرنسا أول من استفاد منها"[237]، بطريقة أو بأخرى، بشكل مباشر أو غير مباشر. ورغم، احتشام الإصلاحات المنجَزة، كان البعض قد فهم سلفا الأهمية السياسية، وكذا الثقافية لبنى كهذه في المستدمَرة الجزائرية. في سنة 1909، أصبحت المدارسُ كلياتٍ، وبهذا عزَّزت موقعها « كمُنَاوب في المسار الثقافي

236 Lucas et Vatin, op.cit., p36.
237 Esquer , loc. cit., p.35.

القيادي»[238] : "عندما أعقبَ روحَ الغزوِ، الغزوُ عبر الروح، وما كان ذيلا فَحَسْب لآلية للهيمنة.. أصبح مَنْجَمَها فجأةً"[239].

2. أفريقيا اللاتينية.

في هذه الفترة، ظل الموضوع الرئيسي المفضَّل، بلا شك، لدى النخبة المثقفة، هو بعث أفريقيا اللاتينية عبر علم الآثار ودراسة النقوش والتاريخ. كان هذا الولَهُ مُدعَّمًا ومَرْعِيًا مباشَرة من السلطات العمومية، التي أَوكلتْ انطلاقا من سنوات 1880 "تنظيمَ [...]، البحث، وحفظَ الوثائق الأثرية واستكشافها"[240] إلى مدرسة العاصمة، ثم إلى كُلِّيَتها اللَّتين استعملتهما قاعدةً لإعادة إدماج الجزائر في ماضٍ أوروبيٍّ. وهكذا، "واصل تأريخ جامعي تقليدي بالجزائر،، وريثٌ مباشِر للتأريخ الفرنسي، بحثًا هامشيًّا جدا في الظاهر، ولكنَّه جوهري في أهدافه. كانت تسعى لاسترجاع جزائر

---

[238] Vatin. "Exotisme… p.182.
[239] Ibid., pp.161-162.
[240] Esquer , loc. cit., p.19.

الماضـي البعيد، جزائـر مـا قبـل سـنة 1830، وإعـادة إدراجهـا ضـمن تطـوُّرٍ مـا، بتقريبهـا تـدريجيا إلـى فرنسا"[241]. لقد كانت نظرية أفريقيا اللاتينية، موضوعَ الساعة وأكثر من أيِّ وقت مضى. كان المؤرِّخون وعلماء الآثار يشيِّدون بنيانا صلبا، تَشُدُّ أُسُسُه بعضُها بعضا، مُمَثلَّة بالأطالس الأثرية والمتاحف وكتب التاريخ. ولإتمام هذا الإنجاز، كان يجب، وبأقصى ما يمكن، تعزيز الانطباع بلا تاريخية، جزائر عربية-إسلامية متحجِّرة داخل ركودٍ معادٍ للتقدم. كان الفرنسيون يُلِحُّون على اللاَّوجود التاريخي لكينونة ثقافية وسياسية جزائرية سابقة للغزو، مستغِلِّين في هذا، غيابَ آثار مكتوبة عن ماضٍ «وطني»، لم يزده نقصُ الانسجام العربي-الإسلامي وضعف الوعي الوحدوي*، المميِّزان للجزائر، إلا تأكيدا. بإثبات السلطات العمومية لاهتمامها الموجَّه إلى تاريخ الجزائر القديم، استمرت في دعمِ مختلف أطر البحث.

[241] Vatin. L'Algérie politique…pp.25-26.

* أنظر هامشنا ص 34.

في سنة 1926، حصل رئيس الجمعية التاريخية الجزائرية (**د.لوسياني** Luciani، المدير السابق للشؤون الأهلية) على مساعدة من حكومة **فيوليت** العامة لأجل دعم هذه المؤسسة.

وينبع هذا الاهتمام المؤكَّد مجدَّدا، لأفريقيا الرومانية، من واقع أنَّ فرنسا كانت تجد دائما في نتائج بحثها العنصرَ المشرعن، الذي لا يمكنها الاستغناء عنه، ولكنَّها رأت فيه أيضا، عنصرا ممتازا لإدماج مختلف السكان الأوروبيين المعَمِّرين للجزائر. مكَّن علمُ الآثار اللاتيني السلطاتِ، من العثور على عَرْضٍ لمظاهر العداء التي كانت تُشتِّت المجموعة الأوروبية نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. كانت النتائج السياسية لهذا المشروع الثقافي بديهية، مرة أخرى. كان الانشقاق الداخلي للمجموعة الأوروبية، يمثِّل خطرا كبيرا محدثا لاضطرابات ومربكا للديمومة السياسية. ولعلاج ذلك

> هنـــاك مشـــروع [...] عليـــه أن يســـهِّل الانصهار بين جميع الإسهامات القادمة من المتوسـط الغربـي، الفرنسـي والإيطـالي والإسباني. وجاء بعث ثقافة لاتينية بهذا الصـدد لإعـادة الربـاط [...] مـع الغـزاة الرومان، المقلَّدين رتبة الغزاة النموذجيين. كـان تسجيل مخطـط النصـب التذكاريـة القديمة، وإطلاق دراسة النقوش اللاتينية، وفتح حملات التنقيب، يعني إعادة الانتماء اللاتيني الأصلي لأفريقيا الشمالية. كان يعني على وجه الخصوص تقديم سلالة، أو شجرة نسب، للبوتقة الجزائرية، واستبدال سـلف أسـطوري مشـترك بالأسـلاف الحقيقيين للوطنيات المختلفة [...][242].

تُؤَكِّد مُذَكِّرة داخلية من الحاكم العام مؤرَّخة في 6 جـانفي 1924، مخصَّصـة لعلـم الآثـار، أهميـةَ الآثـار

[242] Ibid., p.39.

القديمة والفنون الجميلة. «تشهد جميعُ الآثار القديمة المنثورة على التراب الجزائري، والكثيرةُ على الحدود التونسية خصوصا، على الدور المهم الذي لعبته أفريقيا في العصور القديمة (...). انشغلت الإدارةُ الجزائريةُ دائما باستخراج هذه البقايا من الحضارات القديمة، والحفاظ على ذكريات الماضي»[243]. والأمثلة الموضِّحة لهذا الاهتمام عديدةٌ. ففي سنة 1927، مثَلا، أوصى الحاكمُ العام مديرَ الآثار القديمة الجزائرية، بـ **م. باسمار** Passemard الذي كان يباشِر دراسة عن تطور الإنسان في الحوض المتوسط. تحصَّل هذا الأخير من الحكومة العامة بالجزائر على تسهيلات متعدِّدة، سِيَّما تخفيضات مهمة في سعر التنقلات ودعم بـ 10000 فرنك[244]. إنَّ هذا السخاء الحكومي مفهوم، إذا علمنا أنَّ شرط السلطات تَمَثَّل في "بقاء اكتشافات **م.باسمار** إنْ حقق شيئا منها، مِلكًا للحكومة العامة

---

[243] CAOM, 56 S/1.

[244] CAOM, 56 S/1. Monuments historiques (1875-1928). GGA. Cabinet du gouverneur général-Recommandation. 26 février 1927.

بالجزائر"[245]. هو يُوضِّح الإرادة في الاستيلاء على الموروث الأثري. ضف إلى هذا، أنَّ تقنين مجال النُصُب التذكارية التاريخية بالجزائر كان محل جميع الاهتمامات. وقد ضمِنت حمايتَها بمرسوم سنة 1925[246] ويُلاحَظ المشاركة المهمة أكثر فأكثر للسلطات السياسية (حاكم عام، وزراء باريسيين) في مجال النصُب التذكارية والآثار القديمة. كثيرٌ من القرارات اتُخذت بواسطتهم أو بموافقتهم، الأمر الذي يبرهن على الأهمية التي يولونها لهذه المسائل.

بباريس، إضافة إلى هذا، كان يُشَجَّع بكل سرور هذا الاكتشاف الجديد لأفريقيا اللاتينية. ولحظةَ الذكرى المئوية، لم تكن الآثار القديمة قد فقدت أهميَّتَها السياسية. على العكس من ذلك، كانتْ أحدَ العناصر الجوهرية للسياسة الثقافية لفرنسا بالجزائر، وأكثر من

---

[245] CAOM, 56 S/1. Monuments historiques (1875-1928). GGA. Cabinet du GGA. 23 novembre 1928.

[246] تمتلك الإدارة بهذا الشأن إجراءيْن رئيسيْن: تصنيفها ضمن النصُب التاريخية ومصادرة الملكية لأجل المنفعة العامة. والحاكم العام هو الذي يعلن التصنيف «بعد رأي لجنة النصُب التاريخية المستقرة بباريس». فيما يخص الجانب الإداري، سنحتفظ بإنشاء مصلحة النصُب التاريخية سنة 1880. ورغم ارتباط كبير المهندسين والمهندسين العاديين الثلاث، الذين تتكون منهم المصلحة، بالحكومة العامة سنة 1898، فهم «يُعَيَّنون من وزير التربية الوطنية ويوضعون في خدمة الحكومة العامة». ومديرية الآثار القديمة هي التي «تسيِّر الجزء العلمي من التنقيبات»، يعيَّن مدبرها من الحاكم العام.

أيِّ وقت مضى. حَجَزَت المتاحفُ الكبرى المنشأة بالجزائر، في هذه المناسبة، مكانا مهما لـ «آثار ماضينا، وبقايا الهيمنة الرومانية، التي تُمَثِّلُ بعض الشيء ألقابَ شرفنا»[247]. وافقتِ الحكومة العامة على دعم بـ5000 فرنك لإدارة الآثار القديمة للمشاركة في مؤتمر دولي لعلم الآثار سنة 1929، محدِّدةً أنَّ : " المرجُوَّ هو أنْ يشارك ممثِّلٌ في مؤتمر برشلونة ويُعَرِّف علماء الآثار الحاضرين مجتمعين، ببرنامج الذكرى المئوية، بهدف التحضير لإنجاحه"[248]. في السنة اللاحقة، منحت المحافظة العامة للذكرى المئوية دعما بـ 100000 فرنك لجامعة الجزائر لأجل تنظيم مؤتمر للجمعيات العلمية[249]. ساهمت إعادة التأكيد على انتماء لاتيني أصلي، بشكل ضمني وفعال، في الكفاح الثقافي ضد الهوية العربية الإسلامية، التي كان على

CAOM, 40 S/1. Note sur le service des Beaux-arts.
[247] CAOM, 64 S/51. Commissariat général du centenaire de l'Algerie, L'œuvre du centenaire.
[248] CAOM, 56 S/1. Monuments historiques (1875-1928). GGA, Intérieur et Beaux-arts, Alger le 21 Aout 1929.
[249] CAOM, 64 S/62. Le Commissariat général du centenaire à Monsieur le recteur de l’académie d’Alger, Alger, 12 novembre 1930.

فرنسا كما رأينا في مقدمة هذا الجزء الثاني، أن تراعيَها من وجوه أخرى، بالنظر إلى التوجه الجديد لـ «السياسة الأهلية».

نتفهَّم، إلى أيِّ حدٍّ كانت فرنسة الجزائر مشروعا معقَّدا، تطلَّبَ جهودا ثابتة في المجالات الثقافية المتنوِّعة، وكفاحًا لكلِّ الأوقات. ولكنْ، كان من اللازم على السلطات العمومية أنْ تبرهن على دهائها، إنْ هي أرادت الخروج منتصِرة من هذا التدافع الثقافي. في مجال الثقافة، يكون الإلزام نادر الفعالية من حيث العمق. وستستعمل السلطات العمومية أسلحةً مختلفةً بهذا الصدد، لتجذير فكرة معيَّنة عن فرنسا، ونقلِ رسائل تفاؤلية عن التعاون المُخْصِب، واللَّعب على مستوى اللاشعور والعقل لإتمام إنجاز سحري، أيْ القيام بدعاية ماهرة في خدمة الديمومة الفرنسية على التراب الجزائري.

الفصل السادس

الفنون والثقافة

أ. الفنون الجميلة والرسم.

1. السياسة الفنية إلى غاية منعطف القرن.

استُعْمِل الفن أداةً، منذ قيام الجمهورية. وكانت السياسة الفنية للدولة (دعم الفنانين، تجارة الفن، المعارض، حفظ التراث إلخ.) تتقرَّر بالبرلمان والوزارات؛ وغَدَتْ إذن، إلى حدٍّ بعيد، تابعةً للتوجُّه العام للسياسة. ولكنَّها كانت تَتَعَرَّض لتأثيرات متعددة من رجال السياسة أو جماعات الضغط. وكان الحزبُ الكولونيالي، في هذا الصدد، بموقعه المهيمِن داخل أجهزة الدولة، هو المحدِّدُ المركزيُّ للسياسة السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر، سِيَّما في المجال الفني. تحت وزارات **جول فيري** Jules Ferry و**جورج ليغ** Georges Leygues، وكلاهما عضوان في الحزب الكولونيالي، مُوِّلتْ ستُّ أعمال ثم إثنا عشر

عملا. وفي نهاية القرن التاسع عشر، ضاعفت الدولة، مثلا، طلبياتها للأعمال الفنية الممجِّدة للفخر الوطني (الفرنسي)، سِيَّما عبر الانتصارات العسكرية. وقد خُلِّد في لوحاتٍ، وتماثيل نصفية ومكتمِلة، كثيرٌ من كبار رجال السياسة أو الجيش، وأحداثٌ مجيدةٌ للتاريخ الكولونيالي، بطلبٍ من السلطات العمومية لتزيين البنايات الرسمية للمستدمَرة.

ويمكن أنْ يكون للطلبيات الفنية للدولة، بُعْدٌ تاريخيٌّ وآنيٌّ في الوقت نفسه كذلك. تُذَكِّر التماثيل النصفية لشخص يُدْعى **فيذارب** Faitherbe، أو الكاردينال **لافيجري**، بالصور الكبيرة بداية التوسُّع الكولونيالي في حكم الجمهورية الثالثة. وهكذا، أُدرِج التاريخ في الحاضر. بيد أنَّ الحاضر الكولونيالي هو محل طلبيات للدولة [...] ويلتحق الرسم هنا بالأدب الكولونيالي، في الوصف البطولي لحركة الرجال في

الإمبراطورية الكولونيالية. هذا هو بعث الجيش والأمة. سواء عبر الرجال العظماء أو الأحداث العظيمة، فإنَّ هذه الأنماط من الطلبيات –التاريخية والمعاصرة- تجعل التاريخ الكولونيالي حاضرا للجمهور وتتوافق مع قيم أخلاقية تُقَوِّي سلطة الدولة[250].

2. جونار وتطوير مدرسة شمال-أفريقية

شهدتْ الفنون الجميلة في مجموعها، ثورةً غير مسبوقة مع منعطف القرن. وبمبادرة من السلطات العمومية، وُضِعت سياسةٌ ثقافية مكثَّفة موضع التنفيذ. ولن يتوقف رجال الدولة بالحاضرة الفرنسية، كما هو حال الموظَّفين الكولونياليين، عبر خطاباتهم أو أفعالهم، عن برهنة أنَّ الأهمية السياسية للفنون الجميلة لن تزداد إلا قوة، وأنَّ الفوائد المستخرجة من استغلالها كانت عظيمة. مع منعطف القرن، ومع تطور الذهنيات

[250] Lagana, op. cit., p.4.

والفلسفة الكولونيالية، ومع تأكيد مبادئ سياسة التشارك تعدَّل الموقف إزاء الأهالي، وقد برز هؤلاء مجدَّدا، باعتبارهم كيانًا ثقافيا كامل العضوية. لن نحاول بعد ذلك، إدماجهم بعنف، وإنما إقناعهم، وضمن هذا المنظور، كان من الضروري إبداء علامات على النية الحسنة، وصيانة استعداداتهم الثقافية والدينية، بتهيئة مكان لثقافتهم في مختلف المجالات الفنية، أو أحسن من ذلك، بتقبل بعض ممثليهم في الدائرة النخبوية جدا، للفنانين كاملي العضوية.

وقد اشتهرت بعضُ شخصيات المقام الأوَّل في تاريخ الحركة، وهم رجال سياسة بالحاضرة الفرنسية أو بالجزائر، وأعضاء في الحزب الكولونيالي وفنَّانون. وإذا كان ثمة رجل ميَّز هذه المرحلة ببصمة لا تنمحي، فهو حقا الحاكم **جونار**. وقد جعلت منه حركته في جميع المجالات المتعلقة بالفنون، دون قصد، الأداة الأقوى، التي يمكن للحاضرة الفرنسية أنْ تعثر عليها في مجال السياسة الثقافية. وكان هذا

الهاوي الكبير للفن، مقرَّبا من الأهالي ومشهورا بينهم، كذلك. ولم يكتف ذاك الذي كان البعض يلقبه بـ «العربي» ببعث الحرف الأهلية، بل لم يتوقف عن تطوير عناصر ثقافية للتقريب بين الأوروبيين والأهالي. وكان هذا الطموح يمر عبر إنشاء تيار فني «جزائري» في الهندسة المعمارية والرسم، مثلما هو الحال في الأدب، وتَعَهُّد نشاطٍ مكثَّف في جميع المجالات ذات العلاقة. لقد كانت الحاضرة الفرنسية هي المقصودة ابتداءً، ولكنْ بعد فترة قصيرة، وعبر رسامين جزائريين جدد، وتثمين أعمالهم بالجزائر، كان الأمل هو ملامسة سكان المستدمَرة. نَقَلَ الرسمُ (البنايات العمومية والمعارض..) رسالةً، كان بعض المثقفين المسلمين مهيئين لتقبلها، حتى وإن لم يكونوا هم المستهدف الوحيد منها. وهكذا، لم يكن ممكنا أنْ تبقى "عقول مسلمة فنية، غير حساسة لنشاط ثقافي كهذا"[251]، وبهذا المعنى يمكننا أنْ نُفَكِّر في أنَّ كلَّ ما

[251] Goinard, op.cit., p283.

شُرِع فيه كانت له نتائج مفيدة لفرنسا، من وجهة نظر هؤلاء الأهالي.

3. المدرسة الشمال-أفريقية باعتبارها دعائية سياسية.

مَنَحَ المعرض الكولونيالي لسنة 1906 "إشارةً لانطلاق دعاية فنية بالجزائر"، ما دامت السلطات العمومية قد قررت، بهذه المناسبة، إنشاءَ مِنَحٍ لسفر الشباب الرسَّامين الذين «بإمكانهم إنجاز مهام وطنية»[252]. وسيسمح إنشاء **فيلاَّ عبد اللطيف*** بعدا جديدا لهذه الإرادة. وقد مَوَّلَتْها الحكومة العامة، ورعاها **بيونس بينيديكت**، رئيس جمعية الرسامين المستشرقين التي كانت تنتقي المستفيدين من المِنح مستقبَلاً (ويبدو أن **باروكان** Barrucand الصديق الحميم لجونار، قد ساهم كذلك في إنشاء هذه المؤسسة). وستُمَكِّن هذه الفيلاَّ الميديسية médicis

[252] Léonce Bénedicte, 1895, Cité dans E.Cazenave, "Le monument commémoratif du centenaire de l'Algérie réalisé en 1930 à Boufarik", L'Algerianisme. n°81, mars 1998, p.116.

* أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 384/8- 388. طبعة البصائر2009.

الجزائرية الجديدة رسامين من الحاضرة الفرنسية أن «يعايشوا» الجزائرَ طيلة عام (ثم عامين) بفضل إقامة مدعَّمة (سكن ومنحة بـ3000 فرنكا سنويا تدفعها الحكومة العامة بالجزائر)، وهذا إنْ أمكن، لأجل، تأسيس تيار فني جديد تحت وصاية الدولة وموجَّه وفق وجهة نظر معينة. "وكانت هذه اللحظة من المشروع الكولونيالي، الملوَّنة بلون الأهالي، بإدراجها الجزئي «للمدرسة الشمال-أفريقية في الفن الفرنسي المعاصر»، تهدف كذلك إلى تعزيز الضغط الثقافي للحاضرة الفرنسية"[253]. يمكننا أن نعتبر السبعة والثمانين فنانا الذين تعاقبوا عليها بين 1907 و1962 محميِّين للسلطات العمومية. وقد عملوا لأجلها غالبا، في إنجاز الدعاية، وأصبحوا سفراء للجزائر، وممثِّلين للفن المحلي، وكانوا يُستدعَوْن غالبا لتزيين النصُب التذكارية العمومية، أو إقامة معارض: "في خدمة

[253] Pouillon, "Echange agonistique… ", p.166.

الجزائر، امتداد وطنهم إلى ما وراء البحر الأبيض المتوسِّط وعبر هيبة الفن يصنعون رجال دعاية"[254].

يستلزم الرسمُ التذكاريُّ، الذي استعملته السلطات العمومية بإفراط "خضوعًا قويًّا من الفنانين للأوامر العمومية، الموجَّهة ليس فقط بهاجس تأكيد المشاريع الفنية، وإنما باقتراحٍ وفرضٍ لتشكيلات الهوية الجزائرية"[255]. كان هؤلاء الشباب الرسَّامون من المدرسة الجزائرية (**كوفي** Cauvy، **أسو** Assus، **قاليرو** Galliero) يُسْتَدْعوْن لتمثيل المجتمع التقليدي، في حين كان الرسَّامون الأهالي يجدون صعوبة في التميُّز عن هذه الدائرة المحروسة جيدا (ربما باستثناء معمري وبن عبورة فقط، اللذين يمثلان حالتين خاصتين). وسيؤول هذا، نحو تأكيد الجانب المغالي في هذه التمثيلات للمجتمع الأصلي. "كان **أسو** مثلا، يقدِّم عن موضوع الرقص، قراءة عالمية جدا، متوافقة كلية مع المثال الإمبريالي [...] نجدُ [في هذه

[254] Cazenave, loc. cit., p.118.
[255] Pouillon, "La peinture monumentale… ", p.166.

الرسوم] تقاليد الجماعات المختلفة، التي صنع تنوُّعُها كبرياءَ الجزائر لفترةٍ"[256]. كانت رسوماتُ الحركة الفنية الجديدة التي وُلِدت بالجزائر بداية القرن، تُصَوِّر "مشاهد نموذجية، تستدعي المجتمع الأهلي التقليدي في إطار ريفيٍّ، عبر ربيع هادئ لريف مزدهر، مع إنتاجه الحِرَفيِّ القويِّ وابتهاجاته الأليفة. [...] ويحيا المجتمع الأهلي، المنبعث عبر إشراقه الأصلي، من جديد، جزائرَ جوهرية نوعا ما، ملوِّحا للشهادة على الخلود"[257].

4. الذكرى المئوية.

خلال فترة ما بين الحربين، تأكَّد الموقف الإرادي للسلطات العمومية في المجال الفني إلى غاية اختتام الاحتفالات المئوية. وشهدنا تحديدا تأسيس مدارس للفنون الجميلة، ومؤسسات فنية عمومية (متاحف، قاعات عرض، جوائز ومِنح مختلفة) أو

[256] Ibid., p.196.
[257] Ibid., p.192.

خاصـة (قاعـات عـرض، ورشـات، صـالونات بيـع). وكانـت مـذكرة داخليـة للحكومـة العامـة مؤرَّخـة فـي 6 جانفي 1924 تُؤَكِّد علـى أهميـة الآثـار القديمـة والفنـون الجميلة بالنسبة لـلإدارة الجزائرية:"ويَدُلُّ مجموع هذه المؤسسـات (إعانـات، مـنح، مـدارس للفنـون الجميلـة، تنقيبـات...) علـى الجهـد الثابـت لـلإدارة الجزائريـة الهـادف إلـى بعث التـذوق للجمـال بـالجزائر، وتشـجيع الدراسـات الفنيـة واسـتحداثها"[258]. خـلال هـذه الفتـرة، كان المجتمع الأهلي، المتطوِّر سريعا والمعزِّز لثقافتـه الفرنسـية داخـل التقاليـد الجمهوريـة، يتجـه نهائيـا نحـو وعـي بالهويـة، بإمكانـه دون إبطـاءٍ إعـادة النظـر فـي السلطة السياسية للوصـيِّ عليـه. كانـت الفنـون الجميلـة، فخـر الحضـارة سـلاحا اسـتغلته السـلطات العموميـة جزئيـا. وعنـدما أبـرزت الـذكرى المئويـة إرادتهـا فـي إنشاء أعمال دائمة بـالجزائر، كانـت تشـرح بهـذا الشـأن أنَّ علـى هـذه الأعمـال أنْ تمكّـن مـن تقريـب الحاضـرة

[258] CAOM, 56 S/1.

الفرنسية إلى الجزائر، وتبيِّن طابعهما غير القابل للانفصال، وتبرهن للجزائر (المسلمة أو الأوروبية على حد سواء) « أنَّ كل واحدة تبقى كبيرة بالأخرى» وأنَّ الاستقلال مضرٌّ. لأجل هذا كان يجب بذل جهد خاص في مجال الفنون الجميلة. وستندرج الأعمال المُنجَزة ضمن هذا المنظور.

> تلك التي ستُشِعُّ أحسن داخل هذا البلد، بعبقرية الوطن-الأم، حاضرة الفنون والحضارة هذه، [...] ستمنح القيمة الكاملة لمواردنا الاقتصادية والفنية. على ميزانية الاحتفال بالذكرى المئوية إذن، [...]، تحسين ما لم تنجزه جمعياتنا المالية، خلال مجهودها السنوي العظيم، في بعض المجالات ومنها الفن والفكر. ومن هنا جاء تصميم المتاحف، حيث يمكن للأجيال الجزائرية الشابة أنْ تتشبع بالتقاليد والفنون والأفكار الفرنسية. سننشئ إذن، ثلاثَ

متاحف كبرى بالجزائر العاصمة وقسنطينة ووهران، حيث ستُتَأَمَّل جنبا إلى جنب العَيِّنات الجميلة للكنوز

الفنية لأوروبا القديمة، في الرسم والنحت، وأجمل نتاجات فنانينا المحليين[259].

[259] CAOM, 64 S/51. Commissariat général du centenaire de L'Algerie, L'œuvre du centenaire par Gustave Mercier, Commissaire général du centenaire, Délégué financier, Membre du conseil supérieur de l'Algérie.
في سنة 1930-31، مُنِحَتْ قروض مهمة إلى مديرية متحف الفنون الجميلة، مخصَّصة لتهيئته.

ب. الهندسة المعمارية والأسلوب الموريسكي الجديد.

تميَّزت بداية القرن العشرين، في مجال الهندسة والتزيين بتأكيد محاولة استشراقية تخص البنايات العمومية، تعكس الإرادة العمومية في التقارب الثقافي الفرنسي-الأهلي. وكان الحاكم **جونار** أحد أعمدة هذه الحركة. وبينما كان الفنُّ الأهلي ينبعث من رماده، كانت البنايات الموريسكية الجديدة تتضاعف: البريد الكبير، مقر ولاية العاصمة، مقر بلدية الأبيار وبريدها، فندق **لاديباش** الجزائرية، محطة قطار وهران، المجموع المركزي لفيليب فيل. "كانت هذه المرحلة، المتميِّزة ببضعة إنجازات مسماة بـ "إنجازات على أسلوب **جونار**" إلى الجمع بين البصمة المحلية والحداثة"[260]. وفي مجال الهندسة المعمارية، كان عمل لجنة الجزائر العاصمة القديمة، فضلا عن ذلك، يوضِّح تماما العناية الجديدة بالثقافة والفن الأهليْن، المتجلية

[260] Pouillon, "Echange agonistique… ", p.166.

بالجزائر. كانت اللجنة تتكون من موظفين، جامعيين، مثقفين، يتمثل إعلان مبادئهم في الحفاظ على القصبة. وكانوا يمتلكون لأجل هذا الهدف وسائل متنوعة للحركة، من بينها إنتاج تقارير تبلِّغ السلطات العمومية بالنصُب المستحِقة للتصنيف، أو تقديم هذا المجموع المعماري للجمهور العريض بوساطة محاضرات-زيارات، أيضا. ونسجل أخيرا نشر مقاطع تاريخية في مجلتها *"أوراق الجزائر"* *Les feuillets d'El Djazaïr*.

كان الفضاء العمومي وبناياته قد لعبا منذ الغزو، كما رأينا، دورا رمزيا مركزيا في السياسة الثقافية الفرنسية. هذا الدور الذي لم يتخلَّف وإنما أَدْمج مكوِّنات جديدة. وقبل الحرب العالمية الثانية بقليل، اكتسَبَ تحديدا، دورا اجتماعيا أهمَّ من السابق، ساعد في إدارة سكان أهالي عددهم في تزايد، وأكثر فأكثر. فقد شرعت مدينة الجزائر، مثلا، سنة 1933 في بناء «دار مدنية» فخمة، نوع من دور الثقافة المزوَّدة

بمعهدٍ للموسيقى ومكتبةٍ بلدية، مزيَّنة برعاية المدرسة الشمال-أفريقية. وقد انطلق هذا المشروع العظيم "باعتباره الجوهر العتيق للفضاء العمومي في البحر الأبيض المتوسِّط"[261] وكان يرغب في طَرْق كلِّ العقول بصورة لا تنمحي.

[261] Pouillon, "La peinture monumentale… ", p.196.

ج. الأدب.

1. المدرسة الأوروبية بالجزائر .algerianisme

مع انتهاء الغزو العسكري والازدهار الذي تلاه بالجزائر*، مع تطور الذهنيات وولادة هوية جهوية متميزة جدا، ظهرت إرادة تطوير تفكير علمي، هو رمز لهذه الشخصية الخاصة. أُريدَ للأدب الجزائري، وليد الملحمة الكولونيالية، أن يكون أدبا يصنعه "جزائريون" عن الجزائر، أي أوروبيو الجزائر. كان الأدب هو الناطق الرئيسي باسم الحركة الجزائرية التي ستتميز عقب **لوي برترون** Louis Bertrand بشخصيات مثل **روبير راندون** Robert Randau. وكانت هذه الحركة الثقافية مِنْ صُنْعِ جيل وُلِد بالجزائر، يُحِبُّ هذه الأرض الأفريقية ولكنْ لديه الإيمان بثراء القيم الغربية.كان يريد المشاركة في

---

* أنظر هامشنا ص 21.

الإنجاز البنائي، بـ«التعاون مع أهالي» مقاطعةٍ لاتينيةٍ ثريةٍ بتنوعها الثقافي ووضعيتها الخاصة.

وسينقل أدبُ هذه المدرسة رسالةً سياسيةً، مع مجازفته بتركها تُحَدِّده. أُريدَ في المقام الأول لهذا الالتزام الإيديولوجي، العفوي قبل كل شيء، ثم الواعي، أنْ يكون مخصَّصا لحاضرة يُرْجى إقناعها بضرورة الاستمرار في دعم الجزائر، و"العمل، بالتالي عبر الحركة الثقافية لصناعة مصير المستدمَرة"[262]. بيد أنَّه، انكشف أنَّ القيمة السياسية لأدب هذه المدرسة، تذهب أبعد من هذه الوظيفة الأوليَّة. وبحكم أنه يستمدُّ جوهره من النظام الكولونيالي، فقد كان مخترَقًا بواسطة قيمه الأساسية، وسيصبح هو، واحدا من أحسن المروِّجين له. كان أنصار هذه المدرسة واعين بهذه الوظيفة، كما تشهد على ذلك كلمات **روبير راندو**، أحد أشهر ممثليهم «الفعل هو عبْدُ الفكر...والأدب هو دائما أداة

[262] Lanasri, op.cit., p54.

للدعاية»[263]. وكان **لوي لوكوك** Louis Lecoq، رئيس جمعية الكُتَّاب الجزائريين، يشرح أنَّ «الكتابة فعل نضالي»[264] في حين أنَّ صديقه، المساعد له في مجلة أفريقيا، **جون بوميي** Jean Pomier، كان يُذَكِّر بـ «وجوب» مشاركة الكاتب في الشؤون الكولونيالية. كان المشروع الفني للكاتب الكولونيالي إذن، مُقَوْلَبا وفق القضية الكولونيالية، وكان هذا الأخير ينوي فعلا أنْ يصنع من قلمه سلاحًا للقتال.

خدمت هذه المدرسة، كذلك، بصفة مباشرة أكثر، السياسة الثقافية الفرنسية، وسيقول الأدب الكولونيالي، "عبر فضيلة النص السردي، بصوت مرتفع، ما كانت الرواية الرسمية تتفنَّنُ في إسكاته. بهذا المعنى، يبدو إنتاجُ هذه المدرسة بالأساس، ضمن السياق المرجعي لتلك الفترة، أدبا مُبَالِغًا"[265] عن الخطاب الكولونيالي.

---

[263] Jean Robert Henry et Françoise Henry-Lorcerie,"Le centenaire de la conquête de l'Algérie- Achèvement d'une littérature de combat", dans Des Années Trente…,p.111.

[264] Louis Lecoq, Afrique, n°4, juillet-aout 1924, p.3. Cité par Lanasri, op. cit., p.9.

[265] Lanasri, op.cit., p126.

كان يقول ما تفكِّر به السلطات، ولا يمكنها الإفصاح عنه، أيْ أنَّ بقاء المستدمَرة يمرُّ عبر علاقة شبه أبوية، في فترة كان من الضروري ادعاء العكس رسميا، لِتَجَنُّب التوترات. وإذا كان الأهليُّ قليلَ الحضور في هذا الأدب، فإنه لم يكن لأجل هذا محتقَرا، وإنما معتَبَرا، حينما كان يَقْبل مبدأ التعاون، كمشارك في بناء جزائر فرنسية بجميع تنوعها الثقافي. يمنحنا **شارل كورطان** Charles Courtin، الذي كان يتموقع على حدود هذه الحركة، توضيحًا تامًّا لِمَا كان عليه استعمال الحكومة لعَمَلٍ ليستْ هي المبادِرةُ به، وإنما كانت تستغله وتساعد على ازدهاره لخدمة سياستها الثقافية. كانتْ رواياته تصف العلاقة الكولونيالية باعتبارها «علاقةَ استغلالٍ، مُعَقْلَنةً بوساطة خطاب عن العداء بين الأعراق»[266]. كان موظَّفا مقدَّرًا لدى الإدارة الكولونيالية، وتلَّقى عمله الأدبي اعترافا (الجائزة

[266] Jean-louis Planche, "Charles Courtin, Romancier de l'affrontement coloniale". Le Maghreb dans l'imaginaire français. Paris, Edisud, coll. « Maghreb Contemporain», Revue de l'occident musulman et de la méditerranée, 1985, p.37.

الأدبية الكبرى 1928، جائزة الحكومة العامة بالجزائر سنة 1929)، وحصل على الدعم الرسمي للحكومة العامة التي كان يُسَلِّمُ لها مخطوطاته بهدف القراءة الأوَّلية من 1929 إلى 1946 (الشؤون الأهلية).

كل هذا الدعم وكل شهادات الرضا هذه، لم تَكْفِ لكي تصنعَ من **كورطان** روائيا رسميا. ولكنها تمكِّن من القول: لقد كان أحد الكُتَّاب الأكثر تناغما مع الخطاب الداخلي للإدارة الكولونيالية العليا، مع هذا التفكير الداخلي الذي يتغذى منه الخطاب العمومي ولكنه يحجبه، ويُمْكِن للخيال الروائي، عن وعي أو بدونه، أنْ يدفعه إلى وضح النهار. أنْ يَكُونَ هذا التفكير الداخلي في التحليل الأخير، التفكيرَ المتوافقَ أكثر مع المصالح الكبيرة للكولونيالية، فتلك

بديهية يُتِيحُ تاريخُ الجزائر التَحَقُّقَ منها في كل لحظة[267].

كان الأدب الكولونيالي «مُلْحَقًا باعتباره روايةً مختلفةً للخطاب الكولونيالي» بحيث كان "الروائيون الكولونياليون يعتقدون أنَّهم يكتبون رواياتٍ، هي في الواقع، من تأليف الأجهزة الإيديولوجية الكولونيالية التابعة للدولة بالجزائر [...] وأصبح التمثيلُ الأدبي تشكيلاً ودهاءً إيديولوجيًّا، والروايةُ الكولونيالية منبرًا للاستدمار الاستيطاني. وهكذا، كانت الروايات الكولونيالية انعكاسًا إيديولوجيًّا لمجموعات الضغط، عِوَضًا عن «أعمال» منبثقة من أفراد معزولين"[268]. ومن هنا، ورغم أنَّ الوظيفة السياسية الأصلية لأدب المدرسة الأوروبية بالجزائر كانت بالأحرى موجَّهةً، إلى الحاضرة الفرنسية، فقد أصبح هذا الأدب، مُكْرَهًا، التابعَ اللاَّإرادي لهذه الحاضرة نفسها، والتي كان مؤلِّفوها يَحْذَرُونها. بدفاع أدباء المدرسة الأوروبية

[267] Ibid., p.38.
[268] Calmes, op.cit., pp.243-244.

بالجزائر، عن النظام الكولونيالي وعن فكرة معينة للجزائر الفرنسية وعن نجاح تلك الفكرة، كانوا يُعَزِّزون الموقف الفرنسي، وهذا، كُلَّما كانوا يَضُمُّون في صفوفهم عددًا جَيِّدًا من المُعَرَّبين والقبائليِّين. ومن خلال هذا، كان أدباء هذه المدرسة ينتظمون مع سياسة فرنسا، من حيث أنَّهم كانوا يُشَكِّلون قادةً لتوجيه الوعي بالخصوصية القبائلية، التي تسعى السلطة الكولونيالية إلى إبرازها.

مع أنَّ أدب المدرسة الأوروبية بالجزائر، هو الناطق بلسان نفوذٍ مضادٍ، مهدِّدٍ، قادرٍ على تهييج المشاعر، وبإمكانه، بصفته سلاحا ذو حدَّين، أنْ يُمَثِّل خطرا سياسيا، ولم يكنْ خطابه مقبولا دائما بلا تحفظات لدى السلطات الكولونيالية. وهكذا، نجحت الإدارة العليا، في إبقاء عينها يقظة، وكانت هناك أدوات متعددة تمكِّنها في كل وقت، من مراقبة، صدورِ النتاجات الأدبية ونشرِها وحتى مضمونِها الإيديولوجي. كان يمكن للحاكم العام دائما، بفضل

اتساع صلاحياته، أن يمرِّر مقصَّ الرقابة على هذا المؤلَّف أو ذاك، أو يحرم من المنحة هذا الفنان أو ذاك، أو يرفض منح الجائزة الأدبية الكبرى أو الجائزة الفنية الكبرى لفائز اختارته لجنة (مكوَّنة أغلبيتها، وفي كل الأحوال، من موظَّفين عيَّنهم هو).

وتوضيحًا لهذا الصراع المستتر، مع أنَّه غير جوهريٍّ، والذي بإمكانه تلغيم العلاقات بين المدرسة الأوروبية بالجزائر والإدارة، يُعَدُّ الجدل الدائر حول الجائزة الأدبية للجزائر حالة لافتة بشكل خاص. في سنة 1921، أنشأت جمعية الكُتَّاب الجزائريين الجائزة الأدبية الكبرى للجزائر، التي زُوِّدت بدعم مقداره 5000 فرنكا من الحكومة العامة بالجزائر، التي كانت تنتظر بالمقابل دعاية مفيدة للجزائر. ومن جهة أخرى، كتبت الجمعية للمرشَّحين بهذا الشأن:«أيها السادة، لقد مُنِحتم دعم 5000 فرنكا، هي مرصودة لكم، بهدف

القيام بدعاية لصالح الجزائر. وهنا إشارة جوهرية، أَوَدُّ أنْ أرى آثارها فورا»[269].

ومع ذلك، بدا أنَّ تسيير هذه التظاهرة قد أفلت، منذ البداية، مِنْ أيدي المبادِرين بها. وقد تَسَبَّبَتْ الانشقاقات الداخلية بالتأكيد في بعض ذلك، وبدا سريعا أنَّ كل أعضاء الجمعية لم يكونوا مُتَّفقين على أهداف الجائزة وأسسها، وعلى نزاهة اللجنة وعلى الفائزين الواجب تكريمهم. بيد أنّه، من المهمِّ أنْ نلاحظ، بشكل خاص، أنَّ الحكومة العامة هي التي بدت متحكِّمة في الجائزة الأدبية الكبرى للجزائر. وكانت تشكيلة اللجنة محدَّدة بمرسوم من الحاكم العام (1921/11/05) "الذي يَنُصُّ على أنَّ الواجب هو أنْ تَتَشكل اللجنة من ثلاثة موظفين سامين، وثلاث أعضاء يعيِّنهم الحاكم العام، وكذا أربع أعضاء من جمعية الكتَّاب الجزائريين يعيِّنهم زملاؤهم وممثل لجمعية المؤلِّفين

[269] Afrique, n°3, juin 1924, p.1.Cité par Lanasri, op.cit., p.56.

الدراميين"[270]. ونلاحظ مباشرة أنَّ اللجنة كانت تتكون من ستة موظفين مقابل خمسة أدباء فقط، بمعنى أنَّ "الأغلبية كانت مكوَّنة من ممثلي الإدارة العليا، أو شخصيات تُعَيِّنها هِيَ"[271]. بعبارة أخرى، كان الحاكم العام يبدو بفضل قانون الأغلبية، مُؤَمِّنًا لإمكانية «اختيار» الفائز أو فرض «حقه» في النقض. وقد تأكَّدت هذه الهيمنة عبر الإلزام المفروض على اللجنة، باقتراح الفائز المعيَّن لمصادقة الحاكم العام عليه شخصيا.

ويبدو هذا القرار سياسيًّا للغاية: بتسخير الحكومة العامة لوسائل اختيار الرواية التي ستنتشر على نطاق واسع، كانت تختار أيضا الصورة المراد تمريرها، ومُؤَيِّدِيها الإيديولوجيين، مُسْتَغِلَّةً الأدب لخدمة فرنسا. "كان لِمَنْح الجائزة، منذ البدء، أهمية رئيسية في اختيار الإيديولوجية المنقولة عبر العمل الأدبي وفي إشعاعه

[270] Jeanne Adam, "Polémique autour du premier Grand Prix littéraire de l'Algérie. La situation des lettres algériennes en 1921 . dans Le Maghreb dans l'imaginaire français. Paris, Edisud, coll. « Maghreb Contemporain», Revue de l'occident musulman et de la méditerranée, 1985, p.23.
[271] L'Afrique latine, 15 avril 1922. Cité par ibid., p.23.

كذلك. وهكذا يمكننا، إذنْ، بالتدخل في انتخاب العمل المكرَّم، في الوقت نفسه، أنْ نُراقِبَ إيديولوجيتَه ونُرَقِّيَه"[272]. وهذا ما يؤكده الاتهام الذي نقلته (*أفريقيا اللاتينية*) في 15 ماي 1922، بعد منح المرتبة الأولى للجائزة الكبرى إلى **فرناند دوشان** (Fernand Duchệne (الذي قدَّم في عرضه سكانا أصليين) في حين كان يُعتقَد أنَّ المفضَّل هو **روبير راندو** Robert Randau (رسَّام المستوطنين peintre des colons)، في مقالٍ مجهولٌ صاحبُه، عن «المسألة الأهلية»: " كان على لجنة رسمية، مؤخرا، أنْ تختار، لمنح الجائزة الأدبية الكبرى، بين عمليْن: الأوَّل يُمَجِّد الطاقة اللاَّتينية (**كاسار** البربري Cassard le berbère)، والثاني رَسْمٌ مجاملٌ للخمولِ والفَقْرِ المُدْقِع الأهليِّيْن (*على خطى القوافل البطيئة*)، فتوَّجت هذا الأخير دون أن يُبَرَّر الاختيار باستحقاق أدبي

[272] Lanasri, op.cit., p.66.

عالٍ"[273]. وإنْ لم يكن هناك شيءٌ يبرهن أنَّ الاختيار كان أدبيا فحسب، فعلى أية حال حاز المرشح، الذي يتوافق عمله أكثر مع تَوَجُّه «السياسة الأهلية» الرسمية في تلك اللحظة، على استحسان اللجنة.

من الصعب جدا أنْ نعرف، ما هي تحديدا وسائلُ الضغط التي استُعمِلت كذلك، لإجبار الأدب الكولونيالي على الأرثوذوكسية السياسية. يجب التفكير في أنَّ النشر، هو بهذا الشأن سلاحٌ خطيرٌ. وكان الجهازُ الثقافي للنشر أحدَ الأدوات الكبرى للجانب الكولونيالي. وشكَّلتْ مكتبةُ **أشيت** Hachette مثلا، حليفا وفيًّا. وكان يمكن لحاضرة ثقافية تحتكر القرار الثقافي أنْ تُهَمِّش بسهولة أدب المدرسة الأوروبية بالجزائر. وقد تَمَثَّل هدفُ الجائزة الكبرى، بالمناسبة، في منح شاب مثقف جزائري الفرصة الوحيدة لنشر أعماله والاعتراف به في الحاضرة الفرنسية. ونَتَصَوَّر بِيُسْر، أنَّ الابتزاز، والتهديدات بالتسريح، والحملات

[273] L'Afrique latine, 15 avril 1922. Cité par Adam, loc.cit., p.23.

التشهيرية، سَتُسْتَعْمَل وجوبا لإقناع أشدِّهم مقاومةً، لذلك (حسب **كريستين دْرُوُو** و**أوليفيي فيرنيو**، كان **ف.باروكان،** مدير الأخبار ضحية إحدى هاته العُصَب[274]). وبالطريقة نفسها، كان يمكن للموقف الرسمي إزاء المدرسة الأوروبية بالجزائر أنْ يكون مختلفا تَبَعًا لتوجُّهات الحاكم، الذي يُطَبِّقَ بصرامة، نوعا ما، تعليمات الحاضرة وأوامرها.

وإذا كان الخطاب الرسمي للذكرى المئوية يُمَأسِسُ لانتصار خطاب المدرسة الأوروبية بالجزائر، فإن هذا الأخير، ويا لَلْمفارقة، كان يَضِيق صَدْرُه، مُعَوَّضًا برؤيةٍ أقلَّ التزاما بالعلاقات الكولونيالية وأكثر ريبة فيها، والتي سجَّلت تحديدا ظهور الإنسان المستدمَر. تُوَضِّح ذلك تياراتٌ متعددةٌ، مِنْ مدرسة الجزائر العاصمة إلى الرواية الصحراوية، مرورا بمؤلِّفين هامشيِّين أكثر (مثل **طروفيموس**

[274] Christine Drouot et Olivier Vergnot," Victor Barrucand, un indésirable à Alger", dans Collectif, Le Maghreb dans l’imaginaire…, p.33.

بواسنار Truphémus أو **فافر** Favre أو Boisnard أو **كورطان** Courtin).

2. الأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية

ثمةَ تحذيرٌ يفرض نفسَه، هو بمثابة مَدْخَل. ونَعْثُرُ على أمثلة كثيرة جدا، في الأدب، والمجلات الثقافية، والصحافة ذات اللغة الفرنسية، على استعمال أسماء مستعارة عربية وبربرية، من كُتَّاب فرنسيِّي الأصل. ولا يتعلق الأمر رغم ذلك بالأدب العربي. وكان لهذه الممارسة مصادر عدة، وفقا للحالات والمراحل، ولكنْ يمكننا أنْ نقول بصفة عامة، أنها كانت مفيدة من وجهة نظر إيديولوجية وسياسية، لأنها كانت تمكِّن من المصادقة على كتابات باعتبارها ذات أصلٍ أهليٍّ وإعطائها لأجل هذا مصداقيةً أكبر، وتأثيرا أشدَّ، تبعا لذلك. وسنحتفظ تحديدا بأسماء: **الجزائري**، **الراوي**، **الفرياني**، **بويابس**، **بوسعيد**، **مصطفى**، **صدِّيق بن الأوطة سيدي فلوكون**، **بَنْتَا جَبَال**، **بوالحق**، **محمد بن**

بْرْكة، لْحُسين مطوقي، سي ماحود، عبد الله شَمْبَا، إليسا رايس[275].

وفي الفترة التي بلغ فيها الاستدمارُ ذروتَه، وكان أدبُ المدرسة الأوروبية بالجزائر «يحتفل بمجيء الشعب اللاتيني الجديد» للجزائر، والتحق بعض المؤلِّفين المسلمين ذوو اللغة الفرنسية بهذا التيار، مُبَرْهِنين مُنْذُئِذٍ على اندماجهم السوسيو-ثقافي في المجموعة الأورووربية: "الرواية هذا «النثر للعلاقات الاجتماعية» المولود بأوروبا في القرن العشرين، لم يخترق الفضاء العربي إلا عقب التوسع الإمبريالي. لأجل هذا يعتبر **أ.الخطيبي**[276] هذا «الصنف الغربي بامتياز» «منتوجا مستورَدا» إلى المغرب، ويعدُّه عَلاَمة على المثاقفة acculturation "[277]. وكان الكُتَّاب الأهالي باللغة الفرنسية، الذين مَرُّوا بالمدرسة

---

[275] Liste non exhaustive tirée de J. Déjeux. "Lidentité et le masque, les pseudonymes dans la littérature de langue française en Algérie". Annuaire de l'Afrique du nord, Tome XXIV, 1985, pp.385-396.
[276] A.Khatibi, Le roman magrébin, Maspéro, 1968, p.14. Cité dans Paul Siblot, "Dialectiques d'une formation discursive coloniale : d'une Algérie à l'autre", Littérature, 1989, n°76, p.69.
[277] Paul Siblot, op. cit., p.69.

الجمهورية، يَبْدُون مُؤَكِّدين لِتَعَلُّقهم بالحاضرة الغربية عبر آرائهم، داخل الأدب الهامشي أو في صلب أعمالهم. الأمر الجوهريُّ أنَّ هذا الأدب، التي يعتبرهُ بعض المؤلِّفين أنفسهم، فرعا للمدرسة الأوروبية بالجزائر، يُنْتِج خطابا قريبا من الخطاب الرسمي الكولونيالي. وتُعَدُّ مشاركةُ عبد **القادر حاج حمو** في مجموعة أخبار المدرسة الأوروبية بالجزائر *"قارتنا الأفريقية"* سنة 1925، أو مساهمة **محمد ولد الشيخ** في الإثنولوجيا الأدبية *"أشعار من وهران"* سنة 1930، مَوَضِّحَةً لهذه الظاهرة، وكذلك أعمال **حسين خوجة شكري** أو **بوديب سيدي أحمد** أو **القبطان بن شريف**. يرى كثيرٌ من المحلِّلين الجزائريين المعاصرين، اليوم، في أراء هؤلاء تناقضات والتباسات يُؤَوِّلونها على أنها ذرائع أدبية، تمكِّن من تأكيد هوية إسلامية غير قابلة للاختزال في إطار إنتاجٍ محاصَر ومراقَبٍ.

ولكنَّ رأيَنا، ليس هو التعرُّف على قناعة هذه الكاتب المسلم باللغة الفرنسية أو ذاك، بِقَدْرِ ما يكمن في فهم كيفية استغلال الخطابِ المؤيِّد للكولونيالية لدى هؤلاء الكتَّاب دون أدنى شك، سواء كانوا في صف القضية أم لا، باعتبارِهِمْ أداةً رائعةً للسياسة الثقافية، بالنظر إلى المصداقية المتعلقة بوضعيتهم القانونية وحالتهم الاجتماعية. لم تكن فرنسا إلا مستفيدة من تأثير كلمات على السكان المسلمين، كتلك المستعملة في وصف مشاعر **مأمون** Mamoun، بطل رواية **خوجة شكري*** *مأمون* أو *تصميمُ مثالٍ*، أمام محاسن العاصمة الكولونيالية:«كان يَتَأَمَّلُ الممَرَّات المتناظرة، والأشرطة المزروعة بالأشكال الزهرية، والقوام الأنثوي الرشيق الماثل أمامه. وكانتْ هذه الرؤية المليئة بالسحر والفتنة، تدفعه للتفكير في ذاته بشأن

* في روايته *"مأمون أو تصميم مثال"* جعل خوجة شكري بطله يندمج في الثقافة الفرنسية ويغرق في التمدن، بشرب الخمر والتقليد، ولكنه مع ذلك أبقى على بعض الفوارق مثل لبس الطربوش. ولا ندري إن كان حسن شكري من المطورنيين الذين تجنَّسوا فرفضهم الجزائريون والفرنسيون معا. وفي روايته *"العلج أسير بربروس"* وقع البطل المسيحي أسيرا في قبضة القراصنة، وكان عليه أنْ يخرج من الرق باعتناق الإسلام وأن يتزوج ابنة سيده لتتم عملية الإدماج. غير أن هذه العملية لم تتم رغم أن ابنه فد أصبح مفتيا. وقد رأى بعض النقاد في الرواية إعلانا لفشل سياسة الإدماج. (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 179/8-180. طبعة البصائر2009.)

محاسن القرن، وبهاءات الحياة المتحضِّرة، واستحقاق فرنسا التي صنعت من الجزائر في أقل من قرن جنَّةً حقيقيةً»[278]. سِيَّما، أنَّ هذا الوصف كان يأخذُ كلَّ قُوَّتِه عند مقارنته مع وصف القرية مسقط رأس **مأمون** على لسانه بهذه الكلمات:" إنَّه مِنْ خليط العفن هذا، وَوَسَطَ جَوٍّ مُقْرِف، تَتَجَمْهَرُ كائنات فَظَّةٌ ووسِخَةٌ ومليئة بالقُمَّل"[279].

كان يمكن للكُتَّاب الجزائريين إنْ هُمْ تَمَوْقَعُوا في الصف المطلوب أنْ يأملوا في الحصول على الاعتراف الثقافي والاجتماعي. وكان الكاتب **حاج حمو عبد القادر***، المثقَّف المسلم ذو الشهرة العامة والفاعل في الحياة السياسية والصحفية للمستدمَرة (والماسوني أيضا) يحظى بتقدير الجميع. راكَمَ الأوسمة المشرِّفة :

[278] Mamoun, pp.58-59. Cité dans Abdelkader Djeghloul, "Un romancier de l'identité perturbée et de l'assimilation impossible, Chukri Kodja", dans le Maghreb dans l'imaginaire…

[279] Mamoun, p.19. Cité dans ibid.

* عبد القادر الحاج حمو، المعروف باسم عبد القادر فكري، من دعاة الإدماج، نشر سنة 1925 رواية باسم **زهرة.** وقد نشر مع روبير راندو عملا أدبيا بعنوان (أصحاب البستان). (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 181/8. طبعة البصائر2009.)

ومنحته الأوساطُ بالحاضرة الفرنسية وسامَ جوقة الشرف، وَرْدِيَّةَ التعليم العام، وكانت أوساط المدرسة الأوروبية بالجزائر معجبةً به، باعتباره نائب رئيس الجمعية المغلقة جدا للكُتَّاب الجزائريين، وكانَ إخْوَتُهُ (في الدِّين) يحترمون المسلم الملتزم، والمدرِّس بالجامع الكبير للعاصمة، والصحافيَّ الشجاع الذي ينتقد مجموعة الصور الملصقة بالأهلي، والبرلمانيَّ الجريء الذي لا يتردد في استهجان سفسطائيات الخطاب الإدماجي. كان هذا الرجل البيانَ الأكملَ لنجاح التعاون الفرنسي-الإسلامي، أو على الأقل، تلك هي الصورة التي كان يحملها، وهو بهذا، كان الشعاع الموجِّه المفضَّل للسياسة الثقافية الفرنسية، وتعترف السلطات به، لأنَّه كذلك.

ساهم الكُتَّاب البربروفيليِّين، الكُثُ ُرُ وسط النخبة المثقفة الأهلية، في حركة بث الشعور بالهوية والثقافة القبائلية بواسطة أدبهم. باكتسابهم للسمعة عبر اللغة الفرنسية، حَقَّقُوا المصداقية الكافية للدفاع، لاحقا

وفي الوقت نفسه، عن الثقافة القبائلية (**جان عمروش***، **مولود فرعون، مولود معمري**). ونفهم منذئذ أنَّ الدفاع عن الأدب البَرْبَرِيِّ المكتوب باللغة الفرنسية على شَكْل مِنَحٍ، أو تسهيلٍ للنشر أو دعمٍ بأشكال متنوعة، كان بهذا المعنى عنصرا في السياسة الثقافية الفرنسية: وقد حقَّقتْ السلطات هدفا مزدوجا بتسهيلها، ليس لنشر اللغة الفرنسية فحسب، وإنما أيضا بمساعدة البربروفونية على نحو غير مباشر، وبالتالي إضعاف العربية. وقد دعَّمت بقوةٍ دُورُ النشر الباريسية **لورو**، **ميزونوف**، والمكتبةُ الوطنية، السياسةَ الثقافية «البربرية» لفرنسا.

بالمقابل، وعند عدم التموقع داخل الفضاء الثقافي المهيمِن، كانت مؤلَّفاتُ الكُتَّاب المسلمين المنتقِدة للسياسة الفرنسية أو النظام، تتعرض حتما لمقص الرقابة، المساعد الأساسي لكل سياسة ثقافية. وهكذا، كان كلُّ نصٍّ معارضٍ مهدَّدٌ بعدم النشر؛ وإنْ نُشِر

* أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 186/8. طبعة البصائر2009.

سَيَتَعَرَّضُ تلقائيا لمقص الرقابة، وتطال صاحبَه عقوباتٌ جزائية أو اجتماعية. وهذا، على الأقل بالنسبة لمؤلَّفات الكُتَّاب المسلمين الذين لم يقتنعوا بشرعية الوجود الفرنسي:

> إنَّ المقاربةَ التأويلية، تفرضها في الواقع، شروطُ إنتاجِ النص الجزائري، الذي عليه أمام السياق الكولونيالي، وقبل إبداعه، الالتزامُ بالرأي السائد المهيمِن. كذلك على مستوى النص الصريح، لا يمكن للكاتب من خلال رَاوِيهِ، بأي حال، إعادة النظر في الظاهرة الكولونيالية. ولِارتباطِ روايةٍ roman كهذه بِبُنَى النشر والتوزيع في المجتمع الكولونيالي، ولكونها تحت رقابة المقص الإداري، لم يكنْ بإمكانها الظهور فعليا بجزائر الثلاثينيات. لِكَيْ يحظى العمل الجزائري بالنشر، كان عليه أنْ يُنْتِجَ

إجباريًّا الخطابَ المهيمِنَ عن فضائل الاستدمار[280].

[280] Lanasri, op. cit., p.260.

د. الإصدارات.

كانت الإصدارات الثقافية والعلمية، بنشرها لعناصر شَرْعَنة الخطاب الكولونيالي وتعزيزها له، تُكَمِّل جهاز السياسة الثقافية الفرنسية. وحدث أن قامت السلطات العمومية بالمبادرة إلى نشر إصدارات رسمية مثل : الوثائق غير المنشورة التي جَمَّعتها سنة 1910 اللجنة المعيَّنة من الحاكم **جونار** في إطار روح الاستكشاف العلمي. بيد أنها كانت في معظم الأحيان مجلات علمية وثقافية «خاصة» تقوم بدور الكافل للخطاب الرسمي. وقد عرف هذا الأخير كيف يستفيد من إسهاب الجمعيات العلمية، بتعزيزه لنشر نتائج بحوثها عبر دعم نشط لإصداراتها، سِيَّمَا إصدارات جمعيات التاريخ، أو علم الآثار أو الجغرافيا مثل المجلة الأفريقية (1856)، والنشرة الفصلية لجمعية الجغرافيا وعلم الآثار لمقاطعة وهران (1878)، ونشرة جمعية الجغرافيا للجزائر العاصمة وأفريقيا الشمالية (1880). وفي منعطف القرن، أفسحت

الإصدارات العديدة للجمعيات العلمية، في صفحاتها، مساحة ازدادت اتساعا مع الوقت، للتاريخ والأدب وعلم اللغات والترجمة لمؤلِّفين عرب قدامى، على حساب علم الآثار. ونظرا للدعم الفعلي المقدَّم لهذه المجلات العديدة من السلطات العمومية منذ منتصف القرن التاسع عشر، يمكننا الاعتقاد على نحو مشروع أن هذا التحجيم لعلم الآثار كان -جزئيا على الأقل – بإرادة منها، وهنا أيضا نتيجة مخطَّط سياسي أوسع، كان يتوافق مع توجهات التشارك لتلك الفترة. " كان كُتَّاب المقالات في المجلة الأفريقية، ومجلة علم الأعراق وعلم الاجتماع، ومجلة الفلكلور الفرنسي والفلكلور الكولونيالي، يستجيبون لمتطلَّب سياسي مغلَّف دائما أيضا، في غطاء علميٍّ جميل"[281].

انتشر التأريخ الكولونيالي على نطاق واسع في هذه المرحلة من مجد الحضور الفرنسي بالجزائر. بعد **سيدان** Sedan، كان الإصرار على هذا الدرب

[281] Lucas et Vatin, op. cit., p.56.

المهيمِن على التاريخ العسكري، أمرًا حسَّاساً. وكان جرح الهزيمة ما يزال مفتوحا، والحقدُ على الجيش ما يزالُ حيًّا. في الجزائر، ومع مجيء نظام مدني وتصوُّر جمهوري جديد للاستدمار، مرفوق كذلك بولادة التعليم العالي ونخبة مثقفة مدنية ومحلية (من الجيل الثاني أو الثالث)، كان التأريخ يغيِّر صورتَه. وابتداءً من هذه اللحظة، أَخَذَ المستدمِرون colonsبزمام هذا الاختصاص واحتلُّوا مقدِّمة الأحداث. وإلى غاية الاحتفال بالذكرى المئوية التي سجَّلت قمة هذه الحركة، شكَّل التأريخُ ذروةَ الكولونيالية. كان يحكي العملَ اليوميَّ لِلَّذين شيَّدوا ازدهار الجزائر بأيديهم، وعرقِهم وألمِهم، وشجاعتِهم وفخرِهم. وهكذا ساهم في الانتهاء منَ الإغلاق على الجزائر ضمن حدودها الفرنسية.

كانت الذكرى المئويةُ، باعتبارها ذروةَ المستدمَرة والمرحلةِ الإمبريالية، تتوافق مع تعظيم السياسة الثقافية الفرنسية. وقد نظمت السلطات، بهذه

المناسبة، حملة دعائية واسعة شكلت فيها الإصدارات عنصرا ممتازا. كان **تريفيموس** Truphémus يتحدث عن «هذه اللغة الرسمية الصغيرة، عديمة اللون والدم والجنس ولكنَّها معين لا ينضب»[282]، التي ميَّزت الإصدارات والكُتَيِّبات، والنشرات المصوَّرة والروايات المطبوعة بهذه المناسبة، وجميعها موحَّدة بالإيديولوجية الرسمية المدعِّمة لها، كانتْ تمجِّد بصوت واحد نجاحَ المشروع الجزائري. «التعاون الأخوي» بين المستدمِرين والأهالي، والمدى الرائع للإنجاز المحقَّق. بل إنَّ **شارل أندري جوليان** يتحدَّث، في بعض الحالات القصوى عن «ابتزازات ثقافية»"[283]. وكانت أهمُّ مبادرة حكومية تتمثل في إصدار مجموعة الذكرى المئوية المصوَّرة، من قبل **غابريال إسكير**، الذي أعاد ضمن روح الاكتشاف العلمي للجزائر، جَمْعَ كل الأقطاب الثقافية والجامعية لتلك الفترة (**جوليان** Julien، **جزال** Gsell،

---

[282] Cité dans Achour et Rezzoug. Loc., p.75.
[283] Cité dans Leimdorfer. op.cit., p.70. note 70.

طايار Taillard، **مارسي** Marçais، **بروديل** Braudel، **إيفر** Yver،...). كانت مجلَّداتُه الأربعون تتضمن خمسة فروع: المؤسسات، دراسة الأرض وتثمينها، التاريخ القديم والحديث، الحياة الثقافية والفنية، التعليمات العمومية. وبفضل دعم السلطات العمومية عبر طلبيات رسمية مثل مجموعة *الذكرى المئوية*[284]، تَطَوَّرَ التأريخ الاستدماري بشكل كبير وأصبح جزء من السياسة الثقافية. أهْدَتْ الذكرى المئوية "الفرصة العظيمة لإعادة كتابة تاريخ بلد انطلاقا من هذا الغزو فحسب [...] ومنذ تلك اللحظة وضع التاريخ بشكل واع ومقصود، في خدمة سياسة[285]" وتحتفل بالإنجاز الفرنسي في الجزائر. "أذاع التاريخ الرسمي، السياسي، الاعتداد

---

[284] Voir G. Mercier, Le Centenaire de l'Algérie, 2 vol., Gouvernement général de l'Algérie, Alger Soubiron, 1931.
قائمة الكتب طويلة جدا (أكثر من 30 عنوانا)، نسجل أنَّ علاوة على الإصدارات التي يوقعها غوتيي E.F. Gautier، وج.ألازار J.Alazard وأل al، (تاريخ الجزائر ومؤرخوها)، ديمونتيس V.Demontes، وميلو L.Millot، وأل .al. نوري E.Nores، ومؤلفات ل.لاكوست، الاستدمار البحري للجزائر، ر.ريسبي R.Lespes، الجزائر: دراسة جغرافية وعن التاريخ العمراني، ج.فرانك J. Franc، احتلال المتيجة، شيفر C. Scheffer، السياسة الاستدمارية لملكية شهر جويلية، الجزائر وتطور الاستدمار الفرنسي. ملاحظة 19 في فاتان Vatin، L'Algérie politique، ص24.

[285] Vatin, L'Algérie politique…, p.24.

الاستدماري"[286]. وكانت هذه السياسة المكثَّفة للسلطات العمومية تهدف إلى عرض الصورة الأشد تثمينا لفرنسا والرؤية الأكثر إشعارا بالأمن عن وضعية المستدمَرة.

كما دعَّمتْ لجنةُ الذكرى المئوية أيضا إصداراتٍ متنوعةٍ مثل المؤلَّف المُعَنْوَنُ *مناطق الجنوب*، "وهو عَرْضٌ لوضعية مناطق الجنوب عبر مجموعة ضباط مُلْحقين بالمصلحة المركزية للشؤون الأهلية ودائرة العاملين العسكريين بالحكومة العامة"[287]. وقد أُرْسِلَ هذا المؤلَّف لاحقا إلى العديد من مسؤولي الصحف الفرنسية (**فيغارو**، **إيكودالجي**، **إلوستراسيون**...)، وإلى شخصيات مؤثِّرة بالحاضرة الفرنسية والمستدمَرة، أوروبيين وأهاليَ (النائب العام للجمهورية بالعاصمة، الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف بالعاصمة، الأستاذ **سافونين**، أستاذ الجيولوجيا بجامعة العاصمة، مدير البريد

[286] Ibid., p.25.
[287] CAOM, 64 S\ 62, Centenaire, Propagande par le livre.

والمواصلات بوهران، رئيس المجلس العام لوهران، وزير الداخلية بباريس، الأستاذ **ريتشي** نائب عن العاصمة، رئيس الغرفة التجارية لعاصمة، ونبلاء مسلمين...).

كان الأهالي حاضرين بشكل خاص في الإصدارات المتنوِّعة المتعلقة بالثقافة التقليدية، في الحِرَف أو علم الأعراق، مثل هذه "الحكايات العربية غير المنشورة" لـ **م.زيس** Zeys، أو أيضا "*رَسْم الأعراف والطابع العربي*"، أو كذلك "مساهمة في دراسة اللاهوت الإسلامي" لـ **م.لوسياني**. طلبت لجنة الذكرى المئوية كذلك من مديرية الشؤون الأهلية كتابا ذهبيا للشؤون الأهلية منشورا بالعاصمة، بالفرنسية والعربية، «يُلَخِّص العمل الفرنسي المنجَز بالجزائر لصالح السكان الأهالي» و«الذي عليه أنْ يسجل مساهمة اللجنة العامة للذكرى المئوية، سيما القروض الكبيرة المأخوذة من صندوق الاحتفال بالذكرى المئوية لإنشاء مؤسسات مهيأة للتكوين المهني للأهالي

ولتطوير فنونهم وصناعاتهم، إلخ (مثال: إنشاءُ حَيٍّ للمساعدة الأهلية ببني مسوس 2.000.000 فرنكا، وبمعسكر 600.000 فرنكا، دعم العمل الفرنسي-الأهلي لأطفال الريف ببونة 400.000 فرنكا، إلخ.)»[288]

وكان عدد كبير من الإصدارات يتعلق أيضا بعلم الآثار الروماني، الموضوع الكلاسيكي للسياسة الثقافية لفرنسا. ولتوضيح الأمر، نُسَجِّل على سبيل المثال كتابا احتفظت به اللجنة لأجل الدعاية:

> السيد **بيير شايي،** أستاذ السنة الأولى بمدرسة سيدتنا الأفريقية بسانت أوجين يقترح نشر كتاب من 150 صفحة تقريبا عنوانه "أفريقيا، ذكريات ودروس". سيشمل نصف الكتاب صورا بالحفر الضوئي (نصب أثرية، رومانية، مسيحية وغيرها؛ أنماط ومواقع؛ ذكريات من

[288] Ibid.

الغزو والاستدمار الفرنسيين؛ الخدمة الإرسالية للآباء البيض). ويرى المؤلف أن هذا الكتاب «يمكنه أن يعرِّف بشكل أحسن وجه فرنسا الجديدة ويحبب فيها ويمنح الشباب دروسا عن الطاقة الكريمة». ثمن الكتاب محدَّد بـ 15 فرنكا[289].

في سنة 1929، وافق المجلس الأعلى للذكرى المئوية على دعمٍ بـ 5000 فرنكا لمجلة الحياة la vie، لأجل إصدار عددها الخاص بشهر أفريل 1930، بِغَرَض الدعاية لصالح الذكرى المئوية[290]. وكان هذا العدد سينشر مقالات لبعض أشهر ممثلي الأدب شمال-الأفريقي: "أفريقيا الشمالية واحدة من أجمل إبداعات العبقرية الفرنسية" لـ**موريس موري**، "ما صنعته فرنسا لأجل الجزائر، وفي 100 سنة" لـ**ميغالي بواسنار** (يمكننا أن نقرأ فيه مثلا "لقد صنعت فرنسا

[289] CAOM, 64 S\ 62, Centenaire, Propagande par le livre, Commissariat général général du centenaire d'Algérie, Alger 1930. Note pour le conseil supérieur.
[290] CAOM, 64 S\ 62, Centenaire, Propagande par le livre, Lettre du Commissaire général du 2 avril 1929.

أحسن مما صنعته روما وباستحقاق أكبر")، "*ليالٍ من أفريقيا- أسطورة عربية عن الجزائر*" لـ**بيير موريس دو ستيكس**، "منزلي" لـ**فكطور باروكان** (وهذا مقتبَس منه: "منزلي على شاطئ البحر البربري، مُنَضَّد على أولى مدرَّجات الساحل البيِّن، حيث يزهر الياسمين والدفلى في الشتاء. وحيث ينام الصيف على حمرة جَصِّية")، "أدب المدرسة الأوروبية بالجزائر 1900-1930" لـ**روبير راندو** أو "مدرسة عِرْقٍ شَابٍّ: شعب العاصمة" لـ**غابرييل أوديزيو**.

هـ. الصحافة.

1.الصحافة المكتوبة باللغة الفرنسية.

كان الفرنسيون في القرن التاسع عشر، قد زوَّدوا الجزائر سلفًا بدوريات ثقافية وتاريخية موضوعة تحت وصاية السلطات العمومية. ونعلم أن هذه الصحافة خدمت منذ زمن طويل السياسة الثقافية لفرنسا. وقد دفع الأمير **نابليون** مالا بالعاصمة الجزائرية لوكيل الإعلان والدعاية **زيلي كليمون دوفرنوا** "كي يَدْعَمَ بقلمه سياستَه"[291]. ولكن قانون سنة 1881 الخاص الصحافة، المطبَّق على الجزائر، هو الذي سمح للصحف والجرائد الرسمية بتسريع ومجيء "رجال قلم ودعاية يضعون أفكارهم غالبا في خدمة القضية الاستدمارية بكل تنوعها"[292]. بعد هذا التاريخ، سنعثر ليس على يوميات ودوريات إعلامية فحسب، وإنما كذلك على مجلات ساخرة، شعبية جدا، مثل

[291] Meynier et al., op.cit., Tome 1, p.429.
[292] Vatin, "Exotisme…", p.164.

موريطانيا، المجلة الشمال-أفريقية المصوَّرة، أفريقيا الشمالية مصوَّرة، أو الحوليات الأفريقية (أو التركية) التي مكنت كُتَّابًا مُسْتدمِرين من شحذ أسلحتهم (**ستيفان شزراي، موزيت، طرزيالي، إيبرهات، راندو، مارفال، غوجون، أشار،** أو **مارفال برتوان**). وكانت رسومٌ ساخرة، وتصاوير، عبر أشكال من الإخراج، تقترح رسالة سياسية أو فلسفية. ولكنْ، يجب أن نفهم أنَّ الصحافة في مجموعها يمكن أن تُستعمَل أداة للسياسة الثقافية. سواء كانت ساخرة أو أدبية أو تاريخية أو سياسية "تحملت الصحافة، ضمن الأجهزة الثقافية، دورا مُهِمًّا في نشر الإيديولوجبة الإمبريالية"[293]. وبصفة عامة، كان جزء من الصحافة بأيدي السلطات العمومية، (مثل "المجلة الكبيرة **الجزائر والمستدمَرات،** ، المنشأة بالعاصمة سنة 1908، باعتبارها "جريدة للدفاع" والدعاية الاستدمارية"[294])، أو مخترَقًا مِنْ قِبَلِها. وبفضل «أصدقاء في مواقع

[293] Lagana, op.cit., p.139.
[294] Ageron, Les Algériens musulmanes…, p.1001.

جيدة»، رفع الحزب الكولونيالي ، منذ سنوات 1880، و"خارج صحافته الخاصة به"، مِنْ أهميته وسط الصحافة اليومية والأسبوعية (**لوفيغارو، لوطون، لاريفو دي دو موند** (مجلة العالَـمَيْن)، **لوجورنال دو ديبا** (مجلة النقاشات)، **ليلوستراسيون**) "[295] . في الحالات الأخرى، كانت الإدارة تمتلك أسلحة مغايرة، مثل مقص الرقابة، وكذلك جرائد قوية مثل **لوكوريي دورون** التي كانت تحاول أن تعارض بها **ليكو دورون** (صدى وهران).

مرة أخرى، سجَّلتْ الذكرى المئوية في هذا المجال، ذروةً في حركة استغلال الثقافة. في مراسلة للمحافظ العام للذكرى المئوية، موجَّهة إلى مدير الشؤون الأهلية، في 27 مارس 1929، يمكننا قياس أهمية الصحافة في الحملة الدعائية: "يشرفني أن ألفت انتباهكم إلى الفائدة والفرصة المتاحة اللتين تمنحهما حملة دعائية في الأوساط الأهلية بمناسبة احتفالات

---

[295] Lagana, op.cit., p.139.

1930. يبدو ممكنا، في الواقع، أنْ ننشر باللغة العربية، في جريدة ***المبشِّر***، سلسلة ذات طبيعة تُمَكِّن العناصر الأهلية من مراعاة نتائج ودلالات الإنجاز الذي حققته فرنسا منذ قرن (...)"[296]. وقد حدَّدت السلطات أنَّ على مقالات الدعاية للذكرى المئوية بالضرورة لكي تلعب الدور المنوط بها، أنْ تستند إلى مصادر صلبة وموثوقة (أرشيفات الجزائر المكَّملة بتقارير ودراسات وإحصائيات ورسائل علمية عديدة من كل نوع، التي تكون قد نُشِرت منذ بداية الغزو: «وُضعت أدوات مهمة، بأوسع قدر، تحت تصرف الصحفيين، والأدباء، وحتى كُتَّاب الرسائل العلمية، الذين كان دورهم يتمثل في تحرير المقالات الوثائقية، والمختصرات العامة التي ستنشر في الصحافة وغيرها في البلاد كلها»[297]. ومن جهة أخرى، تعاون أساتذة الثانويات المختلفة لأجل هذه الدعاية بطلب من المحافظ

[296] CAOM, 64 S\ 62, articles de propagande à l'occasion du Centenaire de 1930.
[297] Ibid.

العام للذكرى المئوية وذلك عبر تحرير مقالات عن مختلف المسائل التي تهم المستدمَرة.

2. الصحافة المكتوبة بالعربية.

كانت السياسة الثقافية إزاء الصحافة المكتوبة بالعربية تشمل جانبين. يتمثل الأول في إصدارها مباشَرة، كما حدث مع ***المبشِّر**** منذ 1847، الطبعة العربية لـ **مونيتور**** الجزائر، وبالتالي لسان حال الحكومة العامة بالجزائر. كانت هذه الأخيرة تبث المعلومة الرسمية ومقالات تاريخية أو علمية تبسيطية. بين 1898 و1914 تضاعفت الدوريات باللغة العربية، واندثر كثير منها سريعا، بيد أنَّ بعضها تطوَّر مثل **كوكب أفريقيا*** (1907) "التي كان مسؤولُها **بن كحول**** منتميا إلى فريق ***المبشِّر*** الموضوع تحت السلطة اليقِظة لمديرية الشؤون الأهلية"[298]. وقد

* أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 221/5-231. طبعة البصائر2009.
** أنظر: المرجع السابق. 214/5-215.
* أنظر: المرجع السابق. 246/5.
** الشيخ محمود كحول.

[298] Bencheneb, loc.cit., p.20.

امتلكت السلطات بوساطة هذه الصحافة المعرَّبة، وسيلةً سهلةً للدعاية الثقافية، لم تتردد في استغلالها سِيَّما مع محاولة انتقاء المعلومة. لا شيءَ أبسط مِنْ إسكاتِ حدثٍ مُزْعجٍ، كان بإمكانه أنْ يُحْدثَ فوضى، ويُذَكِّيَ سخط الأهالي، أو -عكس ذلك- مِنْ توضيحٍ لاكتشافٍ أَثَرِيٍّ كان بمقدوره شرعنة الوجود الفرنسي أو لفكرةٍ تُريحُ النظامَ القائمَ. يشرح **رشيد بوشارب** بشأن هذه المجلات قائلا:"كان أثرها على الرأي العام الإسلامي شبه معدوم بحكم أنَّ المسلمين كانوا يرون في هذه الإصدارات أدوات دعائية لصالح السياسة الفرنسية بالجزائر والعالم الإسلامي"[299]. وحسب **كريستين دروو** و**أوليفيي فيرنيو**، كان حذر الأهالي متأتيا كذلك من كونهم "يَشُكُّون في أنْ تكون المقالات العربية مكتوبة من إسرائيليين"[300]. ورغم ذلك كان للأخبار المنشورة بهذه الصحف أثرٌ معيَّن، بقدر عدم معارضتها قليلا أو كلية، مِنْ صحافة مناوئة. وهذا بلا

[299] Ibid., p.20.
[300] Drouot et Vergnot, loc.cit., p.33.

شك أحد الأسباب التي استمرت الحكومة لأجلها في هذه السياسة خلال سنوات عديدة.

وإذا كانت السلطاتُ قد راقبت أو دعَّمت جزءً من الصحافة المكتوبة بالعربية، فقد عارضت بعضَ الدوريات التي كان لبس خطابها يُقْلِقُها***. وكانت ***الأخبار*******، التي أعاد شراءها **فكطور باروكان**، ضمن هذا الصنف، الأسبوعية الوحيدة المزدوجة اللغة خارج دائرة ***المبشِّر***، وقد ظلَّت موجودة إلى غاية 1934، ولكنَّها واجهتْ عقباتٍ عديدة من الحكومة، التي لم تُيَسِّر الأمور لها دائما. مع أنَّ ***الأخبار*** كانت تنشُطُ من إرادةِ «دعم الحركة الثقافية الفرنسية». لقد كانت "أسبوعية إنسانية للوحدة الفرنسية-العربية.كان **باروكان** مَقُودا بإيمانه الصادق ومثاله الجمهوري، ولكنْ مع مراعاة مصلحة فرنسا، يرغب في تدشين سياسة جديدة، تَكِدُّ في تهيئة أرضية تَصَالح بين

*** لم تشر الكاتبة إلى صحف جمعية العلماء ولا صحف أبو اليقظان ولا صحف حزب الشعب.

**** أنظر: المرجع السابق. 5/215-216.

العنصريْن العرقييْن المكوِّنيْن للسكان، والمرتبطيْن حسب رأيه بالمصالح المشتركة"[301]. ويبدو جيِّدا أنه على الرغم مِنَ الصداقة الحميمة التي أظهرها له **الماريشال ليوتاي** والحاكم **جونار**، كان **باروكان**، الملكي أكثر من الملك، يُعَدُّ «مثيرا للشغب» ناشرا لأفكار «معادية لأوروبا»، بحيث أنَّ "الإدارة الكولونيالية لم تتأخر في القلق منه والقيام برد الفعل عليه. لم يقم **باروكان**، من وجهة نظرها، إلا بتوسيع الهوة بين المستدمِرين والأهالي. وانشغلت الإدارة والمشنِّعين على ***الأخبار***، بِنَقْضِ الصورة الممتازة للرَّجُل وصحيفته"[302].

لم تكن الصحافة والمعلومة معروضة لمن يشتريها في السياسة الثقافية لفرنسا، التي أحسنت استعمالهما لصالحها، وخنقَهما حينما كانتا تشكلان خطرا، مهما كان صغيرا. وكانت مقصُّ الرقابة ذات الغاية السياسية، بهذا الصدد، مساعِدا أساسيا للسياسة

[301] Ibid., p.32.
[302] Ibid.

الثقافية، بمقدار تمكينها من المراقبة الصارمة لبث المعلومة والثقافة في الصحف المكتوبة بالعربية، المرخَّصِ لها رغم اعتبارها خطيرة. كانت ***الفاروق*** المؤسَّسة بالعاصمة في 1913، تُقَدَّم من خلال مديرها** بوصفها «الإصدار الإسلامي الأول...المُنْشَأ على مبدأ الإصلاح الديني والاجتماعي» والحازم في «مقاومة البدع المنكرة والرذائل (شرب الخمر، الميسر، إلخ..)»[303] التي كان كثير من المسلمين يَعُدُّون تكاثرَها نتيجةً مباشِرة للأَوْرَبة européanisation. "هذا الرجل الذي كان يطوِّر فكرا مضادا بالأساس للإمتثالية، مبنيا على استعادة الثقافة العربية وتأكيد الوحدة الإسلامية، كان يُقْلِقُ مديري السياسة «الأهلية». وأصبحت الرقابة الممارسة على ***الفاروق*** مشدَّدة أكثر فأكثر، ولم تنتظرْ الرقابة وقتا طويلا كي

** أنشأ **بن قدور** *الفاروق* وهي من الصحف الوطنية الناجحة، لأن صاحبها قد تمرس على فن الصحافة، ولأن روحه كانت متقدة, وكان مؤمنا بالقضية العربية الإسلامية بحماس أورثه غضب الإدارة عليه. أنظر: المرجع السابق. 5/245-246 .

[303] Umar Ben Qaddur, directeur du journal. Cité par Bencheneb, loc. cit., p.20.

تُسْكِتَها كلية"[304]. وقد أُنْشِئت صحيفةٌ ثانية ***ذو الفقار*** * في السنة نفسها، «للدفاع عن السنة المحمدية ومحاربة البدع الشيطانية التي جرَّت المسلمين والمسلمات إلى الضياع»[305]. ولم تكن السلطات لتترك السير الحر لدورية "تثير الشعور الوطني لقرائها [...] وتنخرط بعزم في درب الحركة الوطنية". بعد منعها من الصدور سنة 1914، "أُوقِف مديرها، واتهم بالمساس بأمن الدولة، وحكم عليه بعقوبة حبس ثقيلة"[306].

ورغم رقابة المقص، "والمضايقات العديدة من سلطات المستدمَرة"[307]، استمرت الصحافة المعرَّبة بل تطورت: وقد نشأت ***الحق*** بوهران، ***المصباح*** بوهران، ***الإسلام*** ببونة، ***الإقدام*** ** بالعاصمة، ***التقدم*** بالعاصمة، بين سنتي 1901 و1923. ومن جهة أخرى، عثرت

---

[304] Bencheneb, loc.cit., p.20.

* أصدرها عمر راسم الذي كان يوقع باسم: أبو منصور الصنهاجي، ولكن لم يصدر منها إلا ثلاثة أعداد. أنظر: المرجع السابق. 247/5.

[305] Editorial du premier numéro, 5 octobre 1913 par Umar Rasim. Cité par Ibid. p.20.

[306] Bencheneb, loc.cit., p.20.

[307] Lanasri, op. cit., p.264.

** كان الأمير خالد هو رئيس تحرير القسم العربي فيها. وهي أول جريدة حادة اللهجة مع الفرنسيين مُعبِّرة عن مطالب المسلمين الجزائريين. أنظر: المرجع السابق. 241/5.

هذه الصحافة على مهرب فعال من المقص، بفضل ثغرة في نظام الرقابة تمكِّنُها من التعبير: ويتعلق الأمر بإصدار صحف باللغة الفرنسية، الأقل تقنينا بكثير. خلال فترة ما بين الحربين، أصبح خطر الصحافة المعرَّبة على السلطات ضاغطا أكثر، وفي عرضٍ قدَّمه الحاكم العام - الراغب في تقنينٍ أشدَّ صرامة- إلى لجنة أفريقيا الفرنسية، طَرَحَ أسبابَ تَخَوُّفِهِ وحَذَّرَ السلطات العمومية[308]:

> (...) في مواجهة أوراق كهذه (صحف باللغة العربية)، كنا مسلَّحين على نحو سيء وحسن في الوقت نفسه، بمعنى أنه يمكنني أنْ أقترح على الوزارة حظرها، ولكنَّ هذا، يتطلَّب بعض الوقت لأنني أفتقد وفدا دائما للقيام بذلك. ومن جهة أخرى، فإنَّ الصحيفة حتى في حالة حظرها، تَصْدُرُ مِنْ جديد وعلى أيدي الأفراد

[308] CAOM, 3 CAB 84, question indigene.

أنفسهم، والعنوان وحده هو الذي يتغيَّر. رغم ذلك، ولأن هذه صحافة تَشْعُر ببعض الحرج من أشكال الحظر هذه، فقد أصبحت تستعمل الآن إجراءَ الصدورِ باللغة الفرنسية، وعلى هذه الأرضية نحن مجرَّدون من الأسلحة تماما.

في الجزء المخصَّص للاستنتاج، كان الحاكم يقدِّم بعض الاقتراحات ونقرأ ضمنها :"يجب أنْ يكون مدير الشؤون الأهلية مختَصا، رجلا مثقَّفا بالعربية، أعني بـ "مثقف" ليس ممتلكا لناصية اللغة فحسب، وإنما للغة القرآن أيضا؛ وبهذه الطريقة يملك المدير على الأهالي السلطة الأخلاقية الكبيرة الملائمة". وهكذا، كان الحاكم يؤكِّد على أَّن العمل الأهم للسلطات العمومية، يجب أنْ يكون عملا في العمق، ولم يعد الأمر متعلقا منذ تلك اللحظة، بعلاج الانشقاقات بل بالوقاية منها، عبر ممارسة حركة سيكولوجية مهمة، وسياسة ثقافية منسَّقة بين الأدوات المختلفة الموضوعة تحت تَصَرُّفها

(تربيـة، ديـن، فنـون وثقافـة)، مـن خـلال تـأطيرٍ خفـيٍّ تُدَعِّمـه أدوات مسـاعِدة، متسلِّلة داخـل الوسـط الأهلـي، كانت تضمن بثَّ الأفكار المؤيِّدة لفرنسا.

و. الإذاعة*

ستشهد الإذاعة، بمناسبة الذكرى المئوية، تحليقها، باعتبارها سلاحا ثقافيا للنظام السياسي بالجزائر، بفضل استخدام جهاز فعال للبث الإذاعي (بث أقوى ثلاث أو أربع مرات من بث **برج إيفل**) الذي يزوِّد الجزائر بـ «أداة دعائية قوية». وكان محافظ الذكرى المئوية يعبِّر عن رضاه بهذه المبادرة المهمة:

> [...] من لا يرى الفائدة الكبيرة لبلدنا، في اكتساب أداةٍ قادرة على إسماع صوت قوي إلى أبعد الأعماق في القارة السمراء؟ واستفادةِ حملاتنا الجزائرية في الوقت نفسه، ومزارعنا المعزولة، كلَّ يوم، من حفلاتنا الموسيقية المحتَرمة جدا، التي

* نشأت الإذاعة بالجزائر سنة 1928، وكانت تغطي الأقاليم الثلاث الرئيسية: العاصمة، ووهران وقسنطينة. وكانت قوة الإرسال ضعيفة لا تتجتوز 500 كلم. وبمناسبة الاحتفال المئوي بالاحتلال عزم الفرنسيون على توسيع شبكة الإرسال وتدعيم قوتها حتى تصل إلى 12000 وات، وتصل من ألفين إلى ثلاثة آلاف كلم وكانت تسمى إذاعة مخطة الجزائر. (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 300/5. طبعة البصائر2009.)

يقدمها فنانونا، ومن المعلومات ذات الطابع التجاري والمالي والجوي، إلخ... المبثوثة لاحقا عبر الفضاء؟ إنها سلسلة غير منظورة ولكنها صلبة، ستربط بين جميع البيادق المفقودة في الزوايا البعيدة جدا من البلاد الأفريقية"[309].

[309] CAOM, 64S/51, Commissariat général du centenaire de l'Algérie, L'œuvre du centenaire, Par Gustave Mercier, Commissaire général du centenaire, Délégué financier, Membre du conseil supérieur de l'Algérie.

ز. المسرح والموسيقى

أظهر سكان الجزائر، منذ وصول المسرحية إلى المستدمَرة تذوقا قويا لها. كان الأوروبيون يعيشون منذ نهاية المرحلة العسكرية حياةَ لا مبالاةٍ يحتل فيها الأوبيرا والمسرح موقعا عظيما. وكان تعاون مهم فرنسيٌّ-إسلاميٌّ يتطوَّر، يُوَضِّحه مثلا الزوج **سانت-سنس/يافيل**-Saint[*] Saëns/Yafil أو عمل **محي الدين باش تارزي**[*] (مؤلِّف غنائية الجزائر الفرنسية ومترجم النشيد الوطني الفرنسي إلى العربية[*]). كانت الثقافة العربية تندمج شيئا فشيئا داخل

---

* كان معهد الموسيقى يحتفظ بقسم خاص عن الموسيقى العربية يشرف عليه السيد **ادمون يافيل**. وبعد وفاته تولاه السيد محيي الدين باش تارزي طيلة عشرين سنة. وكان **يافيل** محبا للموسيقى العربية، وقد عمل على نشرها والمحافظة عليها وأنشأ من أجلها فرقة (المطربية).

* بدأ باش تارزي حياته منذ سنة 1915 حزَّابا في الجامع الجديد، وقد ساعده حفظ القرآن الكريم على طلاقة لسانه وصفاء صوته. ومن المصادفات العجيبة التي شكلت منعرجا هاما في حياة باش تارزي أن يتسلل ثلاثة موسيقيين فرنسيين معروفين جدا آنذاك إلى المسجد لاكتشاف الأناشيد العربية الجزائرية وهم " موزينو لاو سيرور، ادموند يافيل، وسانت ساينس" وقد وقع في نفوسهم سحر صوت شاب يملك صوتا صادحا قويا، كان بالنسبة لهم كنز حقيقي سرعان ما تلقفوه وكان الأكثر تحمسا في هذا المشروع الصوتي الكبير إدموند يافيل الذي سيتحول إلى معلمه الثاني بعد المفتي بوقندورة ليرسم له الطريق نحو الخشبة من خلال إدخاله إلى جمعيته المسماة "المطربية" . بعد أشهر من العمل على صوته ساعده يافيل على تسجيل أغاني دينية في أسطوانات عام 1919 حققت نجاحا كبيرا . وقد ترك باش تارزي أكثر من مائة مسرحية مثلت كلها على خشبة المسرح أو الإذاعة. وقد عمل في مجال الغناء والطرب أيضا. كما نشط في الجمعية الفخارجية للموسيقى وجمع بين الأغاني الوطنية والدينية. وعاش إلى أن كتب مذكراته (1986). (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 451/6. طبعة البصائر2009.)

* ترجم النشيد الوطني الفرنسي إلى العربية سنة 1920، وصدح بغنائية الذكرى المئوية سنة 1930. (أنظر:

البُنى الثقافية للحضارة الغربية، وتتكيف ، وتتفرنس مع حفاظها على لغتها أو تقاليدها.وكان نشاط السلطات العمومية في هذا المجال طريقة ماكرة لرفع هيمنتها والتعلق بفرنسا. وسنحتفظ، مثلا، بواقع أنَّ عروضا كانت مخصَّصة أسبوعيا، للمسرحيات المقدَّمة باللغة العربية داخل قاعات الأوبيرا بالعاصمة ووهران. بمناسبة الذكرى المئوية، طَوَّرت السلطات العمومية مجدَّدا، البُنَى التحتية الموسيقية والأدوات المهيَّأة لنشرها. بواسطة الإذاعة، كانت الموسيقى تُنَشِّطُ حياةَ أشدِّ القُرَى نَأْيًا في البلاد، تُؤالِف الأهالي مرة أخرى مع الحضارة الغربية. عَرَف المسرح، على وجه الخصوص، مرحلةً مُزْهِرَةً. أخْرَجَتْ «دورةُ المدن الذهبية» Tournée des Villes d'Or عروضا للمسرحيات الكلاسيكية الكبرى، داخل الإطار الفخم للمُدَرَّجَات الرومانية، باعتبارها أقصى تظاهرةٍ معبِّرة

Dictionnaire des auteurs maghrébins de langue française .Jean Déjeux . p40 .1984 .Karthala.)

عن الانتماء اللاَتيني، للجزائر الفرنسية هذه. في الجزائر كما في الحاضرة الفرنسية، لم تكن الحياة الثقافية أبدا، مستقلة بالتمام عن السلطات العمومية. كانت السلطات تُدَعِّم باستمرار تظاهرات مسرحية من كل صنف (مهرجان gala، دورات...) وتُعَزِّزُ إعادة البث الإذاعي للعروض[310]. وكانت تموِّل البنى التحتية الثقافية (قاعات للعرض تحديدا) وتُقَدِّم جوائز ومِنَحًا لبعض الفرق. من جهة أخرى، كانت هناك ميزانية خاصة موجَّهة لهذا المجال.

كما هو الحال مع كلِّ ما يخص هذه المرحلة، نلاحظ الانبعاث الثقافي للمجتمع الأهلي. ولا يُشَكِّل المسرح العربي استثناء من القاعدة، فهو رفقة الحِرَف أو الأدب، في صفِّ الأدوات المهمة للسياسة الثقافية الفرنسية. بيد أنَّ ثمة تقييدا صغيرا: فهذه الثقافة الأهلية كانت مدعَّمة من السلطات العمومية، حينما كانت تُقدِّمُ علاماتٍ على تفرنسها، الذي عانت فيه المحرمات

[310] عثرْتُ في ***مركز الأرشيف لما وراء البحار*** على رسائل مختلفة بهذا الشأن.

الدينية من بعض الترتيبات؛ كان بثها (أي الثقافة الأهلية) مُيَسَّرا، باعتباره رمزا لحصيلةِ تعاونٍ ثقافيٍّ ناجحٍ. سهَّل بعضُ الفرنسيين مهمةَ السلطاتِ العمومية، بمساعدتهم على تفريخ ثقافة شعبية، كمدير مسرح العاصمة، **فكطور أوديزيو**، "الذي يَدِينُ له المسرح الجزائري الشعبي بالكثير"[311]. اختار الأباءُ المؤسِّسون لهذا القادم الجديد إلى المسرح الثقافي، وَهُمْ **علاَّلو** (واسمه الحقيقيُّ **سلالي علي**)، و**محي الدين باش تارزي**، و**رشيد قسنطيني**، اللهجةَ العاميةَ بهدف ملامسةِ أوسع جمهور ممكن، في هذا المجتمع ذي الأغلبية الأمية.

كان يمكن للمسرح العربي، أنْ يبدو أداةً رائعةً للسياسة الثقافية، حينما كان يعرض، كما فَعَل **قسنطيني**، اقتباسات عن **موليير** باللغة العامية. بيد أنَّ المسرح الشعبي أنجب أيضا مسرحياتٍ بإمكانها، أنْ تُشَكِّلَ تهديداتٍ سياسيةً عبر الرسالة التي تحملها، وكان

[311] Meynier et al., op.cit., Tome 2, p.176.

هذا يفرض على مقص الرقابة يَقَظَةً دائمة. فهذا **محمد ولد الشيخ** الذي انتهى من كتابة مسرحية، عَرَضَها سنة 1937 على **باش تارزي** كي يترجمها إلى العربية ويُخْرِجها. وعلَّق هذا الأخير، الذي كانت له علاقات جيِّدة مع السلطات الكولونيالية، قائلا «[...] كانت هناك نقمةٌ كليةٌ لشاب مسلم، يمنح هذه الأبويةَ التي تُوقِعُنا في شَرَكِها، حَقَّ قَدْرِها. ولكنَّ، هذه الرغبة كانت تُعَبِّر عن نفسها، بشكل عنيف فوق اللزوم، وهذا كيْ لا نندفعَ سريعا نحو الحظر. وبما أنه طلب مِنيِّ التكفل بالترجمة، فقد حملته في الوقت نفسه على قبول تلطيفات. وكانت النتيجةُ محافِظةً على فكر المؤلِّف دون أنْ تمنحَ سلطانا كبيرا لمقص الرقابة. هذه الرقابة التي محَّصت النص بدقة لكنَّها أعطت موافقتها» [...][312]. وما دام المسرح العربي لا يُشَكِّل تهديدا بعد، فقد استمر في التطوُّر، برضى السلطات العمومية

[312] Lanasri, op. cit., p.264.

ودَعْمِها أحيانا. واكتسب، كما سنرى، أهميةً عظيمةً بعد الحرب العالمية الثانية.

ح. تمثيل الآخر

1. ملصقات ورسوم إيضاحية وبطاقات بريدية

استعملت السلطات العمومية، بلا شك، حواملَ مختلفة لنقل رسائلها، بشكل مباشِر أكثر، وعبر حركات دقيقة، مِنَ الصعب تكميم تفاصيلها وتصنيفها بدقة. تمثيلُ الآخر وتمثيلُ الذات، عبر وسائط فنية وسوسيو-ثقافية، كما رأينا ذلك مع فن الرسم، هو مركِّبة أساسية للسياسة الثقافية. البطاقة البريدية، والملصقة كذلك، والرسوم الإيضاحية للكتب، والصورة تحت كلِّ أشكالها، كانت بهذا المعنى، أدواتٍ بسيطةً لنقل الصورة المُفَلْكلرة لمجتمع أهليٍّ، جامِدٍ داخلَ وقتٍ هو خارج الوقت، بلا ماضٍ ولا إمكانيةٍ للتطوُّر، في مقابل قوة كولونيالية متحضِّرة ومزدهرة. كانت هذه الدعاية تساهم في إقناع العالم والأهالي أنفسِهم، أنَّ الإمكانية الوحيدة للتقدم تمر عبر الأَوْرَبةِ

والإذعان الاختياري* لفرنسا. وقد أُبْرِزَ الانتماءُ الفرنسي والثقافةُ اللاَّتينية للجزائر الحَضَرِيَّة، على نحو سريع، بوساطة الأدوات الأولى للاتصال الجماهيري.

وغنيٌّ عن القول، أنَّ السلطات العمومية كانت تملك بحوزتها أدواتِ المساهمة في هذا المسار. لا وجودَ لإعلانٍ مجانيّ أبدا، ولدى الدولة إمكانيات متعدِّدة لتمرير إعلانها. لقد ضبطَتِ العادات في مجال الصور النمطية عن الأهليِّ، الفلكلوريِّ والمتخلِّف، وعن المدينة، المُؤَوْرَبة بإفراط، كرمز للتجذر الثقافي الفرنسي. وكانت سلسلة من البطاقات البريدية المعنونة «مشاهد ونماذج» تحصر الأهليَّ (العربي، البربري، اليهودي، الميزابي) في محيط معيَّن (أمام دكاكين الأسواق، داخل أزقة القصبة، تحت الخيمة...)، في حِرَفٍ محدَّدة «تقليدية» (حلاَّقو لِحَى، ماسِحو أحذية، موسيقيون، بغايا راقصات، نُبَلاء بالبرانيس...)، أو في نشاطات ثقافية «نموذجية» معينة (وضوء، صلاة،

* أو الإجباري.

كسكس...).كان الأهليُّ مقيَّدا داخل غُلٍّ ثقافي طريف. "كـان الاسـتدمار بحاجـة أيضـا إلـى بقـاء الجزائـر «غريبـة» مـن نـواح معيَّنـة، وهـي طريقـة للقـول بـأنَّ المجتمـعَ الأهلـيَّ كـان جامـدا، يحيـا داخـل خصوصـيةٍ خـارج الزمـان، وأنَّ التقـدُّم، وحتـى التـاريخ، لـم يكـنْ ممكنًا ورودُهما إليه إلاَّ مِنَ الخـارج"[313]. في المقابل، كانـت كليشـيهات المدينـة تُوَضِّـحُ انتماءهـا الفرنسـي. وكانـت الأحيـاءُ القديمـة، والهندسـة المعماريـة العربيـة-الإسـلامية أو التُركيَّـة، والمقـاهي الموريسكية، ضـعيفةَ التمثيـل. كانـت الأحيـاءُ الأوروربيـة مفضَّـلةً عليهـا، باعتبارهـا رمـوزا للنجـاح الثقـافي، كالنصُـب العموميـة والبلديات ومحطات القطار وقصـور العدالـة والمسـارح وقاعـات الأوبيرا والفنـادق الكبيـرة والحـدائق والتماثيـل والكنـائس والحـارات الكبيـرة والجمـاهير الأنيقـة علـى سطوح المقاهي والسيارات والتهيئة العصرية للأبواب،

---

313 François Pouillon, "L’ombre de l’islam, les figurations de la pratique religieuse dans la peinture orientaliste au XIXème siècle", Actes de recherche en sciences sociales 1988, n°75, p.32.

باختصار كل ما كان يُبْرِزُ محاسنَ ونجاحات حضارة الجزائر وتحوَّلها إلى قطعة صغيرة من فرنسا مزدهرة وسعيدة.

بالتوازي مع ذلك، كانت أفريقيا الرومانية وبقاياها ذائعة الصيت، "كان إبراز هذا الرابط الرمزي بين مجتمع وآخر، محفَّزًا بالانجذاب السياحي من جهة، وبالرغبة في شرعنة الهيمنة الحالية عبر استغلال العظمة الماضية"[314]. في بعض الأحيان، كان الأمر يُتَدَبَّر لتعزيز أثر هذه الرسالة فنيا، بِوَضْع المرحلتيْن القديمة والمعاصرة جنبا إلى جنب على الصورة نفسها (الواجهة الأمامية/الواجهة الخلفية). إنَّ "ميلَ الفرنسيين نحو إبراز الماضي الروماني لبونة وصورةِ القديس **أوغسطين** على حساب الماضي الإسلامي للمدينة، واضحٌ بيانيا عبر وضع الخرائب الرومانية والكاتدرائية التي شيَّدتها فرنسا، جنبا إلى جنب

---

[314] David Prochaska, "Reconstructing…", p.72.

[...]"[315]. يجب أنْ نُسَجِّل، بالإضافة إلى هذا، أنَّ بثَّ التصوير الفوتوغرافي والصورة بكل أشكالها، كان يُمكِّن من التعرُّض للاستقامة الدينية في إسلام مُعارض مبدئيا للتمثيل. وهكذا، كان المسلمون بتقبلهم لهذه الممارسات واستيعابهم لها، يُعَدِّلون الإسلام التقليدي لتكييفه مع الحضارة الغربية المهيمِنة التي تصبح جرَّاء ذلك مُعَزَّزَةً.

2. السينما*

عندما ظهرت السينما، قَدَّمتْ للسلطات العمومية وسيلةً أكثر لباقة، في نقلِ تمثيلٍ عن الواقع، يتوافق مع إيديولوجيتها، ويساهم في الدفاع عن مصالحها. في سنوات العشرينيات، رغم «التشجيعات الرسمية لِلِجانِ الدعاية الكولونيالية»، ورغم النشاط المطوَّر من المصلحة السينمائية للشؤون الأهلية التابعة للحكومة العامة بالجزائر، كانت السينما باعتبارها أداةً للسياسة

---

[315] Ibid. p.73.

* كانت السينما الفرنسية استعمارية في موضوعاتها وكانت مناظرها سياحية بالدرجة الأولى، وكان وجود الجزائري فيها بغرض السخرية منه. أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 302/5-305. طبعة البصائر 2009.

الثقافيـة، محصـورةً فـي إنتـاج الأفـلام القصـيرة وبثِّهـا. وعلى مقربة من الاحتفال بالذكرى المئويـة، علـى وجـه التحديـد، ستوسِّع السينما الدعائيـة (بمعناهـا الحصـري) نشاطاتها. كان عليها تعظيم فضـائل الإنجـاز الفرنسـي، باعتبارها دعمًا للسياسة الكولونياليـة. وتلك كانت علـى سبيل المثال، وجهةُ فيلم "*الرجال الجدد*" الذي أشـرف علـى تصـويره **ليوتـاي** Lyautey. وقـد جـاء "*البْلاد*" لـ**جـون رونـوار** Jean Renoir نفسـه ضـمن الإطـار ذاتـه، بحكـم انبثاقـه عـن طلبيـة رسـمية مـن الحكومـة العامة للجزائر إلى الجمعية الفرنسية لإصدار الروايات التاريخيـة المصـوَّرة. كانـت السـلطات العموميـة تريـد عمـلا علـى نطـاق واسـع «يسـتدعي العمـل الكولونيـالي الـذي أنجزتـه فرنسـا والجمهوريـة الفرنسـية بـالجزائر، خـلال هـذا القـرن، بتعـاون مـن السـكان الأهـالي»[316]. تختـار الإدارة نفسـها كُتَّـاب السـيناريو، **هنـري دوبـوي مازويـل** Henry Dupuy-Mazuel، صـاحب فـيلم

[316] CAOM, 64S /51, 2/04/1928, Le commissariat Général (Brunel), à la Société française d'éditions de romans historiques filmés (Paris).

"معجزة الذئاب" ، و**جاغر سميت** Jager Schmidt. كان الهدف اقتصاديا (5% من المداخيل) وسياحيا، ولكنَّه كان يتوخى أيضا «أنْ يُبَرْهِن عبر المثال الجزائري، ما قدَّمته فعلا مناهجُ الاستدمار الفرنسي، والردُّ بالتالي على مَنْ شَنَّعُوا** الإنجازَ الكولونيالي[317]». قرَّرت المحافظة العامة للذكرى المئوية، التابعة مباشرة للحكومة العامة بالجزائر، كذلك، أنْ تُدَعِّم عبر المنافسة بـ 150000 فرنكا، إنتاجَ فيلمٍ دعائيٍّ عن الجزائر بالألوان الطبيعية (طريقة **كيرل-دوريان** Keller-Dorian). كما طلبت أيضا فيلما دعائيا عن الهقار من **بروهو** Prouhou، وهو ناشرٌ ومصوِّرٌ من الجزائر. إنَّ قائمة الأفلام أو الأفلام القصيرة المنتَجة أو المعروضة على سبيل الدعاية خلال مرحلة الذكرى المئوية تجاوزت الحدود، وتبرهن على أهمية هذا السلاح الثقافي: *ساعة الصلاة*،

** شنَّع الشيء: قبَّحه. (المعجم الوسيط)

[317] Ibid.

زيارة العيساوة، *سقي الواحات في الجنوب الجزائري* إلخ.[318].

وسنشهد بعد الذكرى المئوية، عبر السينما، عودةً لتمجيد أبطال فرنسا الكولونيالية؛ وكان العسكريون والجنود هم النجوم، غالبا، ضمن تمثيل مُطَمئِن، مثاليٍّ وسلميٍّ تقريبا للغزو. كانت الوقائع السينمائية (*وحدةٌ فرنسيةٌ* كانت ترسم رحلة الرئيس **دالاديي** Daladier إلى أفريقيا الشمالية، *فرنسا إمبراطورية*)، ولكنْ سينما الخيال أيضا (*الرقيب X*، *المنبوذون*، *أحد أعضاء جوقة الشرف* (تُوِّج بجائزة السينما الفرنسية سنة 1937)، *حُرَّاس الإمبراطورية*، *رجل النيجر*، *أبناء المستدَمرة*، *درب الشرف*، *ثلاثة من سانت-سير*)، تحتفل بالإمبراطورية مدعَّمة بالسلطات العمومية. أمام هذا التمثيل البطولي، كان الأهالي مهمَّشين، ومُفَلْكلرين

[318] قائمة غير شاملة للأفلام التي قدمَّها باتي Pathé إلى مصلحة الجزائر:
Tannerie, Fécondation des palmiers Autres, Touggourt, Les grandes écoles d'Alger, Alger et son port, Manufacture de tapis, El Kantar, Le Koutf, Hammam-Maskoutiner, Fabrique de pates alimentaires, Récolte du liège, Ruines de Timgad, Djelfa, Autour de la Kabylie, Alger la blanche, Constantine…

غالبا، رغم محاولات التفاهم المتبادل ووجود تصوُّر أكثر انفتاحا على العلاقات الإثنية، التي توضِّح التوجه الجديد للسياسة الأهلية بكامل تعقيدها. وهكذا، سواء تعلق الأمر، بأفلام قصيرة رسمية، أو بوقائع سينمائية وحتى بسينما الخيال، كان يتكَشَّف عبر تناقضات السينما الكولونيالية كلُّ اللبس القائم في العلاقة مع الأهليِّ، كما هي عشية الحرب العالمية الثانية، تمزج الإعجابَ بها ومقتَها، التخوفَ منها والانجذابَ إليها، وتُمَثِّل البيانَ الأحسنَ لسياسة فرنسا والإعلانَ عمَّا سيُشكِّل بعد الحرب المشتعلة، تطوُّرا لهذه العلاقة ذات الأسس المفخَّخة بواقع المتطلَّبات الملازِمة لنظام الهيمنة. حاولت السلطات العمومية أنْ تَدْفَعَ هذه المحاولة التي بدت معضلة أكثر فأكثر، وطوباوية أكثر فأكثر، جرَّاء اللعبة المزدوجة إزاء الأهليِّ وثقافته، أيْ إشراكُه لأجل إدماجه على نحو أفضل وتطويره لأجل تهميشه أكثر.

الجزء الثالث

من حرب إلى أخرى (1939-1962):

السياسة الثقافية والبحث عن الإدماج

الحرب العالمية الثانية

ستكون الحربُ العالميـة الثانيـة، سببًا لوقـوع انقلابـاتٍ عميقـة فـي تطـوُّر وضـعية فرنسـا بـالجزائر. وستصـبح هـذه الأخيـرة مرمـى لـدعايتين، ستسـاهمان معـا بقـوة فـي إضـعاف سلطة الحاضرة الفرنسية علـى السكان المسلمين. ففـي المقـام الأول، أغرَقها مكتبُ المغرب العربي بالدعاية لصالح مغرب كبير موحَّد، نظَّمها المفتي السابق للقدس المؤيِّد* للألمان أمين الحسيني، وساهم فيها الألمـان. كانت هذه الدعايـة الإسلامية تنشِّط، بشكل خطيرٍ، يقظة الهوية الجزائرية التي كدَّت فرنسا في مكافحتها سنوات طويلة وعديدة. وفي المقام الثاني كان على فرنسا أن تواجه دعاية أمريكيـة "متَّهَمـة بالمسؤولية عن

* لم يكن الشيخ محمد الأمين الحسيني مفتي فلسطين مؤيدا للألمان بقدر ما كان يلتقى بأعداء بريطانيا في ذلك الوقت (هتلر وموسوليني) لإنقاذ فلسطين، وهو المحكوم عليه بالإعدام من بريطانيا التي طلبت الإتيان به حيا أو ميتا.

تمجيـــد الشـــعور القـــومي"[319]. كانـــت وزارة الخارجيـــة (الأمريكيـة) تؤكِّـد أن «الدعايـة الحربيـة للولايـات المتحـدة الأمريكيـة مسؤولة جزئيـا عن قفزة الانتمـاء القومي بأفريقيـا الشـمالية وعـن ارتبـاك المنطقة...وقـد أذيـع علـى نحـو واسـع ميثاق الحريات الأربع وسط السكان الأصليين خلال إنـزالات الحلفـاء لإيجـاد جـو ملائـم لقواتنـا"[320]. وفـي 1943، علـى الجانـب الفرنسـي، مـرَّر القائـدُ الأعلـى المـدني والعسـكري مذكِّرة متعلقة بالحالة النفسية للسكان الأهالي:"لقد انكشف أنَّ آثار دعاية، حرة تقريبا، على الأهالي [...]خلال عـامين، هـي أعمق مما كنا نتصـور. ولعـلاج ذلك، بحوزتنـا أسلحة يتكيَّـف مسارها مع الأهداف الواجب بلوغها"[321]. ومن هنـا، وُضِـعَت الدعايــةُ الفرنســيةُ التــي صَــنَعت أســلحتَها بالسياســة الثقافيــة ونمَّقـت فعاليتهـا بمناسـبة الـذكرى المئويـة، لصـدِّ هـذا الخطـر المـزدوج واسـتعادة قلـب السـكان المسـلمين إلـى صـف قضـية "الجزائر الفرنسية".

---

[319] Ageron. Les chemins de décolonisation de l'empire français, 1936-1956. Colloque organisé par l'IHTP 4/5 octobre 1984. Paris, Ed. CNRS. 1986. p.345.

[320] تقرير حررته وزارة الخارجية الأمريكية لصالح المجلس االقومي للأمن بشأن أفريقيا الشمالية-واشنطن، 28 ماي 1948 نقلا عن المصدر السابق ص 345.

[321] CAOM, 6 CAB 5.

أصبح المسلمون إذن، محلَّ كلِّ الاهتمامات. وكان نظام الرقابة المفروض جرَّاء حالة الحرب، يضعُ شروطًا خاصة جدا، تجري على كل ما يمسُّ المسائلَ المتعلقة بالعالم الإسلامي، وبالسياسة الخارجية للدول المسلمة، وبالمسائل العرقية أو الدينية[322]. وبصفة عامة، سيتعلق الأمر بوضع حركة سيكولوجية على عدة مستويات:

1) في المقام الأول، كان من اللازم إعادة التأكيد على وحدة فرنسا وسيادتها، الضروريْن للحفاظ على مصداقيتها. وتجلت هذه الإرادة بأشكال كثيرة منها تعليمة مهمة في سنة 1943 تقول:

> إنَّ تعليق المنشورات، والإعلانات الصغيرة، والشعارات والشارات وكذا أيقونات منتشرة بإفراط وتحت جميع أشكالها، كلُّ ذلك يوضِّح بشكل سافر غياب الوحدة بين الفرنسيين. وهنا عرضٌ لا يفهمه حلفاؤنا ويستفيد منه خصوم فرنسا. من المهم أن نضع حدا لذلك. لأجل هذا،

[322] CAOM, 6 CAB 5. Commandement en chef français civil et militaire, secrétariat à l'information "Nomenclature des consignes de censure", mai 1943, n° 1 – 15 pages.

ولكي نتجنب تأويلات تُحدِث غالبا الاضطراب في العقول، يقرِّر القائد الأعلى المدني والعسكري ابتداء من الآن، حظْر التماثيل والصور الفنية لشخصيات معاصرة، تحت أي شكل كانت، صورا فوتوغرافية أو زيتية أو تماثيل...إلخ، في كل الأماكن الرسمية، وحتى العمومية.[323]

2) في المقام الثاني، يجب أن نستعمل كل ما من شأنه إيقاظ الشحنة الوطنية الموالية لفرنسا لدى المسلمين. واعتُقِد أن صورة **الماريشال بيتان** Pétain التي كان المحاربون القدامى متعلقين بها جدا، قد تكون مفيدة. ولكنَّ هذه الدعاية، المنقولة غالبا عبر حركات، مثل *أصدقاء المحاربين القدامى* و*متطوعو الثورة الوطنية*، كان لها بين السكان الأصليين نتائج لم تكن في الحسبان. "حصلت دعاية **فيشي** Vichy بين سكان المغرب، على نجاح عُدَّ خطيرا بشجبه دون انقطاع لـ «النظام السابق» وتنديده بـ«فساد النظام المخلوع». وانتهى الأمر بتخوف المسؤولين

[323] CAOM, 6 CAB 5. Commandant en chef français civil et militaire, Giraud, Alger le 25 mai 1943, Note de service. Objet : effigies dans les lieux officiels et publics.

السياسيين من هذه الانتقادات، وتذكيرهم أنَّ على هذه الدعاية أن تظل مقصورة على الفرنسيين"[324].

3) في المقام الثالث، وهنا يَكْمُن الاعتبار الأهم بلا ريب. ستتوجب استعادة ثقة المسلمين بأي وسيلة، بأنْ نُبَيِّنَ لهم أنَّ فرنسا يمكنها الظهور بصورة المتسامح في المجال الديني وأنها تريد ذلك، وأنها لا تمارس تمييزا عنصريا وأن الاستدمار لا ينفي هويتهم الثقافية* والدينية. في خطاب رسمي بثته الإذاعة، كان **مارسيل بايروتو** Marcel Peyroutou، سفير فرنسا والحاكم العام الجديد للجزائر، يبرهن على هذه الإرادة المعلنة من السلطات العمومية في

---

[324] Charles Robert Ageron et al., Histoire de la France Coloniale, Paris, Armand Collin, 1990, Tome II, p.327.

* من الملاحظ أنَّ اضطهاد الاستدمار الفرنسي للمثقفين الجزائريين، موضوع لا يجرؤ كثير من الباحثين الفرنسيين على طرقه، إذ مع ثورة التحرير تصاعدت وتيرة الاضطهاد، من تعذيب وقمع واغتيال بطرق شنيعة. وقد شاعت قصص اغتيال الدكتور بن زرجب، والمحتمي ولد عودية، والمحامي علي بو منجل، وقاسم زيدون، والأمين العمودي، وأحمد رضا حوحو، والسعيد الزاهري، والعربي التبسي، والربيع بو شامة، وعبد الكريم العقون، ومولود فرعون....ومعروف أن الفرنسيين قد خصصوا سجونا معينة لكل فئة اجتماعية، وقد صدرت كتب في هذا المجال، منها "ضد التعذيب" لهنري سيمون، و"حرب الجزائر" لجول روا، وقد أسهم جان بول سارتر في الموضوع بـ "عارنا في الجزائر"، و"الجلادون"، وسارجان شريبر بـ "ليطنان في الجزائر" ، وهناك "الاستجواب" لهنري علاق الذي سلطت الصحافة الفرنسية الأضواء على قضيته، دون أن تذكر شيئا عن اختطاف الشيخ العربي التبسي، ولمالك بن نبي تحليل معمق للمسألة في كتابه "الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة". ويتحدث الشيخ محمد الصالح بن عتيق عن الشيوخ الذين التقاهم في السجن وهم: عبد القادر الياجوري، علي بن سعد، السعيد صالحي، محمد الشبوكي، أحمد سحنون، الجيلالي الفارسي، حمزة بو كوشة، مصباح حويذق، وجميعهم أعضاء بارزون في جمعية العلماء وفيهم الأديب والشاعر والخطيب والواعظ...وكان ذلك سنوات 1956-1959. كما ذكر الشيخ ابن عتيق: د.رابح كربوس، د.أحمد عروة، د.ابن خليل، د.بوعياد،د,جناس، د.ابن عربية، د.ماطي، د.بلوزداد، إضافة إلى طلبة الزوايا الذين كانوا يصرخون تحت التعذيب بالماء والكهرباء وقطع الأظافر. قد يقول قائل: إن هذا الاضطهاد شمل جميع أنصار الثورة بمن فيهم المثقفين. هذا صحيح، بيد أن اضطهاد المثقفين كان يستهدف في المقام الأول قطع الثورة عن روحها المحركة لها، باعتبار الثقافة أساسا لكل حركة ثورية. وإذا استحضرنا السياسة الثقافية الفرنسية طيلة فترة ما قبل الثورة، سنفهم أكثر لماذا يستهدف المثقفون جميعا بهذه الحملة الاستدمارية. (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 9/146-156 . طبعة البصائر2009.)

الظهور بصورة الراغب في التصالح مع مسلمي الجزائر حيث يقول:

قبل عشر سنوات، غادرْتُ الجزائر، كانت تبدو لي بلدا للتفاهم. أجِدُها اليوم في قمة الحرب، قلقة، مرتابة، بعد الكارثة التي كادت تودي بحياة فرنسا، العقول مرتبكة، ومجتمعنا يتأرجح بين مختلف التيارات الإيديولوجية والمحرِّكة للمشاعر. والآن وقد هدأت العاصفة حولنا، مِن الواجب المطلق والأوَّلي أن نستعيد عقلية العمل على الاستشفاء النهائي لفرنسا داخل الثقة والتقدير المتبادليْن.

(المشكلة الإسلامية)

أخاطِبُ أولا أصدقائي المسلمين، إلى 7 ملايين رجل يُشكِّلون الأغلبية الواسعة للسكان الجزائريين والذين هم الأقل استعدادا لاستقبال العاصفة الحالية، ويَبْدُون لي أكثر الأفراد معاناة. ليس هدفي في هذه الساعة هو طرح مخطط نهائي لسياسة المسلمين [...]

(المشكلة الاقتصادية والاجتماعية)

وضعتُ عن قصدٍ، على رأس هذا العرض المخصَّص للمسلمين، المشكلات المادية. هناك أهداف أخرى، وأهمها الهدف الثقافي والديني. نحن قوة إسلامية، أعرق من أنْ نجهل أن الروحانية الجزائرية مشكَّلة من عناصر متعددة كلها محترَمة وعلينا أن نمتنع عن التدخل فيما بينها. [...] دورنا هو أن نضمن للجميع، في إطار الهدوء والنظام، الممارسةَ الممكنةَ للإيمان. لن نخرج عن هذا. لن نتسامح مع أي شكل من أشكال التعصب ولكننا لن نقصي أي شكل من أشكال الورع [...].

(يعلن **بيروطو** أنَّ فرنسا ستدعو إلى تعاون القياد أصحاب أسمى مهمة، وهي كونهم أدلةً للرِّجال، وتطلق على سياستها للمسلمين اسم: برنامج السياسة الأهلية[325].

[325] CAOM, 6 CAB 5, (22/02/1943) (Brochure 15 pages).

نلامس هنا مسألة جوهرية أثارتها الحرب بحدة، وستشكِّل رهانا للسياسة الفرنسية بالجزائر إلى غاية الاستقلال. بالنظر إلى تطور الوضعية والقطائع الحاصلة خلال الحرب العالمية، لم يَعُدْ بإمكان فرنسا منذ تلك اللحظة أنْ تَأْمل في الحفاظ على الجزائر دون تقديم تنازلات كبيرة على المستويَيْن الثقافي والديني.

السياسة الثقافية بين 1945 و1956

مع أنَّ الكثير من مسلمي الجزائر كانوا قد قبلوا بمبدأ الوجود الفرنسي والتعاون مع فرنسا*، وقد كانت الجزائر تبدو أكثر تفرنسا من أيِّ وقت مضى. ولكنَّ، فكرة التحرر، الموضوعة تحت الأضواء خلال الحرب العالمية، والمشجَّعة لاحقا من سياق دولي ملائم، كانت تتقدم بخطوات كبيرة**. بعد يأس الأهالي من وعود فرنسا الكاذبة، كانوا يلوذون بخطاب عن الهوية. وبالجزائر، تصلَّب الجوُّ، وكانت الثقافة الغربية منبوذةً من هؤلاء «المثقفين» الذين يمكن لفرنسا أنْ تعتمد عليهم قبل الحرب العالمية. إنَّ الكينونة السياسية الجزائرية التي كان الوطنيون الجزائريون يطالبون بها، لم تكن مؤسَّسة على واقع سابق في وجوده للغزو، وإنما كانت قائمة على كينونة اجتماعية-ثقافية ودينية لم تنجح فرنسا في شل فعاليتها. على هذه الأرضية إذن، سيتوجب على فرنسا الاستمرار في الكفاح سعيا لإقناع العامة من الشعب، أن هذه الكينونة وهمية، ولكنْ مع أكبر الاحتياطات، وبمراعاة

---

* راجع هامشنا ص 34.

** لا نجاح لأيِّ ثورة بدون قوة داخلية، هي المحرك الأول، أما العامل الدولي فيبقى مساعدا ليس إلا. وهذا الكلام ينطبق على كل دعم خارجي للثورة الجزائرية.

الاستعداد الجديد للمسلمين. يتمثل الموقف الرسمي للحكومة العامة لأجل تحقيق هذا الهدف، في ترقية هذا «الانصهار» بين المكوِّنات المتوسطية، المختلفة ولكنْ داخل جزائر فرنسية[326].

كان على السلطات العمومية رسميا، أنْ تتقبل أكثر فأكثر وجود ثقافة عربية إسلامية وتُيَسِّر إطار تطويرها. وكانت تدعِّم أكثر فأكثر الفن والحرفة الأهلييْن. وكان الكُتَّاب من السكان الأصليين ينشرون أعمالهم بانتظام في باريس، وانبعثت اللغة العربية، وازدهر المسرح والصحافة الأهلييْن. وكأن فرنسا، ولأجل إثبات أن منافع الحضارة الغربية غير متوافقة مع بقاء ثقافة تقليدية، كانت تشجِّع هذه الأخيرة وتهدِّئ بالتالي التمرُّد المجلجل والرأي العام الدولي. مع أنها كانت، في الوقت نفسه، تعلم بجدارة أنَّ خمائر الاستقلال موجودة تحديدا في هذه الثقافة التي عليها ترقيتها، وهي العنصر الجوهري لوحدة السكان الأهالي. وذلك هو بلا شك السبب الذي لأجله عملت فرنسا، عبر السياسة الثقافية، كي

[326] Cité dans Jean Déjeux, "La revue algérienne Soleil (1950-1952)" fondée par Jean Sénac et les revues culturelles en Algérie de 1937 à 1962, Présence francophone, n°19, automne 1979. p.17.

تُبْقِيَ قبضتها على جميع هذه البنى الثقافية العربية الإسلامية. ويمكننا أنْ نعتبر، بهذا الصدد، أنَّ كونها الرائدة أو الوصية يخوِّلها في الواقع سلطة عظيمة.

مهما يكن من أمر، وحتى السنوات الأخيرة لحرب الجزائر*، ورغم هذا الاعتراف الثقافي بالواقع الإسلامي، فإنَّ السلطات كافحت لأجل فكرة الجزائر الفرنسية. في أفريل، أرسلت مطبوعة تشيكية مهمةٌ استبيانا إلى الوزير الفرنسي للتربية الوطنية، تَطْلب فيه دقائق عن النشيد الوطني الجزائري وتاريخه، وعُمْلة الجزائر، وأشهر الأغاني بها. بعد نقل هذا الطلب إلى نظيره بالجزائر لاقى الأجوبة التالية:«الجزائر المتكوِّنة من ثلاث مقاطعات فرنسية، ليس لها نشيد ولا عملة، خاصيْن بها، عدا نشيد وعملة الجمهورية الفرنسية» و«الأغاني المشهورة والمعروفة بالجزائر متطابقة مع تلك المشهورة والمعروفة بالحاضرة الفرنسية»[327]. وهكذا، أصبحت السياسة الفرنسية بين نارين، نار رغبتها في إبقاء الجزائر فرنسية ونار الضغط الدولي

* الثورة الجزائرية.

[327] CAOM, 9 CAB 74.

والأهلي المؤيِّد للاستقلال، وسيتوجب عليها أن تؤدي لعبة ملتبسة ومحيِّرة تبرِّر، أكثر من أيِّ وقت مضى، استعمال سياسة ثقافية فعالة. وسيكون لهذه الأخيرة وظيفة مزدوجة: لعب الورقة العربية الإسلامية، وتقديم علامات على حسن النية وعلى الليبرالية الثقافية، وبالتوازي، محاولة التقدم بالثقافة الفرنسية وفكرة فرنسا لدى السكان الجزائريين، الذين كانوا في اعتقاد فرنسا، أقرب إليها وأكثر من أيِّ وقت مضى.

حرب الجزائر، انتصار الحركة السيكولوجية

سجلت حالةُ الحرب التي ميَّزت كل نهاية هذه القصة، ذروةَ السياسة الثقافية، من خلال مَنْهَجَتِها. وسيمكِّن مجيءُ النظام العسكري من الوعي بها بتعزيزه لها.

وانكشف سريعا، أنَّ المناهجَ العسكرية الكلاسيكية غيرُ فعالة في مواجهة عدوٍّ يقود حرب عصابات، يتمثل هدفها الأول في الغزو الحسي، والمعنوي على وجه الخصوص، للجماهير. وكان على فرنسا أن تتكيَّف مع الوضع وتفكِّرَ في وسائل أخرى للكفاح. كان عليها لقتال الفلاقة**، الحفاظ على دعم السكان أو كسبهم لصالح بقائها في الجزائر[328]. "لم يعد الرهان يكمن أساسا في غزو الأرض، وإنما في الغزو السياسي والسيكولوجي والأخلاقي، وعلى كل المعسكرات الموجودة أن تُعْنى بغزو الجماهير، بمراقبتها وكسبها إلى صف قضيتنا وتحريكها لصالحها[329]. بين خريف 1954 ونهاية 1955، أنشأ الجيش -الذي أدرك شيئا فشيئا رهان

** المجاهدين (الثوار).

[328] لدراسة مفصلة عن الاستيراتيجية الجديدة التي ستتبناها وتكيفها فرنسا، هناك عمل **بيير سيريل بهلوي** Pierre Cyril Pahlavi *الحرب الثورية المعلنة من الجيش الفرنسي بالجزائر (1954-1958)*، مذكرة تخرج، جامعة صوفيا- نيس- أنتيبوليس، 1997، الذي يُعَدُّ وافيا جدا حول المسألة. (في طور الصدور عن دار لارماتان)

[329] Raoul Grardet, L'idée coloniale en France, Paris, La Table Ronde, pp.250-251.

الكفاح المباشَر- مذهبا جديدا ونظَّم بنى متكيفة تمكِّن من تنفيذه. وقد رَسَّم إنشاءُ مكتبٍ للحركة السيكولوجية بالمنطقة العسكرية العاشرة في جويلية 1955[330]، الوضعَ الفعليَّ للاستيراتيجية الجديدة، وأعطت تعليمةٌ في أكتوبر إشارةَ الانطلاق لـ«السلاح السابع». كان على الحركة السيكولوجية أن تُمكِّن من «الطرح الخدماتي المنهجي لإجراءات ووسائل متنوعة مهيَّأة للتأثير على آراء خصومٍ مُعْلَنين (جيشا وسكانا) وعلى مشاعرهم ومواقفهم وسلوكاتهم، وهذا باتجاه يخدم الخططَ والأهداف، التي عرَّفتها الحكومةُ والقيادةُ بشكل يُضْعِف إرادةَ المقاومة المعادية»[331]. منذ تلك اللحظة، ستخدم طرائق محددة وتنظيم دقيق هذه الاستيراتيجية، التي أُريد لها أن تكون«تعبيرا عن سياسة معرَّفة جيِّدا»[332].

ستغدو الحركة السيكولوجية، بين سنتيْ 1955 و1958، السلاحَ الأساسي «للحرب الثورية» والمنتهى

[330] SHAT, 1H 2408, Directive sur l'action psychologique sur le territoire de la Xème région militaire – Alger, 27 juillet 1955 – Le général Lorillot.
[331] SHAT, 1H 2408, Directive sur la guerre psychologique – Ministère de la Défense et de forces armées – Etat-major des Forces armées – Bureau psychologique – 4 octobre 1955 – signée Koenig, ministre de la Défense nationale et des forces armées.
[332] SHAT, 1H 2409, Extrait du rapport du commandant supérieur interarmées, commandant la Xème RM – Secrétariat d'Etat aux forces armies «terre» - Etat major de l'armée – 3ème Bureau – colonel Capodanno, chef du 3ème bureau de l'EMA – à l'Etat-major de l'Armée Bureau moral et informations.

العسكري للسياسة الثقافية، مكثَّفة على وجه الخصوص بالجزائر. وقد عُدِّلت وأعيدَ تعريفها وحُسِّنت وكُثِّفَتْ (سيما مع إنشاء مكاتب خامسة في 1957 والتعليمة TTA 117). وُضعت وسائلُ متنوِّعة للعمل كَمَّلت جهازَ السياسة الثقافية الكلاسيكية، المُدمَج هو الآخر والمكثَّف والمؤدلَج (الثقافة العربية الإسلامية، اللغة، الفنون الجميلة، وسائل الإعلام، الثقافة بكل أشكالها): الصحافة (نشْرُ صحيفة البلاد، تحرير نشرة رسمية، استعمال مقالات من الصحافة العالمية لأغراض الدعاية المحلية)، السينما المتنقلة (cinébus)، حركة شركات مكبرات الصوت والمنشورات، الإذاعة (التي "هي لحرب الجزائر كالرشاش لحرب 1914 وكالدبابة لحرب 1940"[333])، التأطير الإداري والاجتماعي- السياسي للسكان عبر المصالح الإدارية المختصة SAS والمصالح الإدارية الحضرية SAU. أصبح الجنديُّ مربِيًّا ومؤتمنا على الأسرار، وكُلِّفَ بالاندماج في الحياة اليومية للأهالي، إذ عليه التقرب منهم وتحصيل انخراطهم الثقافي والسياسي. سعت الدعاية المباشَرة لـ «تهييج السكان لإعطائهم أسبابا للحماس

[333] CAOM, Aff pol FM71, Coordination des émissions radiophoniques concernant l'Afrique du nord.

بإمكانهم تَقَاسُمها مع فرنسيي الجزائر والحاضرة الفرنسية»[334]. وبالإضافة إلى هذا، ستتطور إيديولوجيةٌ سياسية، كلازمة ضرورية لـ «الحرب الثورية»، داخل صفوف الجيش، باعتبارها تبريرا ثقافيا لهذه الحركة السيكولوجية، وإجماع القول على صيغة «الإندماج»[335] integration، البديل الجديد لإيديولوجيتي الإدماج والتشارك، اللذين لم تَثْبُتْ قدراتهما.

---

[334] SHAT, 1H 2403, Objet : renforcement des moyens de l'action psychologique pour l'Algérie et création de trois unités tactiques de guerre psychologique – par le secrétaire d'Etat aux forces armées «terre» - Etat major de l'armée – cabinet section psychologique et du moral – le 23 juin 1956.

[335] Voir Pahlavi, op.cit

الفصل السابع

الثقافة موضوعًا للنقاش

أ. الثقافة العربية-الإسلامية، سياسة ثقافية ملتبسة.

1. دفاع ودعم.

كما هو الحال قبل الحرب العالمية، ولكنْ على نحو أكثر بروزا، واصلت الحكومة انطلاقا من 1945 الهدف الذي حدَّدته لنفسها، وفرَضَه -كما يبدو – السياقُ السياسي على نحو لا يقاوم. وهو مراعاة الثقافة العربية الإسلامية ودعمها بكل أشكالها (دين، لغة، ثقافة شعبية، تربية إسلامية، فنون جزائرية، مسرح، إلخ...)، ليس بوصفها ثقافة ماضوية جامدة، وإنما باعتبارها واقعا ثقافيا كامل الحقوق. ونالت الشعائر الإسلامية استقلاليتها مع القانون الأساسي لسنة 1947، وشهدت اللغة العربية - التي أصبحت لغة الإمبراطورية – تدريسَها المنظَّم على جميع المستويات. بعد الحرب العالمية الثانية، أخذت كذلك – حركة النهضة في الفن الأهلي، المصمَّمة منذ 40 سنة – كل اتساعها، وشهدنا تشجيع فرنسا بطرق شتى للفنانين الذين زاد عددهم. بعد

راسم، كانت **بايا** هي الأولى في هذه السلسلة الجديدة، "مدفوعةً برعاية قاعة عرض Maeght إلى الأوساط الباريسية"[336]. وعندما أشْعرَ النائبُ عن قسنطينة، فرحات عباس، في رسالة لاذعة جدا، الحاكمَ بوضعية مدرسة الزخرفة بالجزائر العاصمة، وبمحاولة الإغلاق التي كانت ضحية لها، بَلَغه ردٌّ هذا الأخير الذي قال إنه «يولي شخصيا اهتماما حيويا» لهذه المدرسة، التي «لم يكن في النية أبدا» إغلاقها، بل على العكس من ذلك، «يجري البحث حاليا، عن مقرات لضمان احتضانها وتوسيعها»، وأنه يقترح «تزويد هذا التعليم بانطلاقة جديدة في إطار تجديد الحِرف على المستوى الفني والتقليدي»[337].

من بين هذه المبادرات، كانت الحركات الدقيقة أكثر تواترا من الحركات الواسعة. في 1946، تساءل **برطون**[338] Berton، مدير ديوان الحكومة العامة إنْ لم يكن مناسبا أن تشتري الحكومة العامة أعمالا لصُنَّاع الخزَف الذين يعرضون أعمالهم في الدائرة الفرنسية-الإسلامية، ولطلبة

[336] Pouillon, "Echange agonistique…", p.168.
[337] CAOM, 8 CAB 15, 11 octobre 1946.
[338] CAOM, 8 CAB 15, Note date de mai 1946, Signée Le chef de cabinet.

مدرسة الفنون الجميلة. كان يقترح اقتناء عمل من فنَّان أوروبي وآخر من فنَّان مسلم. «رغم أن اقتناءات كهذه لا مكان لها حاليا بمتحف الفنون الجميلة، يمكن الشروع حسب رأيه في ابتياعات لصالح الإقامة». في السنة اللاحقة، يُعلِن الحاكم العام -الذي كان يرغب أن تصبح وظيفة المكلفين بدروس الفن الإسلامي «متوافقة مع مكافأة تناسبها»- **لراسم** وتسجيلا لاهتمامه بأعماله أنه « تقرَّر ابتداء من 1 جانفي 1947، رفعُ التعويض الممنوح له إلى مبلغ 4000 فرنك شهريا[339]». كما عملت السلطات كذلك دائما، على أن يكون ضمن الفائزين بالجوائز الأدبية والفنية عدد معين من المسلمين. ففي جانفي 1955، مثلا، وعقب الآمال التي صاغها نواب بلاد القبائل، منحت الحكومة العامة جائزة شرفية كبرى لـ **مولود أزواو** بعد وفاته، وهو فنان ورسام[340]، وقد أُسِّسَت جائزة أدبية «مخصَّصة لمكافأة مؤلِّف أحسن كتابٍ في التاريخ، والعلوم والأدب، محرَّرٍ بالعربية الفصحى ويعالج موضوعا جزائريا بشكل خاص»، وهذا بقرار 27 أفريل 1948 مزوَّدٍ بمنحة مقدارها 50000

339 CAOM, 9 CAB 74.
340 CAOM, 11 CAB 39.

فرنك[341]. في سنة 1952، اقترح الحاكمُ العام أن تكون المنحة دورية مع رفع قيمتها. وقد رُفِعَت قيمة الجائزة باستمرار إلى أن توقَّفت.

2. تحكم السلطات.

رغم ذلك، إذا درسنا معظم المبادرات المتخذة في المجال الثقافي والتربوي، عن قرب، نجدها تبيِّن في الواقع التحكمَ السريَّ للسلطات العمومية في الثقافة العربية-الإسلامية. فقد أُلحْق تدريس الفن الإسلامي لمدرسة الحرف الأهلية للعاصمة (منمنمات، فن الخط والزخرفة، رسم وتزيين موريسكي، تغليف كتب، الفن والسيراميك) سنة 1940 بالمدرسة الوطنية للفنون الجميلة بالعاصمة. وفي الاتجاه نفسه، كان انضمامُ المدارس سنة 1944 إلى نظام المؤسسات الثانوية، ، حبسًا نهائيا لها داخل الإطار التربوي المؤسسي الفرنسي، حيث تحولت إلى «ثانويات فرنسية-إسلامية».

---

[341] CAOM, 10 CAB 163.

كما أسَّست الإدارة أيضا معهدًا للدراسات الإسلامية (القسم الأعلى القديم للمدرسة) سنتيْن بعد ذلك بالعاصمة، الذي أصبح مكلَّفا، تحت رقابة السلطات العمومية، بتهيئة القضاة المسلمين، وأساتذة العربية، والموظفين، والمترجمين. بمواصلة هذا الفرع السيرَ نحو وجهة المدارس، عبر إفراغها من كل مادة مُنَفِّرة، وتنظيمها لتكوينٍ أكثر تأقلما بوجه خاص مع حاجات المستدمَرة، "كان (أي الفرع) يُخَرِّجُ رجالا كاملين، منفتحين على العالم الحديث مع بقائهم مرتبطين بأحسن ما في تقاليدهم"[342]. كان المعهد يشتمل سنة 1954على ثلاث شُعَب تحضِّر لثلاث أنماط مهنية: تكوِّن الشعبة «التقليدية» موظفي العدالة الإسلامية عبر دراسة الفقه الإسلامي، وتكوِّن الشعبة «البيداغوجية» أساتذة العربية للابتدائي والثانوي عبر دراسة اللغة والأدب العربي، مع تاريخ وجغرافية أفريقيا الشمالية، وأخيرا تكوِّن الشعبة «الإدارية» موظفي الإدارة عبر دراسة القانون الفرنسي، والترجمة، وتاريخ وجغرافية أفريقيا الشمالية. في بداية حرب

[342] Pervillé, op. cit., p.26.

الجزائر*، أبدت السلطات الواعية بأهمية هذا المعهد في محاربة التطرف والحركة الوطنية، إرادةً في تطوير هذا المسلك التكويني، ورفع مستواه وجعله «مركزا مهما للثقافة العربية الإسلامية» ولكنْ تحت الرقابة الفرنسية. ويمكننا أن نلاحظ بهذا الشأن، أنَّ 40% من مِنح الحكومة العامة للجزائر سنة 1954، أسندت إلى طلبة المعهد (33)، أي ما يعادل عدد المنح المقدَّمة إلى طلبة الكليات الأربع لجامعة الجزائر (34)[343].

رغم أن النظام الأساسي قد منح الشعائر الإسلامية واللغة العربية نشاطا جديدا، فقد اعتُبِرَ تدخلا من الحاضرة الفرنسية ورفضه الجزائريون المسلمون. بترسيم العربية لغةً للإمبراطورية، لم تكنْ مع ذلك إجبارية و«قدَّم مفتشو التعليم الابتدائي في مارس 1954، مُذَكِّرة ضيقة الأفق، حيث يجعلون من العربية العامية لهجة محلية، ومن العربية الفصحى لغة ميتة، ومن العربية المعاصرة لغة أجنبية؛ وخَلُصوا إلى التوصية بإبعاد تعليم هذه اللغة معتبرين إيَّاها

---

* الثورة الجزائرية.

[343] Gouvernement général de l'Algérie, Exposé de la situation générale de l'Algérie en 1954, présenté par M. Jaques Soustelle, Gouverneur général de l'Algérie, avec la collaboration de Maurice Cuttoli, secrétaire général du GGA, pp.502-503.

في هذا البلد، شكلا قمعيًّا للتعريب»[344]. وللمفارقة، وبينما كانت العربية رسميا أكثر حضورا من أي وقت مضى، والسلطات تبدو راغبة في تطويرها، كانت أكثر عرضة للتهميش من المرحلة السابقة. "كيف التعجب منذئذ، إذا كانت الجزائر في سنة 1954 لا تضم معرَّبين أكثر مما تضمه فرنسا من متخصصين في اللغة والأدب اليونانييْن؟"[345]، كما يلاحظ ذلك **جورج مارسيه** Georges Marçais. وتشير الأرقام المقدَّمة من الحكومة العامة أن 6554 طالبا اختاروا العربية الفصحى لغةً أولى حية، في حين أن 23635 اختاروا الإنجليزية. فيما يخص اللغة الثانية تأتي الإسبانية (5915 طالبا) قبل العربية العامية (4154 طالبا)[346]. في 1954، "كان ثلاثة أرباع المتعلِّمين، كليا أو جزئيا، ذوي ثقافة فرنسية"[347]. وهنا يكمن هدف السياسة الثقافية، إعطاء الانطباع بدعم الثقافة الأهلية في حين يتم تحكُّم السلطات فيها، ومحاصرتها واحتواؤها لها، وضعفها على مستوى الممارسة تبعا لذلك.

[344] Pervillé, op. cit., p.26.
[345] Cité dans ibid., p.26.
[346] Gouvernement général de l'Algérie, Exposé de la situation générale de l'Algérie en 1954, op. cit., p.485.
[347] Pervillé, op. cit., p.27.

3. توضيح لهذه اللعبة المزدوجة، المسرح باللغة العربية.

يُشكِّل المسرحُ باللغة العربية البيانَ الأكثر صراحة، لِلُبس السياسة الثقافية الفرنسية ولأسبابِ موقفها هذا. فمن ناحية، أظهرت فرنسا في مناسبات عديدة إرادةً في تطوير الفنِّ الإسلامي والمسرح الشعبي خصوصا. وفي بعض الأحيان، كانت تأتي المبادراتُ الثقافية من الحاضرة الفرنسية مباشَرة. وتُعْلِمُ مديرة المراكز الجهوية للفن الدرامي، سنة 1949، الحاكم العام بـ:

> المجهودِ الذي يبذله حاليا المركزُ الجهوي للفن الدرامي لمصلحة الجزائر، وهذا لأجل إلغاء المركزية الفنية، وهو الذي (أيْ المركز) تَلْقَى فيدراليته الوطنية بالحاضرة الفرنسية وصايةَ وزير التربية الوطنية ودعمَهُ (مديرية الثقافة الشعبية ومديرية الفنون الجميلة). وتكِدُّ **المراكز الجهوية للفن الدرامي لوكراد** C.R.A.D فرع الجزائر، المشكَّلة في هيئة للتكوين والإعلام

والربط، لتطوير حياة درامية نوعية عبر البلاد كلها، باللغة الفرنسية والعربية. هي تقف اليوم وراء تحليق المسرح الإسلامي للهواة، وتَأْمَلُ في التَّوَصُّل خلال السنوات القادمة، إلى استخراج شكلٍ جديدٍ للتعبير المسرحي، مِنْ داخل التيارات الثقافية المختلفة التي تلتقي بالجزائر.[348]

كانت السلطاتُ تَتَحَدَّث مسرورة عن «الجهود المطلوبة لصالح تجديد الموسيقى والمسرح العربي»[349]. ويبدو بهذا الصدد، أنَّ الحصص باللغة العربية التي تبثها إذاعة الجزائر، قد ساهمت في ذلك على نحو واسع، بسعيها إلى إنشاء مدارس للموسيقى وفرق كلاسيكية وحديثة، باللجوء إلى القيام بتسجيلات وتحديث للقطع العربية الكلاسيكية «التي يعرفها موسيقيون شيوخ فقط»[350]، وباستعمال ناشطي المسرح الأكثر شعبية وبالترجمة إلى العربية لمسرحيات **موليير** وحكايات **برنو** Pernault لاقتباسها وتحويلها إلى

---

[348] CAOM, 9CAB/74.
[349] CAOM, 9CAB/74, pour le chef de cabinet du gouverneur général de l'Algérie. S/C le secrétaire général du gouvernement, Alger 18 Avril 1947, Objet : Projet de M.Mari relatif à la formation d'une troupe de théâtre en langue arabe.p.2.
[350] Ibid.

البث الإذاعي. وحينما التمس **الأستاذ ماري** مدير مسرح وهران، سنة 1947، من الحكومة العامة للجزائر دعما مهما لتشكيل فرقة للمسرح، والرقص والموسيقى والعروض باللغة العربية، تقوم بجولات في المدن الرئيسية الساحلية والداخلية، أبدت السلطات حماسة عظيمة وقدمت ملاحظة عن «الاهتمام الذي توليه السلطات العمومية لهذا المشروع، بل لكل المشاريع الموجَّهة نحو الأهداف نفسها المرجوة من ترقية الثقافة»[351].

من ناحية أخرى، بدا في مناسبات عديدة، أنَّ هذه الإرادة في تجديد المسرح العربي ترافقت، بشكل محيِّر، مع إجراءاتٍ رقابية فعالة،لم تمر دون إثارة مظاهرات مستنكِرة لها. في سنة 1946 كتبت سلطات الحاضرة الفرنسية إلى الحكومة العامة كي تحثها على توخي الحذر، نظرا لبروز أمارات الاستياء على الأهالي:

> يُشَرِّفني أنْ أُعْلِمَكُمْ، أنه تبعا لطلب صاغه السيد: **بابا أحمد محمد**، رئيس الفرقة المسرحية "الكوكب الإسلامي التلمساني" لأجل القيام بدورة

[351] Ibid., p.1.

تمثيلية في المقاطعة، ردت محافظة وهران بالرفض. اسمحوا لي أنْ أثير انتباهكم إلى أنَّ إجراءً كهذا، إذا أضيف له إغلاقُ مدارس عديدة، وتقنينُ التعليم الخاص، ونظام الصحافة العربية، سينزع نحو الدفع إلى الاعتقاد بوجود مخطَّط عام يهدف إلى هدم الثقافة العربية في الجزائر. ضف إلى هذا، أنَّ المؤكد هو وجود فرقة إسبانية بوهران، تُقَدِّم تمثيليات على مسارح هذه المدينة (...)[352].

بعد مطالبة الحاكم العام بتفسيرات مِنَ المحافظ، ردَّ عليه هذا الأخير بعد بضعة أسابيع، مؤكدا أنَّ هذا الحظْرُ كان مبرَّرا بأسباب سياسية:«ردًّا على برقيتكم (المؤرَّخة في 18 أوت 1946)، يُشَرِّفني أنْ أُعْلِمَكُمْ أنَّ موقف **الأستاذ بابا أحمد محمد كبير**، رئيس الفرقة المسرحية "الكوكب المسرحي التلمساني"، ما يزال محلَّ شُبْهةٍ من الناحية السياسية، ولا يبدو لي مناسبًا أنْ نتراجع حاليا عن قرار يملك

[352] CAOM, 8 CAB 15, une lettre à entête "Assemblée nationale constituante – République française" au gouverneur général, datée du 30 juillet 1946, Paris.

كل أسباب الثبات عليه (...)[353]. مع أنَّ التشريع، كما في الحاضرة الفرنسية، في مجال حرية «تمثيليات الفن الدرامي والساخر [وكذا] مقاهي الغناء وقاعات الموسيقى والكباريهات الفنية، وعرائس الغراغوز، والسيرك، والعروض والرقصات الغنائية والعروض الفضولية والمنوَّعات»[354]، قد تلطَّفَ على نحو كبير بعد الحرب العالمية الثانية، ورَتَّبت السلطات الأمورَ لأجل حفظ حقِّ النقض. بقيت العروضُ إذنْ، تابعةً للسلطات السياسية. وكانت المطالبة بترخيص مسبق قد انمحت، في الواقع، ضمن شروط الحاضرة الفرنسية نفسها. ولكنَّها ظلَّت في إطار القانون، نظرا لعدم قابلية الأمر المؤرَّخ في 13 أكتوبر 1945 للتطبيق بالجزائر. فقد كان بإمكان السلطات (الوالي، رئيس البلدية) إذنْ، حظرُ التمثيل المسرحي (أو أيِّ عرض آخر) تحت ذريعة، غياب الترخيص المسبق. ضف إلى ذلك، أنَّ رئيس البلدية، بحكم قانون 15 أفريل 1884، المادة 97، كان يمكنه حظر مسرحية عُرِضَتْ سلفا، وذات صبغة مربِكة

[353] CAOM, 8 CAB 15, Le préfet d'Oran, au ministre plénipotentiaire, gouverneur général de l'Algérie, 7 octobre 1946.
[354] CAOM, 9 CAB 74, Police des spectacles (12 mars 1947).

للنظـام العـام، نظـرا لظـروف محليـة، وكـان الـوالي يملـك السلطات نفسـها، فـي بلديـة بعينهـا، أو علـى امتـداد مقاطعتـه. كما كـان بالإمكـان حظـر كل نشـاط تـابع لفرقـة مسرحية فـي إقليم محدَّد[355].

كان هذا الجهاز يُمَكِّن من إتمام حركة مقص الرقابة، العاجزة غالبا عن التحكم في استعمال المناضلين للمسرح، كمنبرٍ سياسـيٍّ، إذ ثمـة حِيَلٌ، وتعـابيرُ أسـلوبيةٌ، وتلاعبـاتٌ لفظيـةٌ، ومقارنـاتٌ تاريخيـةٌ، كانـت السـلطات تقـف أمامهـا عـاجزة عـن الحركـة، وكـان لهـا أثـر مُـدَمِّر علـى مصـداقيتها وسـط الأهـالي، لأنهـا كانـت تثيـرهم وتـوحي إليهم بتساؤلات ومراجعات. وقد أَشْرَكَ والـي قسنطينة فـي انشـغالاته الحـاكمَ العـام، بخصـوص دورات مسـرحية، نظمهـا مناضـلو حركـة *انتصـار الحريـات الديمقراطيـة والدسـتور الجديـد* المنتظـرة داخـل مقاطعتـه: «[...] إنَّ نـص المسـرحيات التـي سَـتُمَثَّل، يبقـى كالعـادة لا قيمـة لـه. ولـم يبـدو لـي ممكنـا، ضـمن هـذه الظـروف، وتبعـا للوضـع الحـالي للتشـريع، الـرفضُ المسبق لطلباتهم [...] . أعتقد فـي النهايـة، واجبَ جذبِ انتباهِكم إلـى

[355] Ibid.

العدد المتزايد لطلباتٍ من الصنف نفسه، بَلَغَتْني منذ بعض الوقت، وهي طلباتٌ يمكنها أنْ تتوافق، كما يبدو مع تحقيقِ مخطَّطٍ. سأكون شاكرا لكم، بِتَلَقِّي تعليمات جديدة [...]»[356].

وكان الكابتن **كاري** Carret يؤكِّد هذا الواقع قائلا :

> «الانفصاليون الجزائريون، خصوصا حزب الشعب الجزائري وحركة انتصار الحريات الديمقراطية – لم يَفُتْهُمْ أنْ يروا في المسرح أداةً للدعاية ولاختراق الجماهير الشعبية [...] باستعمالهم لطابعه التعليمي، فقد حاولوا أنْ يصنعوا منه مسرحًا مكافِحًا، رسالته توجيه الرأي العام، وتمجيد الشعور الوطني، وحب الحرية والاستقلال. وقد أصبح الطابع الساحر للمسرحيات أعنف بمهاجمته للأقوياء، وتحوُّله بالتالي إلى صدى للمطالبات الشعبية. وقد تُخْتار بعضُ المسرحيات، لما تتيحه من مقارباتٍ بين أحداث مشتقة من الماضي ومن الخارج وبين

[356] CAOM, Le préfet de Constantine, à M. L'Ambassadeur de France, Gouverneur de l'Algérie, Discussion de la sécurité générale, 3 mars 1948.

النظـــام الحـــالي القـــائم بـــالجزائر، المنعـــوتِ بالمضــطهِد والقــامِع والمســتبِدِّ. وهكــذا تشــتمل مسـرحية **حنيبعل**، لتوفيـق المـدني مقـاطع عديـدة ذات علاقـة بطغيـان رومـا عبـر تعليقـات حاذقـة تستـهدف أسـاليب "الرومـي" (الرومـاني) الراغبـة في استبعاد السكان الأصليين. لا يوجد فصلٌ من المسرحية، خالٍ من الحديث عن التحرُّر من نير المضـطهِد وعـن اسـتقلال أفريقيـا. محدِثـةً بـذلك حتما، تصفيقاتٍ لا تتوقف، وكذا هتافاتٍ. إنَّ هذه المسـرحية، هـي بـلا ريـب، تلمـيحٌ حـاذقٌ إلـى الحضور الفرنسي بأفريقيا الشمالية[357].

وبعيـدا، كـان يُعَلِّـق علـى الوسـائل الموضـوعة للتنفيـذ، بهدف مجابهـة هذا الوضـع، مثل تنصيبِ لجنـةٍ للقراءة سنة 1947، «مكوَّنـةٍ مـن عـددٍ معـيَّن مـن المسـلمين المختـارين لثقافتهم العربية أو لنزاهتهم» أو طرحِ نصوصٍ حول شُرْطة العُرُوض المسرحية، بيد أنه كـان حزينـا لأنَّ هذه الإجراءات

[357] CAOM, Alger S 4\24, février 1950, Le théâtre algérien d’expression arabe, par le capitaine Carret.

النظامية بدت غير فعَّالة غالبا. وخَتَمَ تقريرَه مطالبا بتعزيز هذا «الانصهار المتوسِّطي»...المراد استدعاؤه أكثر فأكثر، خلال هذه الأوقات المضطربة:

> ثمة جهدٌ عظيم يُبْذَلُ منذ 30 سنة، لتزويد الجزائر بمسرحٍ ناطق بالعربية [...] يزعم البعض أنَّ فرنسا، بِتَحَرُّكِها على هذا الخط، سَتَصْنَعُ سلاحا ينقلب ضدَّها، على أساس أنَّ كلَّ ما يساعد على انتشار الثقافة العربية بالجزائر، لا يمكنه إلا أنْ يَضُرَّ بمصالحها داخل البلد. ولكنْ هلْ علينا بعد التسليم، بأنَّ هذه الفهوم مبرَّرةٌ جزئيا، أنْ ننتظر راعيًا مُسْلِمًا، أو فرقةً من المسلمين تأخُذُ المبادرة، بإيجاد أكاديمية مسرحية عربية واستدعاء تقنيين مصريين؟ يبدو أنَّ الأنسب، في رأينا، هو أنْ نَسْبِقَ غيرنا [...] وستظفر فرنسا بفائدة أخلاقية فحسب. عليها أنْ لا تخشى من انتشار الثقافة العربية، إذا منحنا بالتوازي للفنانين المسلمين الجزائريين إمكانيةَ الاعتراف من مصادر العبقرية الفرنسية... [...]

لِنُبَـرْهِنْ للمسـلمين أنَّ فرنسـا، فـي ليبراليتهـا، لا تخشى تجاور الثقافتين، العربية والفرنسية، اللتين علـى العكس من ذلـك، لا يمكنهمـا :«إلاَّ أن تثريـا بعضـهما الـبعض، باختلافهمـا المتبـادل»[358]، كمـا كتب **بول فاليري**.

كان المسرح سلاحا، تتزايد خطورته أكثر فأكثر، وفَضَّلت الإدارة، بلا ريب، استعمالَ هذا السلاح على أنْ تَتَلَقَّى طعناته ! وهكذا كانت السلطات العمومية تعترف بـ «الأهمية العظيمة، من وجهة نظر ثلاثية، سياسية وثقافية واقتصادية» التي يمثلها إيجادُ فرقةٍ، كتلك التي عناها الأستاذ **ماري** M.Mari، برعاية يمكن أنْ تظل سرِّية»[359]، وهي رعاية وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة. من جهة أخرى، أثار هذا المشروع اهتمام فرقة **تِيَّار** Tyar (فرع **للمانيفست**) والشيوعيين. وكادتْ حركاتٌ مسيَّسة من الحركة الوطنية أنْ تَفْتَكَّهُ سريعا، وتستغلَّه لصالحها، وهذا كما

---

[358] Ibid.

[359] CAOM, 9CAB/74, pour Monsieur le chef de cabinet du gouverneur général de l'Algérie. S/C le secrétaire général du gouvernement, Alger 18 Avril 1947, Objet : Projet de M.Mari relatif à la formation d'une troupe de théâtre en langue arabe, op. cit., p.1.

تخوَّفت السلطات. ونظرا للحظوة الكبيرة لهذا الشعاع الثقافي الشعبي، فقد كان يبدو للسلطات، أنَّ المأمول هو التصدي لهذا المنظور، بدعم مشروع **ماري** القوي جدا، لتجاوز منافِسين مُحْتَمَلين:«يبدو أنَّ من الأفضل، ومن عدة نواحي، أنْ يتحقق هذا المسرح العربي في شكل محايد ومسالم، ويأخذ تبعا لذلك طابعَ مساهمةٍ فرنسيةٍ في الثقافة الشعبية»، ضمن روح عالمية، هي بالتالي فرنسية في العمق[360]. هذه المبادرة التي أريد لها أن تكون لا سياسية، كان لها إذن، أهميةٌ سياسية بديهية، هي محاربة الحركة الوطنية، وإبراز صورة فرنسا صديقة الإسلام والثقافة العربية بالجزائر، و«العالم الإسلامي» و«الانصهار المتوسطي» للثقافتين: العربية والفرنسية.

[360] Ibid.

ب. الثقافة الفرنسية، والسياسة الثقافية والحركة السيكولوجية.

1. العمل على تَمَدْرُس المسلمين، والفَرْنَسة المكثَّفة لهم.

وإتماما لهذه الحركة الثقافية الملتبِسة إزاء الثقافة العربية- الإسلامية، بدأت فرنسا مشروعا تربويا مكثَّفا لصالح الأهالي. وكان مشروع قسنطينة يتوخى تَمَدْرُسَ ثُلُثَيْ الأطفال الجزائريين المسلمين. وإذا كان المثال الجمهوري والكرم التمديني يُدَعِّمان دائما هذا المشروع، فمن غير المنكر أنَّ الضرورات السياسية كانت تجعله أشدَّ أهمية وأكثر من أي وقت مضى. وبينما كانت هوية ثقافية ودينية جزائرية تتقدَّم، مهدِّدةً سلطة الحاضرة الفرنسية، كان على التعليم، على الطريقة الفرنسية، أنْ «يُجَدِّدَ كل الذهنيات، ، ينشئَ داخل العقول كلَّ الطرق التي سيمر عبرها المستقبلُ نفسه،، ويعجنَ الروح الجزائرية على صورة الروح الفرنسية نفسها»[361]. وقد كانت المدارس الريفية والتقليدية،

---

[361] Jean Mélia, L'épopée intellectuelle de l'Algérie, Alger, La Maison des livres, 1950, note préliminaire p.11. cité dans Vatin, "Exotisme…" loc. cit., p.163.

من جهة أخرى، محلَّ صَهْرٍ في سنة 1947، مُبَرْهِنة أكثر من أيٍّ وقت مضى، أنَّ السياسة الثقافية الفرنسية، في مجال التربية، ما تزال وفية للمبادئ القديمة عن الإدماج الثقافي، كوسيلة وحيدة فعَّالة لضمان السلطة السياسة. وكان تعزيز الفرنسة جزءً مُهِمًّا من السياسة الثقافية، وبينما استمرَّ تهميش اللغة العربية على نحو خفيٍّ، أصبحت الفرنسية أقوى تجذرا وأكثر تمتعا بالحماية من أي وقت مضى. عملت السلطات العمومية في الخفاء على توجيه الضربة القاضية للعربية والفرض النهائي لهيمنة الفرنسية، المحدَّدة، باعتبارها لغةً وحيدةً لتهيئة المستقبل: وكان **ديزيري تيبول** Désiré Thébault يصرِّح في الكراريس الشمال أفريقية أنَّ: «فَرْنَسة الجزائر [...] تبدو إذن، الحدثَ اللغوي الأهم لمستقبل هذا البلد. هي تتوافق مع الحاجات الحقيقية لهؤلاء السكان، وإذا لم يكن الأمر كذلك، على المستوى العاطفي، فهو متحقِّق على مستوى أملهم في حياة أحسن، داخل مجتمع حديث، حيث يُهيَّأ لهم موقع فيه»[362]. يمكن القول، بصفة عامة، إنَّ إرادة سياسية في الفرنسة، وفي الإلحاق، بل حتى

[362] Cité dans CAlvet, op. cit., p.124, note 1.

في الإدماج الثقافي مع الحاضرة الفرنسية، كانت تتأكد باعتبارها حلا وحيدا، جاهزا للتنفيذ في مواجهة الطيوف الانفصالية المؤسَّسة على شعورٍ بالانتماء إلى كيان ثقافي وديني مختلف. لم تكن السياسة الثقافية رهانا بمثل هذه الأهمية أبدا، ولكنَّها لم تكن كذلك أبدا بمثل هذا التخفي، في مواجهة سكان أصبحوا يشكِّلون خطرا أكثر، بقدر تلقيهم الدعم من الرأي العام الدولي في كفاحهم.

2. الجامعة والبحث

سَجَّلت سنوات الثلاثينيات بداياتِ قطيعةٍ، اشتدت في البحث الثقافي والعلمي بشأن الجزائر، إذ تَنَوَّعت الخطابات، وتضعضعت يقينيات عهد الانتصار، وكانت تُسمع أصواتٌ غير متناسقة تبتعد عن الخطاب الكولونيالي التقليدي (مثل **شارل أندري جوليان** في تاريخه عن أفريقيا الشمالية، المنشور في سنة الاحتفال بالذكرى المئوية نفسها). في العمق، كانت الخطابات الجديدة تتوافق نوعا ما، مع التوجهات الجديدة للسياسة الفرنسية بالجزائر. أبدى المثقفون كذلك، أكثر من غيرهم، هذا التحوُّلَ في الوجهة، وبشكل

مفرط أحيانا، عبر تبني مواقف ضد الكولونيالية (مثل الجغرافيين سِيَّما **ج.دريش** Dresch).

كان التاريخ الكولونيالي، على سبيل المثال، يتحرر رسميا من الإطار الإمبراطوري ، الذي كان يتطور داخله، دون الانفلات بالقدر نفسه من عقال السلطات. ويبدو بالأحرى، أنَّ التاريخ الذي تحتاجه السلطات هو الذي تَغَيَّر بالنظر إلى السياق السياسي والدولي الجديد. وإذا كان الباحثون قد أظهروا انشغالات ثقافية جديدة، فقد أدّى هذا خدمةً للحكومة، التي عليها أن تعتني من جهتها بالحساسيات المتفاقمة، وتعلن بصراحة عن تغيير وجهتها. "وكانت طلبياتٌ من الحكومة العامة، وقعت عند بعثها لمجموعة الدراسات والوثائق المستجدة عن تاريخ الجزائر – والمطوية بالنسيان والملحقة حتى الآن بنشر الوثائق وحدها- قد دفعت الأستاذيْن **إيميريت** Emerit و**ياكونو** Yacono إلى تقديم جزائر لم يعد الأهالي غائبين عنها"[363]. من ناحية أخرى، كان من الجوهري لدى السلطات العمومية..تطوير وجهة نظر جديدة، عن الجزائر، سعيا لفهم مسألة الحركة الوطنية،

[363] Vatin, L'Algérie politique…, p.29.

ومحاولة احتوائها بشكل أحسن، استجابةً لمتطلَّباتٍ سوسيو-ثقافية وسياسية، لأجل تجنُّب انتقادات الأهالي والمتعاطفين معهم، بعد الخطوة السيئة للذكرى المئوية، التي مرَّت على نحو سيئ، وتفادي الاحتجاجات الناتجة عن الحرب، بهدف تلبية رغبات الرأي العام الدولي، المتصلِّبة أكثر فأكثر. كان على السياسة الفرنسية الجديدة بالجزائر، منذ تلك اللحظة، أنْ تتحالف مع الواقع العربي-الإسلامي، باعتباره مركَّبة كاملة العضوية ضمن الشخصية الجزائرية. كان التاريخ يتبع منطقيا هذه الوجهة. و"تُسَجِّل الدراسات المتعلقة بتاريخ الاستدمار [...]، انطلاقا من سنة 1945، تَحَوُّلا في وجهة النظر، مقارنةً بالدراسات السابقة (أنظر: J.Franc Démontés)، عبر مراعاة العلاقات بين «المجتمع الأهلي» والاستدمار، وفق إشكالية قريبة من التساؤلات السوسيولوجية: آثار الاستعمار على الحياة الأهلية (R.Thinthouin، H.Isnard، X.Yacono ثم A.Noushi)"[364].

[364] Leimdorfer, op.cit., p.89.

كان على فرنسا، رغم ذلك، بالتوازي مع هذه المراعاة الإجبارية للواقع الأهلي، أنْ تبذل كل ما يقع تحت سلطتها، لأجل أنْ لا تَفْقِدَ الجزائرَ. كما رأينا، لم يكن نادرا، أنْ نرى الإنتاج الثقافي والعلمي، وهو يضيف أحجارا للصرح السياسي، ببيانه عدم تجانس الجزائر العربية الإسلامية. وقد وقع هذا، مرة أخرى، تحتَ العين الراعية للسلطات، أو بدعمٍ، ومبادرةٍ منها أحيانا. "كان المَوْشُورُ الاستدماري يُتيح الاحتفاظَ من هذه الفترات، المميَّزة افتعالا، بمظاهر سلبية، وعواملَ تفرقة لا توحيد، فحسب. ظَلَّ العالَمُ الملاحَظُ مُفَتَّتًا في المدخل، مجزَّءًا، لأجل تقديم هذا الغبار، عن العشائر والمشيخات، المدعُوَّة إلى إعادة الهيكلة على أيدٍ أجنبية"[365]. وجاءت اللاَّتاريخية، المؤسَّسة على افتقاد آثار مكتوبة وبقايا مادية، لتعزيز الخطاب الرسمي.

> من حق [...] الغربيين أنْ يقدِّموا إلى الجزائريين أسلافَهم الخاصين بهم، ويُزَوِّدوهم بالخطوط العريضة والتفاصيل على حد سواء، المنتقاةِ بتأنٍ، والمغلَّفة داخل تفسيراتٍ ملائمة. مع

[365] Vatin, L'Algérie politique…, p.49.

الانزلاق سريعا إلى ما يتوافق مع توجُّه المرحلة. بعد سنة 1954 [كما يوضح **فاتان** Vatin]، كان الاستعمال السياسي للوثائق جزءً من الدعاية الرسمية، كما يشهد على ذلك كتاب «الجزائر في سنة 1830 من خلال شهادات المرحلة» من *وثائق جزائرية*، الصادر في 1957، [...] إنها رؤية مجتزأة لجزائر ما قبل الاستدمار، كانت موضعَ بثٍّ واسع. والهدف المتابع، هو برهنة أنَّ الجزائر قبل 1830 لم تكن تملك أيَّ وحدة، مهما صرَّح الوطنيون بعكس ذلك، وقد ترافق هذا الهدف، مع هدف الكُتَيِّبات الصغيرة المدفوعة «لمجنَّدي السكان الأصليين» منذ 1956، والمُبْرِزَة للقواعد التي تجاوزها الزمن، لشخص يُدعى فرحات عبَّاس يبحث في كل مكان عن آثار أمة جزائرية[366].

كان تاريخ الجزائر المقدَّم، هو تاريخ أرض مستعبَدة منذ الأزل، لم يتمكَّن أهاليها أبدا من صناعة أمة. وفي الوقت

[366] Ibid., p.48.

الذي كان يُشَجِّع الرأيُ العام والجنود، كان الأهالي يُثَبِّطون سعيا لإقناعهم بفقدانهم للقدرة على حُكْم بلد بأيديهم، كما يثبت التاريخ ذلك لهم.

ضمن هذا المنظور، كان علم الآثار محافظا على كل قيمته. وكانت السلطات العمومية واعيةً، أكثر من أي وقت مضى، بالفضائل المستقاة من استغلال الآثار الرومانية. في حوار مع يومية **لاديباش** (20-21 نوفمبر 1952)، تحت عنوان "لا شيء أقرب إلى الراهن اليومي من علم الآثار"، كان **غرونيي** Grenier، المدير السابق لمدرسة روما، وعضو المعهد، والمفتش العام للآثار القديمة ومتاحف الجزائر، يصف بمفردات غير ملتبسة الأهمية السياسية للآثار بالنسبة لفرنسا:

> إنَّ واحدةً من أخطر المشكلات، المنتصِبة في وجه من يُعَوَّل عليهم في الانشغال بمستقبل أفريقيا الشمالية، هي وجوب اتخاذهم لقرارٍ بتعليم العيش المشترك، داخل توازن متناغم، للجماعات البشرية المختلفة، والمتعارضة غالبا. بيد أن

المشكلات المئة التي تقف أمامنا في هذا المجال، كانت قد طُرحت سلفا على الإداريين الرومان [...] ويمكن لعلم الآثار، كما يتابع **ألبير غرونيي**، أنْ يحقق أيضا مصلحةً أخرى في مجال أكثر تجريدا. هو يُقدِّم الدليل على الوجود الغربي القديم بأفريقيا الشمالية، ويكفي للاقتناع بذلك أن نثير النكتة التالية: خلال التنقيبات المباشَرة على حدود الصحراء في الموقع العتيق **جميلة** Gemellae، كشف عمَّالٌ في خندقٍ حجرا مكسُوًّا بنقوش، محفوظة ببهاء. وكانت الحروف تُمَيَّز بلا أيِّ صعوبة. صرخ أحدهم:«ولكنها لغة فرنسية !...كان الفرنسيون هنا قبلنا، إذن !». لم تكن لغة فرنسية بداهة. لكنَّ هذا النقش كان يقدِّم لرجال بسطاء الدليل على قِدَم الوجود الغربي بأفريقيا الشمالية، بما أنها تعود إلى ما قبل 500 سنة قبل الهجرة على الأقل[367].

[367] CAOM, 10 CAB 48, "Rien n’est plus prés de l’actualité quotidienne que l’archéologie", La dépêche quotidienne, 20-21 novembre 1952.

في أوقات اللا إستقرار هذه، كان علم الآثار يشكل دائما بوتقـة للشـرعنة، لـيس فـي عيـون الـوطنيين (الفرنسـيين) فحسب، وإنما في عيون العالم الخارجي، وقد استمر في إسناد المصلحة السياسية ماديا، تلك المصلحة المتمثلة غايتها في دعم الجزائر الفرنسية. كانت السلطات العمومية تدعِّم إذن علم الآثار، وتشجِّعه، وتشرف عليه (مبادرة بالبحوث والتنقيبات، مساعدة مالية، تنظيم مؤتمرات، دعم إصدارات علمية ومؤلفات شعبية، قروض للمتاحف...). وتبتهج المذكرة الثانية عن العِراقة (إثنوغرافيا)، وما قبل التاريخ، وعلم الآثار، والفن الإسلامي، والفنون الجميلة من 1948 إلى 1954، بـ "التقدم المحقق (...) إن النتائج الباهرة المحصَّلة في كل مكان، راجعة بداهة في المقام الأول، إلى العناية المستنيرة للحكومة العامة. وقد يعود،كذلك، تقدم البحوث والتنقيبات ما قبل التاريخية إلى مبادرة الحكومة العامة (...)"[368]. في نوفمبر 1954، لم تضعف الأهمية السياسية للآثار وعلم الآثار، بل على العكس من ذلك، لأنه كان يشكل منذ تلك اللحظة سلاحا للسياسة الثقافية، أمام الرأي العام

---

[368] CAOM, 11 CAB 39.

الدولي المدافع عن الحركة الوطنية الجزائرية. وتقرير إدارة الفنون الجميلة المتعلِّق بالرحلة التي مدَّدتْ عبر المواقع الأثرية للجزائر الشرقية، المؤتمرَ الدولي للذكرى المئوية السادسة عشرة لميلاد القديس **أوغسطين**، تبرهن ذلك بيقين:

> [...] يُشَرِّفني أنْ أُحيطَكم علما بالنتائج المحصَّلة وردود الأفعال الملاحَظة لدى المؤتمِرين المشارِكين في هذه الرحلة.

وكان معظم هؤلاء، الأجانب والفرنسيون على حد سواء، أساتذةً جامعيين. وكان من أشهرهم **مونسنيور برلي** Perler عميد جامعة **فريبور** Fribourg، والأستاذ **أدولف و.زيغلير** من جامعة ميونيخ، والأب الكاهن مدير معهد دراسات القرون الوسطى بمونتريال، والأب الكاهن **هنري** أستاذ بالمعهد الكاثوليكي بباريس، والأستاذ **بولونيو** بروفيسور بكلية اللاهوت ستراسبورغ.

بعد زيارتهم للجزائر [...] أخذوا بالإجماع قراريْن، يسعدني الإعلان عنهما:

1) لقد «اكتشفوا» حقا أفريقيا القديمة؛ وكانت زيارتهم للخرائب سحرا مستمرا. وهكذا قرروا تنظيم ندوات بكلياتهم المختلفة، واختيار أسئلة متعلقة بأفريقيا، كموضوعات للدروس رفيعة المستوى وللبحوث الطلابية.

2) من جهة أخرى، إذا كانت آثار العصور القديمة قد سحرتهم، فإنهم لم يكونوا أقل اهتماما بعظمة الإنجاز الفرنسي بالجزائر. فقد شكّلت حالة الطرقات، وعدد المستشفيات والمدارس على وجه الخصوص، محل اندهاش ثابت وإعجاب دائم. وكان ثاني التزام هو تثمين هذا الإنجاز المتجاهَل، داخل فرنسا وخارجها، عبر ندوات ومقالات وحركات

شخصية [...] (**مارسيل لوغلي** Marcel Leglay)[369]

وكانت المبادرات الحكومية في هذه المجالات، تعزِّز، قدر الإمكان، نشرَ البحث على نطاق واسع، وقد شملتْ إصدار مؤلَّفات تحت رعاية الحكومة العامة بالجزائر مباشَرة (في 1955، مثلا، صدرت أربعة مؤلَّفات: الوندال وأفريقيا، المعبد البوني لـ"الحفرة" بقسنطينة، و *Corpus Nummorum Numidiae Mauretaniaeque*، و**فكطور دو فيتا** وإنجازه) أو دعم مجلات ثقافية وعلمية مبسَّطة.

[369] CAOM, 10 CAB 48, GGA Direction de l'intérieur et des Beaux-arts, Alger, 21 octobre 1954.

الفصل الثامن

الفنون ووسائل الإعلام: الجهاز الثقافي في خدمة الفرنسة

أ. من مصلحة الفنون الجميلة إلى المكاتب الخامسة للحركة السيكولوجية.

كانت الرقابة على الفنون الجميلة، تكتسي أهمية حاسمة، في هذه الفترة، وقد دعَّمت السلطاتُ، قَدْرَ الإمكان، الحياةَ الفنية ومجال الآثار القديمة كذلك. في مارس 1947، قَبِل الحاكم العام «بكل سرور» رعاية معرض الطلبة، والطلبة القدامى للمدرسة الوطنية للفنون الجميلة بالجزائر العاصمة «الذي أحاط بهالةٍ، وجودَ عناصر شابة بالجزائر، قادرة على تخليد تقاليد الفن الفرنسي»[370]. كانت منحة **لورماران** Lourmarin للحكومة العامة بالجزائر، مِثْلُها مِثْلُ الجائزة الفنية الكبرى، تكافئ الإبداع الجزائري. وقد مُنِحَت، في سنة 1950، إلى **صوفار غاليرو** Sauveur Galliéro. ويشهد كذلك صراعٌ سلطويٌّ، بين إدارة متاحف

[370] CAOM, 9 CAB 74, Lettre au président de l'association des élèves et anciens élèves de l'ENBA d'Alger datée du 2 mars 1947.

فرنسا والحكومة العامة، بشأن متحف الجزائر العاصمة، على الأهمية الممنوحة من الإدارات السياسية لما يمَسُّ الفنون الجميلة. وفي سنة 1948، نَعْثر في مراسلةِ الحكومة العامة على سلسلةٍ من الرسائل، التي تُسَلِّط الضوء على هذا الصراع. ويبدو أنَّ وزير التربية الوطنية، عبَّر عن أمله في إدراج متحف العاصمة ضمن حولية متاحف فرنسا تحت عنوان "المتحف المصنَّف للجزائر العاصمة". ولكنَّ، الحكومة العامة كانت ترى أن الأمر هنا يتعلق بـ «محاولة جديدة للهيمنة على إدارة متاحف الجزائر»، وأنه «من غير الممكن تقبُّلُ تدخُّلٍ كهذا في مصالح مرتبطة مباشَرة بسلطة السيد الحاكم العام»[371].

وبهذه المناسبة، بَلَغَنا خبرُ أنَّ مدير متاحف فرنسا، كان قد أبدى إرادته في «المشاركة في إعادةِ تنظيمٍ، مشروطةٍ بدراسة وتبنِّي مخطَّطٍ للمجموع، يَتَجِّه إلى إبراز الماضي المتنوِّع والثَّرِيِّ جدا للبلد، ويَطْرَح في الوقت نفسه، عناصرَ متميِّزة ومختارة جيدا، على سكان العاصمة، عن النشاط

[371] CAOM, 9 CAB 74, CAOM, gouvernement général - Direction de l'intérieur et des Beaux-arts, au ministre de l'éducation nationale – Direction des musées de France (Georges Salles), 26 mai 1948.

الحاضر والماضي لفرنسا في المجالات الفنية والتاريخية، مع التشديد على التيارات الكبرى للحضارة المتوسِّطية»[372]. وهو بهذا يعيد التأكيد على أنَّ فرنسا كانت تأمل الاستمرارَ، بواسطة الآثار القديمة والفنون الجميلة، في توضيح صورة كاملة عن حركتها بالجزائر وعن الطابع الخاص لهذه المنطقة الغنية بمساهماتها المتعدِّدة، ضِمْن خَطِّ الإيديولوجيا الرسمية، وهو ما ردَّ عليه مدير الشؤون الداخلية والفنون الجميلة قائلا:«أنا لا أرى كيف يمكن التشديد بشكل أحسن، على التيارات الكبرى للحضارة المتوسطية، في بلد يملك المناجم ما قبل-التاريخية لـ**تبسة** أو **الهوقار**، والخرائب العظيمة لـ**تمقاد** أو **جميلة**، وثروات **شرشال** و**جميلة**»[373].

في بداية الحرب، كانت جميع المسائل المتعلقة بالفنون، والآثار القديمة والنصُب التاريخية، مجمَّعة ومدروسة لدى مصلحة مركزية للفنون الجميلة[374]. كانت هذه المصلحة تُيَسِّر تطويرَ الفنون بالجزائر، عبر تنظيم معارض، وتقديم مِنَح دراسية وسَفَرية إلى فرنسا والخارج: جوائز كبرى أدبية

---

[372] Ibid.
[373] Ibid.
[374] CAOM, 11 CAB 39, Cabinet Soustelle, 2ème Sous-direction, M.Rols, sous direction, 5ème Bureau, attributions détaillées, 1955-1956, A. Administration centrale.

وفنية، وإعانات للفنانين، وللناشرين ومنظمي الدورات المسرحية، والجمعيات الفنية والأدبية والموسيقية. كانت تنشِّطُ وتنسِّقُ وتراقبُ حياة الورشات الكبرى للتنقيب، وحملات الاستكشاف، والبحوث العلمية، مع حماية وترميم النصُب التاريخية والمواقع. كانت هذه المصلحة، تُؤَمِّن أيضا نشرَ وتوزيعَ إصدارات علمية من سلسلة "مهام أثرية بالجزائر" missions archéologiques d'Algerie، وكتيِّبات دعائية تتعلق بالمتاحف والمجموعات الأثرية. في 1956، كانَ المكتب الخامس[375] الذي «يدير كل المصالح الثقافية للبلد و[...] واتخذ كل قرار ضروري يعزز تطوير الثقافة الفرنسية والإسلامية»...يَجْمَعُ في مساهماته كل الأسئلة المتعلقة بـ 1) الفنون 2) الآثار القديمة والنصُب. وكانت حركته مباشِرة في بعض القطاعات، كما يتابع أخرى بمساعدة مصالح تقنية. وكان المكتب الخامس يؤمِّن:

- تنظيم مسابقات وتقديم جوائز ومِنَح رسمية.

[375] CAOM, 12 CAB 192, 5ème Bureau , (dit?) service des beaux arts, Note pour la commission Maspétiol.

- مَنْح إعانات مالية ("يشجِّع ويعزِّز المشاريع والحركات ذات المدى الثقافي عبر إعانات مالية")
- تسيير المتاحف الفنية.
- تزيين البنايات الرسمية.
- تنظيم معارض رسمية سنوية (مِثْلَ: المعرض الفني لأفريقيا الفرنسية الذي يجمع أعمال الفنانين الأكثر تمثيلا لكل أفريقيا الفرنسية، في عاصمة من أفريقيا الشمالية، أو في مدينة كبرى بالحاضرة الفرنسية).
- مراقبة المتاحف الفنية المحلية وتشجيعها.
- تسيير مصلحة الآثار القديمة ومراقبتها.
- تقديم منح وإعانات للبحوث الأثرية وما قبل التاريخية.
- تسيير مصلحة النصب التاريخية ومراقبتها.
- تسير المتاحف الأثرية للدولة.

إنَّ تركيزًا كهذا، لمسؤولياتٍ مِنْ مجال الثقافة، يدفع للتفكير بالأهمية الكُبْرى التي توليها السلطات لهذه المسائل،

وبِنِيَّتِها في القيام بعمل جماعي عبر تنسيق الحركات المباشَرة في كلِّ مجال من هذه المجالات. مع تصويت السلطات العمومية، أُخضِع كل التنظيم المدني للمتطلبات العسكرية والمجهودات الحربية. في1957، تاريخ إنشاء المكاتب الخامسة للحركة السيكولوجية، أُدمِجت مصلحة الفنون الجميلة، داخل جهاز معمَّم، لتنصيب بُنىَ محدَّدة للحركة السيكولوجية و«الحرب الثورية».

ب. الأدب

1. مدرسة الجزائر العاصمة أو المتوسِّطية

في الثلاثينيات، صُمِّمت مقدِّمات المتوسِّطية، وهي تيار فكري وأدبي مهم للمرحلة الأخيرة من الجزائر الفرنسية. كانت مدرسة الجزائر العاصمة، ممثَّلة بـ **روبليس**، و**أوديزيو**، و**روس فلدير**، و**جول روي**، و**جون بيير ميليكام**، و**مارسيل موساي**، و**روني جون كلو**، و**كامو**،) وآخرين.... تقوم على نبذ اللأَّتينية ومراعاة هويةٍ جامعةٍ للمركِّبات الثقافية المختلفة للفضاء المتوسِّطي. وإذا كان **كامو** Camus يعبِّر عن «ضرورةِ أنْ لا نضع بروما ما بدأ بأثينا، وأن نُوجِد حضارةً مشتركة بين سكان ضفاف المتوسِّط»[376]، ولم يكنْ بعضُ مدبِّري هذه الحركة يترددون في الاعتراف بروح الريادة لسابقيهم (من أصحاب المدرسة الأوروبية بالجزائر) في الحياة الفكرية الجزائرية، والاستمرارية بين هذين المدرستين الفكريتين: وكان **جون سيناك** Jean Sénac يقول «إنَّ أدبنا الشمالَ أفريقي كلٌّ متكامل»[377].

---

[376] Cité dans Déjeux, "La revue algérienne...", p.7.
[377] Cité dans ibid., p.7, note 5.

رغم هذه الاختلافات، كان هدف المدرسة الجديدة هو «التعبير عن الواقع الجزائري بالاستناد إلى تنوُّع أصوله: المواجهة بين «الفكر المتوسطي وفكر الصحراء، بين الرسالة الشرقية والرسالة الرومانية، بين البُنى الأوروبية والبُنى الإسلامية» لأجل تعريف هوية جزائرية غنية بمكوِّناتها المتعدِّدة، هي بوتقة الانتماء الفكري الأصلي. "كانت هذه الثقافة الجديدة، بتأكيدها على انتمائها للأهالي، تكرِّس نفسها لإثبات «ولادتها بالجزائر»"[378]. وقد أرادت هذه الحركة الأدبية الجامعة لرجال ذوي قناعات متنوِّعة كثيرا، أن تكون موحَّدة من جانبها «المتحرِّر والإنساني ذي النزعة العالمية»[379]. ولقد أثارتْ مشاعرَ متناقضةً، سِيَّما بالجزائر (وأقل كثيرا بالحاضرة الفرنسية)؛ ولكنْ، حينما فَرضتْ الإكراهاتُ الخارجية تَبَنِيَّ واجهةٍ إيديولوجية جديدة، ملائمة أكثر لتصور حقوق الإنسان في هذا النصف الثاني للقرن العشرين، أصبحَ يُنْظَرُ إلى مدرسة الجزائر العاصمة على نحو مختلِف. وفي بعض الحالات، حَدَثَ

[378] Siblot, loc.cit., p.66.

[379] Jean-robert henry, "Résonances magrébines", dans Collectif, Le Maghreb dans l'imaginaire…, op. cit., p.9.

إدْمَاجُهـا، باعتبارهـا عنصـرا تأسيسـيا للخطـاب الخـاص للسلطات العموميـة، وعلامـةً علـى حسن النيـة الفرنسية إزاء الجزائريين المسلمين. وكانَتْ عَقْلِيَّتُها المساواتية تتوافق جيدا مع المعايير الجديدة المفروضة من المجتمع الدولي. ألَمْ يكنْ، أحـدُ مـوجِّهي الحركـة، **غابريـال أوديزيـو** Gabriel Audisio، من جهة أخرى، المسؤولَ الثقافي بالحكومة؟

لم يكن هذا الأدب إذنْ، مُهَمَّشًا، كما وقع مع المدرسة الأوروبيـة بـالجزائر باعتبارها حركـة أدبيـة ثانويـة، ولكنَّـه، على العكس من ذلك، شهد ترقية في وضعيته القانونية. ولِكَـيْ تؤكِّدَ السلطاتُ العمومية دعمَها لهذه الحركة، قَدَّمت منحةً من الحكومـة العامـة بـالجزائر إلـى **جـون سيناك** سـنة 1950 وسهَّلت بشكل عام انتشار هذا الإنتاج الفكري المهم. "تَشْـهَدُ كُتُبُ **غابريال أوديزيو** على شبكة انتشار جديدة تماما، بـالنظر إلى شبكة الأدب الكولونيالي، وعلى جمهور جديد، تبعا لـذلك. ويوضِّح جَيِّدا، الثبْتُ catalogue «المتوسِّطي» لـ*"المجلة الفرنسـية الجديـدة"* (NRF) حيـث نُشِـرَتْ كتبُـه، تفـانيَ

الحاضرة الفرنسية [...][380]. وداخل المستدمَرة نفسِها، كانت حيوية النشر تثبت نجاح هذا الإنتاج. "تضاعفت المطابع (**فونتانا، أمبير، ڤيوشان**...). وكانت من بينها مطابعُ* باللغة العربية (**كُبْطان، سارلين**)؛ وكانت هناك دَزِّينَةٌ من المكتبات (التي أدهشت نوعيَّتُها **جِيدْ** Gide و**مونترلان** Montherlant)، هِيَ دُورُ نَشْرٍ في الوقت نفسه، سِيَّما دار **باكونيي** Baconnier الذي نَدينُ له بمكتبة جزائرية كاملة، رائعة التزويق أحيانا، و**شارلو** الذي نشر مؤلفات **جيونو** و**كامو** و**روبلاس**"[381]. في سنة 1957، كانت توجد 280 مطبعة بالجزائر، تُشَغِّلُ 4500 شخصا.

وكان الجهد المبذول لصالح الأدب العربي أو القبائلي باللغة الفرنسية، صادِرًا عن الإرادة المساواتية نفسها، مرفوقا بصرامة غير مسبوقة. وكان كثيرٌ من المسلمين الذين لاقوا صدى معتبرا في المجلات الثقافية للمدرسة الأوروبية بالجزائر، قدِ اكتسبوا وجاهة مهمة تجاوزت منذ تلك اللحظة إطار الجزائر. وكانت دور النشر الباريسية قد بدأت في

---

[380] Henry et Henry-Lorcerie, loc.cit., p.155.

* للإطلاع على المطابع التي أنشأها جزائريون في تلك الفترة أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 5/310-313. طبعة البصائر2009.

[381] Goinard, op.cit., p.287.

الخمسينيات بطبع الأدب المغاربي، على نحو منتظِم. وشرعت دار نشر **لوسوي** في هذه الحركة سنة 1952. ولم تتخلَّفْ عنها طويلا دُورُ: **دونويل** Denoël، **وجوليار** Julliard، و**غاليمار** Gallimard. وهكذا، الْتقتْ إرادةُ الدولة، مع التيارات الأدبية، وتَعَاوَنَا فيما بينهما.

2. مكتبة الجزائر العاصمة

تأسَّست المكتبةُ الوطنية الرائعة للعاصمة سنة 1853، على يد **بربروغر** Berbrugger، أحد الوجوه الفكرية الجزائرية من العهد الأول. وحمل إليها بالتحديد، تموينًا من قسنطينة يشمل مئات عديدة، من المخطوطات والخطوط المزخرفة العربية والفارسية التي لا تُقَدَّر بثمن، ويعود بعضُها إلى القرن السابع عشر، جاءت لِتُثْرِيَ المجموعةَ بقوة. وأُضِيفَ إليها، شيئا فشيئا، نحو 27000 رسالة علمية ودورية باللغة العربية، ومجموعات **ستيفان جزال** Stephane Gsell و**سافورنيون دو بْرَازَّا** Savorgnan de Brazza. اكتسبتْ مكتبةُ الجزائر، بشكلٍ واضحٍ، أهمية عظيمة في السنوات الأخيرة لمرحلة الجزائر الفرنسية.

وشُـيِّدت بنايــة فــاخرة بــين ســنتي 1954 و1958 بمركــز المدينة. وسنحتفظ على وجه الخصوص بـ "أنها كانت، عبر مصلحتها للقراءة العمومية، تُشِعُّ على الجزائر كلِّها، مموِّنة 310 مكتبةً: وكان جهازٌ مركزيٌّ للإعارة، نُصِّبَ من سنة 1949 إلى 1959، يُمَوِّنها مجانا عبر أجزائه ألـ45000 من خلال مكتباته المتنقلة ونظامٍ للصناديق المتجولة، المستبدَلة ثلاث مرات سنويا، تصل إلى غاية الواحات الصحراوية المزوَّدة هي نفسها بـ25 مكتبةٍ مهيَّأةٍ. كان لهذا المجموع الاستثنائي، قيمةَ "الرمز النهائي"[382]، باعتباره تركيبا لتطوُّرٍ ثقافي بلغته الجزائر، و كان يتحرك لمصلحة بث الثقافة الفرنسية.

[382] Ibid., p.288.

ج. الإصدارات

1. الإصدارات الرسمية.

كانت الجزائرُ تتوفَّر على مصلحةٍ للإعلام والتوثيق، نشيطة جدا «تضم إضافة إلى الصحافة، وثائقَ مهمةً عن جميع المسائل الجزائرية وتبث المعلومات المجمَّعة»[383]. في سنة 1947، أعادتْ السلطاتُ تنظيم الوثائق غير المنشورة، لكي تصنع منها *الوثائق الجزائرية*، الإصدار الرسمي، الذي سَيَظْهَرُ إلى غاية الاستقلال على شكل كُرَّاسات. وكانتْ هذه السلسلة نشيطةً جدا، وتُعَالج أحيانا، أكثر من 20 موضوعا مختلفا سنويا. وكانت، تُطْبَعُ في 10000 نسخة، وتُوزَّع سنويا مجانا على 35000 مستلِمٍ دائمٍ لها. كانت هذه الإصدارات تَبُثُّ بالإضافة إلى ذلك، أوراقا تركيبية عن السياسة والاقتصاد، والإعلام والثقافة وفق توجيهات الإدارة الكولونيالية، وتخدِم إذنْ سياستَها الثقافية والمصالح الفرنسية. وضِمْنَ الاتجاه نفسه، مكَّنتْ **ألجيريا** Algeria "المجلة

[383] Gouvernement général de l'Algérie, Exposé de la situation générale de l'Algérie en 1954, op. cit., p.526. On peut retenir également que, parmi les publications sorties et distribuées directement par les soins du gouvernement dans le cadre de sa politique culturelle, il y avait tous les ans un produit distribué à 10 000 exemplaires (en 1954, ce sera une brochure de plus de 200 pages, intitulée "Algérie contemporaine" et abondamment illustrée; en 1955 ce sera un semainier avec photos couleurs et textes en français, arabe, anglais et espagnol).

الجميلة والممتازة للأوفالاك OFALAC (التي كانت تنشر دراسات، ونصوصا أدبية، وقصصا قصيرة وأشعارا)"، بعضَ الجزائريين، مثل **محمد ديب**، و**مالك أواري**، و**مولود فرعون** من التعبير عن أنفسهم في صفحاتها، ولكننا نتصوَّر بلا عناء، أنَّ الأمر لم يكن الأمر في اتجاه معاكس لمصالح فرنسا : "لم يكنْ بالإمكان أنْ نتوقَّعَ من هذا الإصدار مواقفَ ملتزمة في اتجاه تَقَدُّمِيٍّ"[384]. كانت الإصدارات الرسمية، تَبْرُزُ بمظهر لائقٍ، ولكنَّها تَظَلُّ موجَّهة ضِمن أفق إبقاء فرنسا بالجزائر.

2. علم الآثار وأفريقيا اللاتينية

وبالإضافة إلى ذلك، كان الموضوع المفضَّل دائما، لهذه الإصدارات الرسمية أو تلك التي تُدَعِّمُها السلطات العمومية، هو موضوع علم الآثار اللاتيني. وقبل ذلك، أيْ سنة 1951، كان البعض يشكِّكون في أنْ تكون الكتبُ المنشورة برعاية إدارة الداخلية والفنون الجميلة للحكومة العامة بالجزائر، ثمرةً لإرادة المجموع، ولسياسة ثقافية مؤسَّسة على علم الآثار:«يمكننا أن نعتقد، كما كتب **كونيا**

[384] Déjeux, "La Revue algérienne…", pp.9-10.

Cognia، أنَّ الأمر كان يتعلق ببعض المنشورات الظرفية. ولكنْ في هذه الشهور الأخيرة، تضاعفَتْ هذه المنشورات، وهي تبرهن أنَّ الأمرَ يتعلق ببرنامج مُتابَعٍ، وحركة محددَّةٍ»[385]. وقد أكَّدتْ مصلحةُ الفنون الجميلة هذه التخمينات، بضعَ سنوات بعد ذلك، وتشرح أنها «باشرتْ مشروعا للنشر يتعلق أساسا بقطاعات الآثار القديمة ويشمل مؤلفات شعبية (تبسيطية) ودراسات متخصِّصة»[386]. وقدَّمت دعما بأعداد هائلة، ويتعلق الأمر مثلا، في سنة 1952-1953، بمدوَّنة النقوش الكتابية اللاتينية، الجزائر العتيقة (قرض بـ 116597)، مسلاَّت الحفرة بقسنطينة (رئيس الكنيسة **شارليي**)، وقد سُلِّم جزء من النص إلى رقابة المعهد (قرض بـ 549311 فرنكا)[387]. ويمكننا أن نحتفظ، من قائمة الكتب المدعَّمة في السنوات السابقة والمكافَأة، كتاب **ريـڤـاس**Reygasse (المسؤول كذلك عن الفنون الجميلة) وعنوانه *نُصُبٌ جنائزية لأفريقيا الشمالية قبل المرحلة الإسلامية* (جائزة **أوديفري** لأكاديمية العلوم الأخلاقية

---

[385] CAOM, 10 CAB 84, Journal des arts, vendredi 10 août 1951.
[386] CAOM, 12 CAB 192, Le 5ème Bureau, Service des Beaux-arts.
[387] CAOM, 10 CAB 48, GGA, Direction de l'intérieur et de Beaux-arts, Alger, 8 octobre 1952.

والسياسية، جائزة **فويست** لأكاديمية النقوش الكتابية) أو أيضا مؤلفات **كريستوفل**، *ضريح المسيحية* (جائزة **ميريمي** للأكاديمية الفرنسية)، أو كتاب *سلاما* Salama *"الطرق الرومانية لأفريقيا الشمالية"*[388]. علينا أنْ نعلم أنَّ هذا الدعم من الإدارة، كان مشروطا بحقها في النظر إلى النصوص، بما أنَّ «مخطوط جميع الإصدارات كان يُسَلَّم إجباريا إلى مدير مصلحة الآثار القديمة»[389].

3. المجلات الثقافية لمدرسة الجزائر.

ضاق نَفَس المدرسة الأوروبية بالجزائر، ومجلتها *أفريقيا*، شيئا فشيئا، مُفْسِحة المجال للإنتاج الأدبي العظيم للمتوسِّطيين. وقد أعقبتْ الفكرةَ الكولونيالية عن التشارك والوصاية، روحُ الإنسانية والمساواة. وأصبحت مدرسةُ شمال-أفريقيا ذائعةَ الصيت بإطنابها اللافت للنظر. وكان عددٌ كبيرٌ من المجلات الثقافية مِثْلَ "المتوسِّط الشاب"، "سواحل"، "الفُلْك"، "مَسْبَك"، "شمس"، "سيمون"، تَنْقَلُ هذا الأدبَ الفرنسي والإسلامي. وقد جعلتْ *"أخبار*

---

[388] Ibid., Alger, 15 mai 1952.
[389] Ibid.

ومعلومات عن الجزائر"[390] من نفسها ناطقا بلسان الرأي الرسمي، لهذا تشرح «الدلالةَ الروحيةَ المهمةَ جدا» لمجلة "شمس" قائلة:«هي التي تجمَعُ على قَدَمِ المساواةِ الثقافية، الكُتَّاب والفنانين الأوروبيين والمسلمين، **أحمد صفراوي** مع **جون سيناك**، أو**غالييرو** أو**باطاي** أو **بايا**. هي تريد أن تؤكِّد من خلال ذلك، هذا الانصهارَ المتوسِّطي المسجَّلَ ضمن مستقبلِ أفريقيا الشمالية»[391]. مع أنَّ معظمَ هذه المجلات اندثرتْ لنقصان الوسائل، سنةً أو سنتيْن بعد ظهورها الأول، الأمر الذي لم يكن كذلك مع الإصدارات الرسمية أو العلمية مثل "مجلة المتوسط" La revue Méditerranéé و"المجلة الأفريقية" La revue africaine، "وثائق جزائرية" Documents algériens، و"ألجيريا"، ونشرات رسمية للإعلام والدعاية عن «الجزائر الفرنسية» المشهورة بطول عمرها واستمرارها في الصدور إلى غاية الاستقلال. كانت السلطات العمومية تُفضِّل إذن، دعم الإصدارات الواقعة تحت رقابتها، بدلا من هذه المجلات

[390] Organe officiel de presse (service algérien d'information et de presse, Office de l'Algérie à Paris, dont Gabriel Audisio assumait les fonctions de secrétaire). Article daté du 15 novembre 1950. Cité dans Déjeux, "La Revue algérienne…", p.17.

[391] Cité dans Déjeux, La Revue algérienne…", p.17.

الثقافية التي كانت تبث عند الحاجة أفكارا تحريرية خطيرة، رغم التوافق النسبي لخطابها مع الواجهة الإيديولوجية الكولونيالية.

ضمن منطق هذه السياسة الثقافية، كان على السلطاتِ العموميةِ أن تخفِّف من غُلُوِّها فيما يتعلق بالمجلات الثقافية، سِيَّما الإسلامية التي تكاثرت سريعا بعد الحرب. أدار **سي حمزة بو بكر** "السلام" (1946-1947) التي أصبحت "سلام أفريقيا" (1948-1950). ولكنْ، يبدو هنا أيضا، أنَّ الرقابة الخفية للإدارة، كانتْ تعدِّل مدى الخطاب:"إنَّ الكتَّاب التقدُّميين الذين بدأوا في جلب الاستماع لهم، كانت لهم أسباب مشروعة لعدم الكتابة في "سلام أفريقيا"، مجلةٌ أقربُ إلى العين مِنْ أنْ تعتمِدها السلطات الكولونيالية"[392]. ورغم هذا رأت النور إصداراتٌ شعبية، تقدُّمية خصوصا، مثل إصدارات **محمد الشريف ساحلي**، سِيَّما، بدءً من 1947 "رسالة يوغرطة" Le message de Yougourta. ويُفَسِّر ظهورُها، بلا شك، التَّرَفُّقَ الرسمي بـ "سلام أفريقيا".

[392] Ibid., p.9.

د. الصحافة.

تحوَّلتْ المصلحةُ القديمة للصحافة والدعاية، إلى مصلحة الصحافة والإعلام نحو 1950 (ثم إلى مصلحة الإعلام والتوثيق). بإدارة هذه المصلحة لجميع الشؤون الإدارية المتعلقة بالصحافة في الجزائر، لحساب الحكومة العامة للجزائر، شكَّلتْ هيئةً مهمةً جدا للسياسة الثقافية، بحكم أنَّ وسائل المعلومات والثقافة المجمَّعة تحت مظلتها وتأثيرها في الخمسينيات، كانت كثيرة جدا: الإذاعة، وكالة أنباء، عشر يوميات للغة الفرنسية، 187 مجلة ودورية، 3 إصدارات محلية لأسبوعيات باريسية. كانت مصلحةُ الصحافة التابعة لها «تقدِّم معلوماتٍ للإعلام المكتوب أو المسموع، سواء عبر اتصالات مباشِرة وشخصية مع الصحفيين الجزائريين، بالحاضرة الفرنسية أو خارجها، أو بتحرير ملاحظات إعلامية يمكن أن تستعملها هيئاتُ التحرير بشكل مباشِر أو غير مباشِر»[393]. وكانت السلطاتُ العمومية تمتلك إذنْ، على المستوى الإداري أداةً فعالة للسياسة الثقافية، تُقَدِّم إسهاماتها

---

[393] Gouvernement général de l'Algérie, Exposé de la situation générale de l'Algérie en 1954, op. cit., p.526.

يوميا. وإلى هذه الوصاية على الإعلام، كان يُضافُ مقصٌّ الرقابة، بلا رحمة أحيانا، ليس إزاء الصحافة الإسلامية فحسب، بل مع الصحافة الفرنسية كذلك.

و. الإذاعة.

1. الثقافة.

ساهم تضاعف أجهزة الاستقبال بالمنازل، وتنصيب أجهزة بثٍّ، أقوى أكثر فأكثر، كما هو حال جهاز **الأوكاليبتوس** المشيَّد لأجل الذكرى المئوية، في جعل الإذاعة أحد الأدوات المفضلة في السياسة الثقافية انطلاقا من الثلاثينيات. كانت تبث برامج متنوعة، لم تكن أهميتها السياسية، في النهاية، تغيب عن السلطات. كان المسرح، المبثوث عبر الإذاعة، مثلا، يُسْتَغلُّ غالبا لتحقيق تآلف جمهور أمِّي واسعٍ وصعب بلوغه، مع الثقافة الفرنسية. وقد أثار مشروع البث الإذاعي المدرسي "المسرح والجامعة" حماسة كبيرة من جانب السلطات :«وسيجري التسجيلان المعنيان بالجزائر، مع **فيدروس** بالعاصمة و**بريطانيكوس** بوهران. وسيطلع عبر الذبذبات في أوت وسبتمبر القادم بعد بثه أولا في إذاعة العاصمة في جوان القادم»[394]. وكان هدف الحصة هو «مخاطبة جمهور أوسع من جمهور *ساعة الثقافة*

---

394 CAOM, 10 CAB 163, Mai 1952: Projet de passage de l'émission radiophonique scolaire "Le théâtre et l'université" en Algérie.

الفرنسية أو *إذاعة-السوربون*»[395]. كانت تُشَكِّل «التجربة الفرنسية الأولى للإذاعة، المدرسية والثقافية حقا، الموسَّعة إلى عدد أقصى من الجمهور»[396]. وكان البث الإذاعي للمسرح جاريا في غالب الأوقات. في بعض الحالات، كان الأمر يتعلق بمسرحيات مؤلِّفين كلاسيكيين ، فرنسيين (مثل **موليير**) تُرجِمت إلى العربية وبُثَّت في جميع زوايا الجزائر.

وكانت الموسيقى منقولة، بقوة كذلك، بواسطة الإذاعة الجزائرية، ومُثَمَّنة من السلطات العمومية التي كانت ترى فيها، دون ريب، عامل تعلق بفرنسا. لماذا تكفلت الشؤون الأهلية ، سنة 1949 مثلا، بتنظيم دورة للعزف الرباعي Quatuor الوتري تابعة إلى البث الإذاعي الفرنسي[397]؟ كانت الحكومة العامة بالجزائر تَكِدُّ لتسهيل البث الإذاعي لمعظم الحفلات أو الدورات الموسيقية المقدَّمة. وكان وزيبر التربية الوطنية يُذَكِّرُ، من ناحية أخرى، الحاكمَ إلى أي مدي هي مخصصة، هذه التظاهرات، التي لا تخفى عنكم بالتأكيد

[395] Ibid.
[396] Ibid.
[397] CAOM, 9 CAB 39, GGA Affaires indigènes, Lettre du 9 août 1949.

أهميتها، لتلقين بعض الأعمال السمفونية الفرنسية الكبرى، لجمهور لن يتمكن إلا نادرا من سماعها»[398].

2. الحصص باللغة العربية والقبائلية.

بيد أنَّ السلاح الأهم، المستعمل بوساطة الإذاعة، كان يتمثل، بلا ريب، في الحصص الرسمية باللغة العربية والقبائلية. وقد حدَّد مشروعٌ تمهيدي ميزانيةَ حصصٍ من هذا النوع، للسنة المالية 1950 بـ 61000000 فرنكا[399]، وهو ما يُمَثِّل في تلك الفترة مبلغا ضخما جدا. وكان البرنامج يَنُصُّ بوجه خاص على:

> برنامج يومي: قراءات للقرآن (واحدة عند افتتاح الحصة الأولى على الساعة: 6سا34د، وأخرى مع نهاية الحصة الثالثة، وثالثة يوم الجمعة على الساعة 13سا30د)، ثلاث قراءات إخبارية بالعربية العامية (7سا20د، 13سا30د، 20سا)، قراءتان إخباريتان بالقبائلية (12سا، 18سا22د)،

[398] CAOM, 8 CAB 15, le directeur général des arts et des lettres, ministère de l'éducation nationale au gouvernement général, 1948.
[399] CAOM, 9 CAB 39, GGA, Section presse et propagande, information et documentation, 16 décembre 1949.

مجلة للصحافة الفرنسية والأجنبية (19سا40د)،
مجلة للصحافة شمال الأفريقية والعربية كل
ثلاثاء، وخميس وسبت.

برنامج أسبوعي: درس في تفسير القرآن للمفتي الأكبر (الاثنين 20سا20د)، درس في تفسير

السنة للمفتي الأكبر (الخميس 20سا20)، أخبار فنية (الجمعة 20سا20)، محادثة تعالج تطور

وازدهار الإنجازات وكل النشاطات الفرنسية بوساطة السلطات العمومية بالجزائر

(السبت 20سا20)فوق هذا، وللحفاظ على أقصى فعالية لهذه الأداة، كانت مصلحة الإعلام

والتوثيق (فرع حصص باللغة العربية) تزوِّد كل شهر الحكومة العامة بالجزائر، بتقرير عن برامج

العربية والقبائلية لإذاعة الجزائر[400].

وتقدِّم وثيقة عن الدعاية الفرنسية بعض التدقيقات حول الدور السياسي الذي كانت السلطات تمنحه للإذاعة بالجزائر.

---

[400] Ibid.

وسنحتفظ ببعض العناصر الجوهرية التي يمكن اعتبارها أجزاء متمِّمة لهذه «الدعاية»:

على جهاز R.T.F (الإذاعة والتلفزة الفرنسية) الجزائر العاصمة، الحصص باللغة الفرنسية (مثل "تذكرة المساء"، تعليق سياسي)، ولكن على وجه الخصوص الحصص باللغة العربية والقبائلية (تعليقات سياسية على موضوعات الساعة، مثلا، حصة عن الديكتاتورية الثقافية لجمال عبد الناصر؛ أو "محادثات عن القانون-الإطار" التي نجد فيها جملا مثل "الجزائر جزء مكمِّل للجمهورية الفرنسية"، "في 125 سنة، تشكلت شخصية جزائرية، ووُلِد تجمع ثقافي وسياسي، فرنكو-إسلامي حقيقي. فالزمن ليس للحركة الوطنية البليدة. لم تعد كلمة استقلال تمثل شيئا [...])

على جهاز R.T.F (الإذاعة والتلفزة الفرنسية) باريس، الحصص باللغة الفرنسية (مثلا، في 11

مارس 1958 "باريس تحدِّثكم")، ولكن على وجه الخصوص، الحصص باللغة العربية والقبائلية (حصص اجتماعية، مثلا، كيف تملأ ورقة العلاج الطبي؛ حصص تربوية، أدب فرنسي) بالنسبة لأفريقيا، التي نابت عنها الجزائر العاصمة على الموجات المتوسطة (باللهجة العامية):

«كنت أتصفح إصدارا مُهِمًّا موضَّحا بالصور، التي تمثل كل ما أوجدته فرنسا لأجل الجزائر [...] وتبدو سعة العبقرية الفرنسية في جميع صورها، بيد أن إحداها أذهلتني كثيرا: إذ تمثل قاعة فصل في قرية جزائرية، المدرِّس أمام تلاميذه، هادئ، وقور، وعامر باهتمام يقظ. ونقرأ في نظرات الأطفال مثابرة وروحا يقظتيْن. التلاميذ مسيحيون ومسلمون، والمعلم مسلم، أما المدرسة والجامعات فهبة من فرنسا»[401].

[401] CAOM, Affaires politiques, 2169/3, "La propagande française".

لـم تـزدْ حـربُ الجزائـر، ونَصْـب هياكـل للحركـة السيكولوجية، الأهميـةَ السياسـية للإذاعـة إلا اتسـاعا. وكـان تقريـرٌ صـريحٌ للسـلطات العموميـة حـول الدعايـة يُـذكِّر المسؤولين بالدور الجوهري الواجب عليهم لعبه، ويمنحُهم الموضوعات المتواترة التي على هذه الحركة السيكولوجية المدروسة علميا أنْ لا تتردَّد في استغلالها:

> رغم صعوبات لحظة سياسية ملتبسة غالبا، من اللائـق أن يستحضـر مسـؤولو الحصـص فـي أذهـانهم أهميـةَ عـرضٍ دينـاميكي شـعري-مـؤثر بالنسبة لمستمعين عرب-مسلمين، ويقتربوا قدر الإمكـان مـنهم. علـيهم أنْ لا يتـردَّدوا فـي تكـرار الموضوعات نفسها دائما: عظمة الأمة الفرنسية، شباب فرنسا وديناميَّتها التقنية، ترقية الشباب العربي، تساوي كل الجزائريين وتـآخيهم، الكفاح لأجل الحرية الفردية التي يريد الإرهاب خنقها، الكفاح ضد العنصرية، الكفاح ضد إخضاع شعب بوساطة بعض المثقفين الشباب المتعطشين إلى السلطة .... [...] وسيكون مأمولا، تمديد البرامج

القبائلية (ساعة واحدة يوميا من الساعة العاشرة مساء إلى الساعة الحادية عشرة) نظرا لأهمية سكان القبائل في الجزائر الجديدة [...][402].

[402] CAOM, Affaires politiques FM 71, "Coordination des émissions radiophoniques concernant l'Afrique du Nord".

هـ. المسرح باللغة الفرنسية.

دَعَّمَتْ السلطاتُ المسرحَ باللغة الفرنسية، التي كانت ترى فيه أداة ثقافية في متناول أكبر عدد ممكن. خلال الحرب العالمية الثانية، شجَّعت الحكومة العامة تظاهرات كثيرة له. في ديسمبر 1944، اقترحت إعانة مالية لصالح دورة **لوي جوفي** Louis Jouvet وفرقته. في السنة الموالية ساهمتْ في إنجاز «دورة دعائية بالجزائر، تونس، المغرب، لصالح الخدمات الاجتماعية لـ "فرنسا حرة مستقلة" France libre indépendante، التي كانت ستقوم بها فرقة فنية متنقلة عبر حافلة مازوت»[403]. مع رجوع الأمن، بَرَزَ دَعْمٌ بأشكال مختلفة، على نحو منتظم أكثر فأكثر، وتطوَّر النشاط المسرحي. وكانت هناك فرق توظفها الحكومة العامة باستمرار لأجل التمثيلات ذات الطابع الثقافي؛ وقد تعلق الأمر تحديدا، باحتفالات **كارسنتي** Karsenty، لفرقةFrance Monde Productions، ودورات **أربير** Herbert لتنظيمات **شي** Chaix من شركة **شابوي** Chapuis، ونكتفي بذكر أهمِّها. وقد أخذت الحكومة على

[403] CAOM, 8 CAB 15.

عاتقها دائما، تدعيم الدورات والعروض وإنشاء فرق فنية، والإشراف عليها بالمناسبة نفسها.

وكانت هناك حركات دقيقة وظرفية مكمِّلة لهذا العمل، المهمِّ كثيرا وبوضوح للإدارة. وفي تقرير لسنة 1947[404]، تُعْلِمُنا الاستخباراتُ العامة أنه ‹‹في الوقت المحدَّد الذي قرَّر مجلسُ التشغيل خلع الأستاذ **ماري** (مدير المسرح المحلي بوهران) بسبب ‹‹افتضاح عدم كفاءته››، وافق وزير التربية الوطنية على إعانة بقيمة مليوني فرنك››. ويوحي هذا التناقض بأن ‹‹هذه الإعانة تجازي بلا شك التدبير العالي والمستوى الاستثنائي الذي بلغه المسرح الوحيد الشاهد على أفريقيا الشمالية››، ويبرهن أنَّ الحكومة العامة بالجزائر لم تكن وحدها في إيلاء أهمية للمسرح الجزائري.

ونعثر أيضا على بضعة أمثلة للتدخل السياسي في المسرح باللغة الفرنسية. في سنة 1959، أشرفت الشؤون الأهلية على تكوين فرقة مسرحية بالمدية ‹‹غير سياسية أساسا، يُنَشِّطُهَا عضوٌ من الحركة الجمهورية الشعبية (MRP) ويتوخى التأثير على الطبقات الاجتماعية من

[404] CAOM, 9 CAB 74, 10 février 1947.

السُّكان»[405]. ويبدو عسيرا التحدُّثُ عن مبادرةٍ غَيْرِ سياسية عندما يكون عضو من الحركة الجمهورية الشعبية ، معترَفٌ به على هذا النحو، هو الذي يُنَظِّم الفرقة ! حتى وإنْ كان صعبا بالنسبة للسلطات العمومية أن تُبْقِيَ على حركة منتظمة في هذا المجال، حينما كان الحال يوجب ذلك، كان المسرح يمكِّن ليس فقط من الإبقاء على علاقة ثقافية بين السكان الأوروبيين وثقافة الحاضرة الفرنسية، وإنما أيضا مِنْ مواجهة العالم الأهليِّ بالواقع الغربيِّ، بثقافته ولغته، وهذا بفضل مقاربة مسلية، خفية إذنْ، ولكنها فعالة.

---

[405] CAOM, 14 CAB 61, Intérieur et Beaux-arts (Théâtre), secrétariat général pour les affaires algériennes, 15 juillet 1959.

ز. السينما*

1. السمعي البصري والتربية القاعدية.

كانت السلطات العمومية تنوي فعلا، أنْ تستعمل في إطار التربية القاعدية، أدوات سمعية بصرية جديدة بحوزتها «لتيسير التكيُّف مع الحياة الغربية، لدى المسلمين»[406]. كانَ الحاكمُ يقدِّم الخطوطَ العريضةَ لهذا المشروع، بمفردات لا تحتمل اللبس:« مع هؤلاء التلاميذ الكثيرين جدا، المتخلِّفين في تطوُّرهم، والأميِّين، وأمام المهمة التي تنتظر المربين معهم، كان الأكفاء منهم يتراجعون غالبا مرعوبين، إلى اليوم الذي أسرعت فيه هذه «الآلات الثقافية» إلى نجدتهم»[407]. وحسب المركز السمعي البصري للمدرسة النظامية بسانت-كلو، التي كانت المتعهد الرئيسي للمشروع السمعي البصري المتعلق بالتربية القاعدية، وكانت هذه التقنية وسيلة قوية للحركة الدعائية، تمكِّن من الحصول على مستوى عالٍ في المردودية البيداغوجية. «هي تسمح بلفت الانتباه، والاستيلاء

---

* درس عبد الغني المغربي تاريخ السينما الفرنسية بالجزائر وخرج بنتائج مهمة. منها: عدم تأثر الجماهير بها. وسخريتها من الجزائري وتشويه صورته. وقد أثرت على بعض الفئات الاجتماعية ولكنها كلنت قليلة أو شاذة. (أنظر: د.أبوالقاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 304/5-305. طبعة البصائر2009.)

[406] CAOM, 12 CAB 192, Ministère de l'Intérieur, Direction des affaires d'Algérie, Bureau des affaires sociales musulmanes, paris le 27 avril 1956, lettre du ministre résident en Algérie.

[407] Ibid.

عليه، بل إيجاد حالة تنويم مغناطيسي، لأنها تستعمل لغةَ صورةٍ، مجَسَّدةً، مفيدةً على وجه الخصوص، مع سكان جاهلين، هي تدعو إلى انفعال الإنسان، ويمكنها أن تتوجه إلى جمهور موسَّع»[408].

وكانتْ شروطُ فعالية «الآلات الثقافية» محددةً جدا: «على الفيلم أنْ يُريحَ الفرد، ويَكسِبَ ثقته، عليه أنْ يحترم الثقافة المحلية، وهكذا يجدُ المتفرج نفسَه في الممَثِّل ويَلْعَبُ مسار التقمص النفسي المهم جدا دورَهُ، كذلك على عناصر الإثارة أن تكون مقتبسة من الوسط الذي يشكل مرجعا أساسيا»[409]. ولتكوين تأطير تربوي قادر على التحكم في المناهج الجديدة، نظم مركز دار المعلِّمين العليا بسانت كلو، تربُّصاتٍ عن التقنيات السمعية البصرية والتربية القاعدية سنة 1956، وكان يقترح فوق ذلك، كتيِّبات (أفلام تعليمية، أفلام توجيهية (كلوس Clauss)، الطرائق السمعية البصرية في التعليم (Dale) Audio-Visual Methods in teaching، الفيلم والتربية (**إيليوت**)، الملحقات البصرية

[408] Ibid.
[409] Ibid.

للتعليم القاعدي (**يونيسكو**))[410]. وتؤكد هذه الاعتبارات تمديدًا لظاهرةٍ ومأسَسَتَها، تلك التي كانت تتطوَّر سلفا بالجزائر منذ عدة أعوام بمبادرة من السلطات العمومية، وأثبتت جيدا إمكاناتها بشأن فعاليتها، بحيث وقع اللجوءُ إلى البحث عن تنظيرها لأجل تحصيل أقصى ما يمكن من كل طاقتها: الدعاية السينمائية إزاء السكان الأهالي.

2. أفلام التربية القاعدية

وإذا كانت 150 قاعة سينمائية من بين 350 قاعة التي تعدُّها الجزائر، كانت تحجز مكانا أسبوعيا لعرض فيلم باللغة العربية (منها 10 قاعات مختصة)، فإن هذه الثغرة قد سُدَّت بالمقابل، من خلال السينما المتنقلة التي تجوب الجزائر، مانحةً لفرنسا أداةً قويةً للدعاية الثقافية. تميزت مرحلة ما بعد الحرب بتطوير سريعٍ جدا لدوراتِ عروضٍ سينمائية تحت رعاية مصلحة البث السينمائي.

وكانت مصلحة السينما بالحكومة العامة للجزائر، المنشأة سنة 1947، تملك ضمن صلاحياتها مهمةَ إنتاج أفلام

[410] Ibid.

بالعربية العامية والفرنسية. وكانت تُقدَّم على شكل أفلام قصيرة، ووثائقية ذات معلومات واسعة، وأفلام تعليمية أو أفلام في التربية القاعدية (أحداث الساعة، تحقيقات، حكايات وأساطير، أفلام تركيبية): *وجوه من الجزائر*، *الأرض ترتعد بالشلف*، *خبز أطفالك*، *الساعات الأثرى لأفريقيا الشمالية*، *حدائق الجزائر العاصمة*، *الجزائر الرعوية (الريفية)*، *مصطفى*، *الأبواب تنفتح*، *صياد يحكي*، *العنيدان*، *شموس*، *بوزريعة*، *حينما يعيد الإنسان صناعة أرضه*، *فلاحة جيدة- حصاد جيد*، *عسل جيد في خلية نحل جيدة*، *الحفل غير المتوقع*، إلخ.. هذه الأفلام «كانت حية، وكان الفلاحون يجدون أنفسهم ضمن الشخصيات المقدَّمة، وحصلت على نجاح كبير وأدَّت دورها المتمثل في البيان العملي لكيفية البذر، والحرث، أو مكان الحصول على الآلات»[411].

3. الدورات السينمائية.

كانت شاحنات الحكومة العامة بالجزائر هي التي تبث هذه الأفلام. وكانت الدورات، المزيَّنة بالموسيقى العربية

---

[411] Ibid.

المكيَّفة مع المناطق المختلفة المقطوعة»[412]، بشكل عام، شعبيةً جدا، وكانت السلطات تنتظر منها الشيء الكثير. وبالإضافة إلى هذا، كانت هناك تقارير مفصَّلة، تتابع كل حصة. ويحكي أحد هذه التقارير عن العرض الذي جرى بالبرج في 17 أفريل 1948:

> كان كل السكان الأوروبيون والمسلمون للبرج، المقدَّرون بـ 1200 نسمة تقريبا، يَشْهَدُون عرضنا الذي حقق نجاحا واقعيا. وقد أفاد البرنامج المتفرجين، وثمَّنوا فيلم "حج إلى مكة" وجرى عرضُه وسط تعاطف عام [...] وسَجَّلت تصفيقاتٌ متكررة بهجةَ الجميع باستفادتهم من عرض كهذا.
>
> وقد تمكنت، في الواقع، من ملاحظة درجة الاهتمام بمتابعة العرض، وسمحت لي شهادات الرضى التي جمعتها من سكان كثيرين أنْ أُسَجِّل

[412] 9 CAB 39, Service de diffusion cinématographique, Rapport de M. Plassard, chef de bord du camion cinéma NI du SDC sur la tournée de projection cinématographique effectuée dans le département d'Oran du 16/04 au 02/05/1948.

> الانطباع الحسن الذي سيتركه مرورنا بهذه القرية البعيدة[413].

تكشف دراسةُ هذه العلاقات المختلفة لمصلحة البث، النقابَ عن كل الأهمية السياسية المضادة للحركة الوطنية، التي يمكن أن تختزنها هذه الحصص، المسلية من النظرة الأولى. خلال الحصة التي جرت بمعسكر في 20 أفريل من السنة نفسها، وقعت حوادث مكَّنت من قياس مدى هذه الأهمية:

> جرى العرض في إطار الهدوء والنظام، وحتى الحماسة، رغم حضور بعض شباب الحركة الوطنية في بداية الأمسية، الذين حاولوا، عبثا، إقناع بعض المتفرجين بعدم حضور العرض. لقد غرق هؤلاء الشباب الوطنيون في الجمهور غير المبالي بتلاعباتهم، وأضاعوا وقتهم سدى. من المؤكَّد، في الواقع، أنَّ العرض كان يَهُمُّ السكانَ أكثر من سخريات هؤلاء المسلمين الملقَّنين

[413] Ibid.

والمتعلقين بالأفكار المضادة لفرنسا، التي نصَّب مصالي الحاج نفسه الداعية النَّشِط إليها[414].

ولـيس اسـتنتاج قائـد الـدورة بأقـل إيحـاء : «اعتبـر الكثيرون مجيء الشاحنة-السينما إلى منطقة معسكر بمثابة مكافأة للسكان، الذين أظهروا خلال انتخابات المجلس الجزائري مشاعر ولاء لفرنسا وتعلق بها. [...]لم يكن ما لاحظناه مجرد ارتياح، وإنما استعادةً للثقة بين عُنْصُرَيْ السكان»[415]. وكانت تقارير أخرى تؤكد مجدَّدا، استمرارية هذه الحركة وأهدافها. في 1950، يعلق أحدها قائلا : «أدركت مجالس البلديات التي زرناها، بموضوعية، مدى حركة مصلحة البث السينمائي SDC، وعرفوا بفطنة كيف يستفيدون من مرور الشاحنة، ويجعلون جميع رعاياهم، يلامسون الوجهَ الحقيقي لفرنسا وإنجازَها المتابع بالجزائر»[416]. بعد بضعة أشهر، يلاحظ تقرير آخر : «بمتابعة المصلحة لمهمتها العادية، انتهت للتو، ومرة أخرى

[414] Ibid.
[415] Ibid.
[416] CAOM, 9 CAB 39, Service de diffusion cinématographique, Rapport de M. Recorbet, responsable de la tournée du camion cinéma dans le département d'Alger du 30 mai au 1er juin 1950.

كما يبدو، من بيان الاستفادة التي يمكن أن تجنيها منها، جميع إدارات الحكومة العامة بالجزائر، على مستويات الإنجاز الفرنسي والهيبة الفرنسية بالجزائر»[417].

تَكَثَّفَت هذه الحركة شيئا فشيئا، مع ظهور الاضطرابات. وكانت مصلحة البث السينمائي تدير لأجل هذا الغرض، ليس دورات السينما المتنقلة cinébus فحسب، وإنما أيضا عربات مجهَّزة لعرض بحجمٍ مخفَّض. كانت تقدم عروضا داخل قاعات مهيأة، وتُعير أفلاما لتنظيمات رسمية أو خاصة. في سنة 1954، «أُنجِزت341 حصة برعايتها، على صيغة 35م/م و16م/م مكَّنت من ملامسة أكثر من مليون متفرِّج، أغلبهم مسلمون. [...]وقامت فرق متنقلة بحصص أخرى، في 130 مركز مخيمات للعطلة، منشأةٍ بالجزائر، وسط مؤسسات مدرسية مختلفة، وتنظيمات ثقافية واجتماعية كثيرة، وكذا داخل تشكيلات عسكرية متعددة»[418].

[417] CAOM, 9 CAB 39, Service de diffusion cinématographique, Rapport de M. Heros Gilbert, responsable de la tournée du camion cinéma juillet 1950.

[418] Gouvernement général de l'Algérie, Exposé de la situation générale de l'Algérie en 1954, pp.527-529 ; Gouvernement général de l'Algérie, Exposé de la situation générale de l'Algérie en 1955, présenté par Robert Lacoste, ministre Résident en Algérie, avec la collaboration de Pierre Chaussade, secrétaire général du GGA, p.570-572.

كان بحوزة مصلحة البث السينمائي أخيرا، برنـامجٌ مهم جدا عن عروض مخصَّصـة للنسـاء المسلمات. ومع اشتداد الحـرب شيئا فشيئا، ومعهـا الدعايـة والحركـة السيكولوجية، كـان دور السـينما المتنقلـة يتعـاظم. وقـد وُضِـعَ برنـامجُ بـثٍّ شـهري للأفـلام القصـيرة سـنة 1961، موجَّهَـةٍ إلـى جمهـور المسـلمين القَـرَوِيِّين وأشـباه القـرويين[419]. ورغـم طابعهـا الترويحـي، يمكننـا أن نفهـم بقراءتنـا للبـرامج، كـل الخلفيـة الفكرية، الإيديولوجية والسياسية التي تسندها.

مجلـة: "قريـة تولـد" –شـاب جنـدي مسلم، يلتحـق بجماعتـه، فيكتشـف قريـة جديدة. ويصـف لـه كل عضو من عائلته إيجابيات ذلك.

برنـامج رقـم 1: تتمـة البرنـامج: يريـد والـد الشـاب الجندي إبهار قريب لـه بإنجـازات قريتـه. القريـب سـائق شـاحنة ورأى فـي كـل مكـان إنجـازات عصرية أيضـا، يستحضرها بدوره.

[419] CAOM, 15 CAB 148, Délégation générale en Algérie. Direction de l'information.

مجلة : "زواج صفية" – امرأة شابة من "البلاد" يراد تزويجها، تستفيد من الإجراءات الجديدة، المتعلقة بالقبول المتبادل، بفضل تدخل قريبتها و...قريبها.

برنامج رقم 2: تتمة البرنامج: "الأميرة الخرساء" (حكاية)- تظاهرت أميرة أسطورية بالخرس كي لا تتزوج عجوزا رهيبا. واسترجعت الكلام بفضل طالب زواج فاتن، وطلبت من أبيها أن تكون لكل فتيات المملكة في المستقبل إمكانية اختيار أزواجهن[420].

---

[420] طافت 100 نسخة من كل فيلم بالمقاطعة ابتداء من سنة 1961.

ح. التأطير السوسيو-الثقافي للشباب

كان كلٌّ ما يتعلق بالشباب، في مركز اهتمامات الحكومة العامة. وبالإضافة إلى ذلك، كان الموقع الممنوح لتأطير الشباب ضِمْنَ مجهوداتِ السلطات، مُعَزَّزًا بنمط من الإنجازات المدعَّمة، والخاضعة لرقابة السلطات العمومية. من بين هذه الإنجازات، نجد جمعيات اجتماعية-ثقافية ذات طابع فني وتربوي ورياضي. في سنة 1955، سنذكر على سبيل المثال، بالجزائر العاصمة و المقاطعة: المركز العَلْماني للسياحة الثقافية، والاتحاد الفرنسي للأعمال العَلمانية للتربية الفنية، والديوان الجزائري للسينما التربوية...إلخ؛ وأما بقسنطينة فهناك: الاتحاد الرياضي للتعليم الابتدائي، الاتحاد الفرنسي للأعمال العَلْمَانية للتربية البدنية UFOLEP،..إلخ[421]. كان هناك عنصران ثقافيان تربويان رئيسيان يدعمان حركة السلطات العمومية في مجال تأطير الشباب: المراكز الاجتماعية ومصلحة الحركات الشبابية والتربية الشعبية.

---

[421] CAOM, 11 CAB 39.

1. المراكز الاجتماعية

وَضَعَتْ الحكومةُ العامةُ في 1955، بالتنسيق مع التربية الوطنية، والصحة العمومية، والفلاحة والعمل، مصلحةَ المراكز الاجتماعية (مراكز ريفية تربوية قديمة). وبفضل «الوسائل التربوية»: المربُّون القاعديون، والمرشدات في التعليم المنزلي والعائلي، والمرشدون الريفيون، والمرشدون في التكوين ما قبل الاحتراف، والمساعدات الطبية الاجتماعية، والممرِّضات، كانَتْ المراكزُ الاجتماعية العمرانية أو الريفية تمنَحُ «تربية قاعدية» للسكان غير المتمدرسين (أو الذين لم يعرفوا التمدرس أبدا) ومَكَّنُوا الشبابَ المسلمين تحديدا من الاستفادة من محو الأمية، والرعاية الطبية والتربية الصحية.

فيما يتعلق بطابعها الضروري (وفق مفرداته الخاصة نفسها)، كان الوزيرُ المقيمُ يشرَحُ قائلا: «التربية التي نقدُّمها لها هدف محدَّد: رفع مستوى المعيشة، عبر صحة أحسن، والحصول على شغل، وتحسين الموارد وخلقها، عبر التكيُّف مع الوسط الاجتماعي والإداري، الذي يوجد الإنسان اليوم

فيه [...]. يسعى المركز الاجتماعي لجلب المهتمين نحو الشعور بضرورة التكيف والتطور [...][422]. وكانت هذه الحركة السيكولوجية، المشبَّعة بالدلالة الثقافية، كما نظمها الجيش، لكسب السكان في صف قضية الجزائر الفرنسية.»

2. مصلحة حركات الشباب والتربية الشعبية

كانت مصلحة حركات الشباب والتربية الشعبية تحديدا، تهتم، خلال العطل المدرسية، بتنظيم مشاغل لشباب الجزائر (مخيمات، سياحة ثقافية...). فعلى سبيل المثال، شهد صيف 1954، تكفل هذه الهيئة بـ 23000 طفلا، من بينهم 6000 مسلما[423]. وكان الحاكم العام يشرح أنَّ «مجهودا يُتابَعُ لضمان، أفضلية، تسجيل أطفال تبدو إقامتهم بمخيم أمرا ضروريا لهم على وجه الخصوص، طبيا ومعنويا»، ويستنتج «يمكننا أنْ نأمل إذن، رؤية عدد الأطفال المسلمين المدعوين للاستفادة والتمتع بالعطلة، في ارتفاع من سنة إلى أخرى»[424]. في تقرير الحاكم العام لسنة 1954، يمكننا أنْ

[422] Gouvernement général de l'Algérie, Exposé de la situation générale de l'Algérie en 1955, op. cit., p.550.
[423] Gouvernement général de l'Algérie, Exposé de la situation générale de l'Algérie en 1954, op. cit., p.502
[424] Ibid.

نقرأ السطور التالية:«ارتفع عدد الجمعيات ودور الشباب والمراكز الريفية، بلا توقف : اتسَعَتْ النشاطات وتحدَّدتْ المناهج البيداغوجية وأصبحت مُقَنَّنَة»[425]. ويُوَضِّح هذا التقرير أنَّ، من المنتظر رفع عدد المعلمين مع ميزانية 1954-1955 وأنَّ على تكوينهم أن يتوجه نحو الفنون والثقافة:

> وقد أمكنَ تخصيصُ تربُّصٍ كامل، لمدة أسبوع، بهدف دراسة وسائل لتقديم الروائيين الكبار للقرن التاسع عشر. وأصبحت الطلبات على معلمين مختصين (الفن الدرامي وعروض الفرقة المسرحية، السينما، الفنون البلاستيكية....إلخ) أكثر عددا وأشد إلحاحا. خلال العام 1954، سعت مصلحة تحركات الشباب والتربية الشعبية، فضلا عن ذلك، إلى صيغ تنشيطية جديدة، وقد بدت إحداها مخصبة، بوجه خاص، ويتعلق الأمر بإرسال «بعثات تربوية» إلى المدن والقرى، تضم معلمين كثيرين مدعوين للإقامة خلال

[425] Ibid.

بضعة أيام بدار الشباب أو المركز الريفي، الذي ينشطونه، حيث يجمع كل واحد حول اختصاصه جزءً من السكان. وكانت النتائج المحصلة مشجعة جدا. وبصيغة مشابهة قليلا، تأمل المصلحة في أن تحظى، خلال وقت قصير، كثير من مدن الجزائر، بدور الشباب والثقافة، مجهَّزة بما يكفي ومزوَّدة بمنشطين، كي تبسط على المناطق التابعة لها اقتصاديا، إشعاعها الثقافي وتقدم لكل سكان "البْلاد" التسليات التربوية التي يطلبونها[426].

وكانت الحكومة، الراضية جدا عن نتائج هذه الحركة السيكولوجية الثقافية المهمة، تنوي في إطار حركةٍ ما بعد الدراسة، ممدِّدةٍ لحركة مصالح تحركات الشباب والتربية الشعبية، أنْ تنشئ ثلاثَ مدارس للتكوين الفني ذات وجهة

---

[426] Ibid., pp.502-503.

اجتماعية، لأنها كانت تقدِّرُ أنَّ «حاجاتِ الشباب الجزائري في المجال الثقافي، تبدو غير مرعية بالقدر الكافي»[427].

3. الرياضة

وأخيرا، كانت الرياضة تحتل موقعا مهما في انشغالات السلطات العمومية، فيما يتعلق بتأطير الشباب. وهناك جانبان، كان يمكن أنْ يكون لهما نتائجُ ثقافية وإيديولوجية وسياسية. في المقام الأول، كانت ممارسة التربية البدنية بالمدرسة ومأسسة الرياضة، تمثلان ثورةً ثقافية بالنسبة للشباب المسلمين، سيما الفتيات، وتساهمان من دون أدنى شك في تغريبهن.

في المقام الثاني، كان كل شيء مهيَّئا لرعاية الشغف بالرياضات الجماعية، المكرَّمة جدا بالجزائر (كرة القدم 25885 خِرِّيجا في 1954، كرة البولينغ 15510 خِرِّيجا، الكرة الطائرة 2799، كرة السلة 4935....)[428].

---

[427] CAOM, 14 CAB 61, Délégation générale du gouvernement en Algérie. Cabinet du délégué général, au directeur des personnels et des affaires administratives, 8 novembre 1959.

[428] Gouvernement général de l'Algérie, Exposé de la situation générale de l'Algérie en 1954, op. cit., p.507.

ونتصور بلا عناء، أنَّ السلطات السياسية لم يكن أمامها غير النظر بعين الرضا إلى كل ما يمكنه أن يشجع التفاعل الثقافي والمؤاخاة بين مختلف التجمعات عبر تطوير روح جماعية ذات إلهام كوبرتيني*.

* نسبة إلى كوبرتين Coubertin.

خلاصة عامة

إنَّ البديهية الأولى، التي تفرض نفسها، في نهاية هذه الدراسة، هي الموقع الأساسيُّ للثقافة في تاريخ الجزائر الفرنسية. ومِنَ الغزو إلى القضاء على الاستدمار، ومن نظام عسكريٍّ إلى آخر، هي تتدخَّل في جميع المراحل، وعلى كلِّ المستويات، رفقة تنوُّعٍ استثنائيٍّ، وثراءٍ عظيمٍ وثباتٍ كبيرٍ، على مستوى واقعها اليومي والسياسي. تُعَدُّ الثقافة، بصفتها مكوِّنا أساسيا للنظام الاستدماري، مَوْشُورا يمكننا من خلاله، أنْ نُلْقيَ نظرة جديدة على عمل هذا الأخير، وتطورَه وآلياته، ونقاطَ ضعفه والتباساته.

يكشف التاريخ الثقافي للجزائر انسجاما شبه-منهجي بين معنى (ومبنى) الحركات المباشَرة في مختلف مجالات الثقافة، وبين الصياغة العامة للسياسة الاستدمارية الفرنسية تبعا للإيديولوجيات المتعاقبة المحدِّدة لها. ، انطبعت الثقافة بالفترة التي كانت تَتَطَوَّرَ فيها، فانتقلت مِنْ تمدينيةٍ إلى إدماجيةٍ، ثم أصبحت وصائية وتشاركية، لتتطوَّر أخيرا نحو

متوسِّطية واندماجية. ليست الثقافة إذنْ، حقلا متميِّزا عن السياسة، بل هي على النقيض من ذلك.

تُحِيلُ هذه الواجهات الإيديولوجية المختلفة، للتاريخ الثقافي للجزائر الفرنسية، على واقع كشفته دراستها المعمَّقة، ألا وهو تطابقها الدائم (في العمق)، على المدى الطويل، مع المصلحة العليا للدولة، فقد كان هدفها الثابت هو الديمومة الفرنسية بالجزائر. لم تَضُرّ الحركاتُ المباشَرة في مجال الثقافة بالنظام، بل على عكس من ذلك، خَدَمَتْه دائما، طوعا أو كرها.

ستحدِّد السياسةُ إذنْ، دائما، الخياراتِ في مجال الثقافة، شكلا ومضمونا، بحيث يمكن في النهاية، اعتبارُ كلِّ الحركات الظرفية، الدقيقة، والمستقِلة عن بعضها البعض، كُلاًّ متكاملا، يُسَمَّى السياسة الثقافية. وقد تأقلمت إذنْ مع السياسة الاستدمارية لأجل خدمتِها على نحو أحسن، بصفتها دبلوماسيةً للظاهر، وسياسةً انتهازيةً ومتعددةَ الأشكال. وتكشف الأقنعة المختلفة التي ارتدتها، وكذلك حدودُها، في العمق، وجهًا جديدا للسياسة الاستدمارية الفرنسية بجميع

التباساتها. وثَمَّةَ تناقضٌ جوهريٌّ ملازمٌ للنظامِ، وَيُمَكِّنُ مِنَ تسليط الضوء عليه بحدة مستحدثة: ويتعلَّق الأمر بالتأقلم المستحيل للممارسة أمام ثباتِ الإكراهات الخاصة بنظامٍ للهيمنة.

كان التحكُّم الكليُّ في المستدمَر، وتقبلُّه الطوعيُّ قدر الإمكان للنظام، هو الشرط اللازم للسلام والديمومة السياسية. لأجل هذا، كان من اللازم إبادة كل خميرة احتجاجية أو وحدوية، أيْ كلَّ الثقافة العربية الإسلامية، الواقع العميق الوحيد السابق للغزو. ولكنْ، لكي يتقبَّل المستدمَر الهيمنة، عليها أنْ لا تبدو في شكل قهري، وإنما أنْ تبرهنَ على تسامح معيَّن. على الغالِب أنْ يصنعَ له قدرا بتقديم تنازلات على أرضيةٍ تَهُمُّ المغلوبين، وهي ثقافتهم العربية الإسلامية أو البربرية. وهكذا، وبينما كان على فرنسا أنْ تكافح لأجل منع الثقافة من توحيد الجزائريين داخل أمةٍ، كان يجب عليها بالمقابل، أنْ تَبْدُوَ أكثر تحررية، بقدر ما كان السياق الدولي يتقدَّم فعلا باتجاه تحرير الشعوب. كان على فرنسا إذنْ، أنْ تسمح، طَوْعا أو كَرْها، بصناعة السلاح الذي سيهزمها.

وإذا كان من الصعب أنْ نقيس بدقة النتائج الفورية للسياسة الثقافية، يمكننا بالمقابل أنْ نقول: إنها سمحت طيلة زمن طويل بإنقاذ المظاهر، مع القيام بعمل أساسي لا تزال نتائجه مدرَكة اليوم على نحو واسع. وإذا لم تكن كافية لمواجهة الضغوط الخارجية وإبقاء السيادة الفرنسية، فقد نجحت في أنْ تجعل من الجزائر بلدا أكثر تفرنسا مما كنا نعتقده. في زمن الاستقلال، كان جزءٌ مهمٌّ من السكان فعلا ذا لغة وثقافة فرنسيتين، وهي حقيقة لم يعدِّلْها الاستقلال*. وهكذا، مِنَ المهمِّ أنْ نلاحظ كلَّ قوةِ السياسة الثقافية عبر نجاحها على المدى البعيد، وهذا رغم فشل الغاية السياسية التي كانت تضُمُّها.

إنَّ السياسة الثقافية ظاهرة تكتسب اليوم، أهميةً، معتبَرَةً أكثر فأكثر في مجال العلاقات الدولية. ويرى كثيرون منذ الآن، أنَّ حروبَ الغد ستكون دماغية وأنَّ الثقافة ستكون عن قريبٍ المرجعَ الوحيدَ للهوية، المقبولَ في مجتمعٍ عابرٍ للقوميات. وضمن هذه الشروط، يبدو، من الملائم، أنْ نحاول

* لا أعتقد أن هذا التقييم للواقع الجزائري الحالي دقيق، بيد أنه رغم عظمة المشاريع الرسمية وغير الرسمية في مجال ترسيخ الهوية العربية الإسلامية بالجزائر، فإن المسافة كانت طويلة بين النص والواقع، و كان بإمكان الاستقلال أنْ يفعل أكثر مما فعله حتى الآن، أما استمرار الاستدمار فقد كان سيؤدي لا محالة إلى أسوأ مما تركنا عليه.

فهم البعد الثقافي في العلاقات بين الدول، بشكل أحسن قليلا. وإذا كانت دراسةُ حالةٍ خاصةٍ، لا تُشَكِّلُ سوى خطوة أولى في هذا المشروع الرحب، فَيُمْكِنُها أنْ تُقَدِّم سلفا مساهمةً في علم الثقافة culturologie الذي تستحق أن تُفْرَدَ لها دراسة معمَّقة.

مصادر المؤلِّف

Sources

<u>1) Archives nationales section d'Outre-Mer (Aix-en-Provence) : Centre des archives d'Outre-Mer (CAOM)</u>

Gouvernement général, Série S : Instruction publique et beaux-arts

Instruction publique

1.S.1. Généralités des musulmans

22.S.1. Généralités, principes, instructions, circulaires (1844-1874)

22.S.3. Ecoles arabes-françaises (1835-1876)

24.S.1. Médersas (1851-1884)

Enseignement supérieur

40.S.1. Création de l'université d'Alger, principes, généralités (1909-1941)

Beaux-Arts, sciences et lettres

53.S.1. Missions scientifiques et artistiques (1839-1882)

56.S.1. Monuments historiques – Affaires diverses (1875-1882)

60.S.1. Bibliographies et Musées (1866-1876)

61.S.1. Théâtre (1846-1876)

Centenaire

64.S.51. Cinéma

64.S.62. Propagande par le livre, publications

64.S.82. Subventions à la ville d'Alger : Casino, Musée des beaux-arts

Alger

3.S.24. Langue arabe (1948-1959) : enseignement en langue arabe, théâtre en langue arabe…

Oran

3.S.1. Théâtre, contrôle (1844-1882)

3.S.2. Théâtre, contrôle (1920-1930)

3.S.3. Théâtre, contrôle Mascara, Mostaganem, Sidi…, Tlemcen (1848-1883)

3.S.4. Théâtre, contrôle Mascara, Mostaganem, Sidi…, Tlemcen (1883-1929)

3.S.5. Spectacles divers, instruction, affaires générales (1837-1881)

Gouvernement général, Série CAB : Cabinet du gouverneur général

Georges LeBeau

3 CAB 77

3 CAB 82

3 CAB 84

Marcel Peyroutou

6 CAB 15

Marcel Edmond Naegelon

9 CAB 39

9 CAB 74

Roger Léonard

10 CAB 48

10 CAB 163

Jacques Soustelle

11 CAB 39

Robert Lacoste

12 CAB 192

Paul Delouvrier

14 CAB 61

Jean Morin

15 CAB 148

Affaires politiques

Aff. pol. **FM 71**

Aff. pol. **2169/3**

2) Rapports du gouvernement général.

Gouvernement général de l'Algérie. Exposé de la situation générale de l'Algérie en 1954. Présenté par M. Jacques Soustelle, Gouverneur général de l'Algérie, avec la collaboration de M. Maurice Cuttoli, secrétaire générale du GGA.

Gouvernement général de l'Algérie. Exposé de la situation générale de l'Algérie en 1955. Présenté par M. Robert Lacoste, Ministre président en Algérie, avec la collaboration de M. Pierre Chaussade, secrétaire générale du GGA.

3) Archives militaires – service historique de l'armée de terre (Fort de vincennes) ; SHAT

1 H 2403. Création, Organisation et dissolution des bureaux et organismes d'action psychologique (1955-1961)

1 H 2408. Objectifs, doctrines et méthodes d’action psychologique (1954-1956)

1 H 2409. Objectifs, doctrines et méthodes d’action psychologique (1957-1958)

مراجع المؤلِّف

Bibliographie

I. Cadre Théorique

A. Monographies

Anderson, Benedict. *Imagined Communities* : Reflections on the origin and spread of nationalism. New york, Verso, 1983. 350 pages.

Barthes, Roland. *Mythologies*. Londres, Paladin Grafton, 1989, 254 pages.

Berger Peter et Thomas Luckman, *La construction sociale de la réalité*, Paris, Armand Colin, coll. "Références". Série Sociologie. 1996. 288 pages.

Finnemore Martha, *National interests in international security*, Ithaca & London, Cornell University Press, 1996. 156 pages.

Foucault Michel, *L'ordre du discours*, Paris, NRF, 1971, 81 pages.

Galtung, J. Culture et impérialisme. Genève, Le savoir et le Faire, PUF, Institut de développement de Genève, 1975.

Ricœur, Paul. *Civilisation universelle et cultures nationales*. Paris, Le seuil, 1964.

Robertson, Roland, *Globalization*, *Social Theory and Global culture*, London, Newbury Park & New Delhi, Sage Publications, 1992, 212 pages.

Roche, Jean-Jacques. *Théorie des relations internationales*. Paris, Montchrestien, 1994, 152 pages.

Salon Albert, *Vocabulaire critique des relations culturelles internationales*, Paris, La maison du dictionnaire, 1978, 176 pages.

B. Articles et revues

Althusser Louis, "Idéologie et appareils idéologiques d’Etat". La pensée. n° 151, mai-juin 1970. pp. 3-38.

Galtung, Johan. "Culture Violence". *Journal of peace research*. Vol.27, N°3, Août 1990. pp. 291-306.

Wendt Alexander E, "Constructing international politics", *International security*, 20 (1), été 1995, pp.79-80.

II) Algérie

B. Monographies

Ageron Charles-Robert, *Les Algériens Musulmans et la France* (1871-1919) – 2 *tomes*, Paris, PUF, 1968, p.991.

Ibid. (dir),*Les chemins de la décolonisation de l'Empire colonial français* – colloque organisé par l'IHTP les 4 et 5 octobre 1984, Paris, éd. du CNRS, 1986, 560 pages.

Ibid. *France coloniale ou parti colonial ?*, Paris, PUF, coll. «Pays d'Outre-Mer», 1979, 302 pages.

Ibid. Histoire de la France Coloniale, Paris, Armand Collin, 1990, Tome II.

Balandier Georges et Marc Ferro (dir.), *Au temps des colonies*, Paris, Seuil/ *L'Histoire*, 1984, 130 pages.

Balous, Suzanne. L'action culturelle de la France dans le monde. Paris, PUF, 1970, 190 pages.

Brahimi-Chapuis Denise et René Challande, *Littérature et politique*, Paris, Delagrave, coll. G. Belloc, 1976, 127 pages.

Bruant, Catherine, Sylvianne Leprun et Mercédès Volait (dir.). *Figures de l'orientalisme en architecture.* Paris, Edisud, *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*, 1996, n^{0}73-74. 391 pages.

Calmes Alain, *Le roman colonial en Algérie avant 1914*, Paris. L'Harmattan, 1984, 272 pages.

Calvet Louis-Jean, *Linguistique et colonialisme - Petit traité de glottophagie*, Paris, Petite bibliothèque Payot, 1979, 236 pages.

Collectif, *Histoires d'Outre-Mer –Mélanges en l'Honneur de Jean-Louis Miege*, tome I[er], Aix-en-Provence, Publications de l'Université de Provence, 1992, 714 pages.

Collectif, Le Maghreb dans l'imaginaire français. Paris, Edisud, coll. «Maghreb Contemporain», Revue de l'occident musulman et de la méditerranée, 1985, 223 pages.

Colonna Fanny, *Instituteurs algériens 1883-1939*, Alger, OPU, 1975, p.169.

Girardet Raoul, L'idée coloniale en France, Paris, La Table Ronde, pp.250-251.

Glasman, Dominique et Jean Kremer, Essai sur l'université et les cadres en Algérie, Paris, Ed. du CNRS, 1978. 240 pages.

Goinard Pierre, *Algérie, l'œuvre française*, Paris, Robert Laffont, 1984, 420 pages.

Gombrich E.H., *Art and illusion – A study in the psychology of pictural representation*, Princeton, Princeton University Press, 1960.

Janin, Sophie. *Études des commandes. artistiques de l'État à sujets politiques sous la IIIème Républiqueque, 1880-1900.* Mémoire de Maîtrise, 1977, Université de Nanterre.

Lagana, Marc *Le Paris colonial français*, Québec, Presses de l'Université du Québec, coll. Éléments d'Histoire, 1990, 188 pages.

Lanasri, Ahmed *La littérature algérienne de l'entre-deux-guerres*, Paris, Publisud, 1995, 506 pages.

Leimdorfer, François *Discours académiques et colonisation* – Thèmes de recherche sur l'Algérie pendant la période coloniale, Paris, Publisud, 1992, 316 pages.

Loutfi, Martine. *Littérature et colonialisme: l'expansion coloniale vue dans la littérature romanesque française,* 1871-1914. Paris, Mouton/De Gruyter, 1971. 147 pages.

Lucas Philippe et Jean-Claude Vatin, *L'Algérie des anthropologues*, Paris, Maspero, 1975, 292 pages.

Marseille, Jacques. *Empire colonial et capitalisme français, Histoire d'un divorce.* Paris, Albin Michel, 1984.446 pages.

Meyer, J., Tarrade, J., Rey-Goldzeiguer, A., Thobie, J., Meynier, G., Coquery-Vidrovitch, c., Ageron, C.R. *Histoire de la France coloniale.* Paris, Armand Colin, 1990. 2 tomes.

Pahlavi, Pierre Cyril. La guerre révolutionnaire menée par l'armée française en Algérie (1954-1958). Mémoire de Maîtrise, Université de Nice Sophia-Antipolis, 1997. 137 pages

Pervillé Guy, *Les étudiants algériens de l'Université française*, 1880-1962, Paris, éd. Du CNRS, 1984, 346 pages.

Rapport du Groupe d'experts européens. *La politique culturelle de la France.* Paris, La Documentation Française, 1988.

Rapport Rigaud. *Les relations culturelles extérieures de la France.* Paris, La Documentation française, 1979. 112 pages.

Salon, Albert. *L'Action culturelle de la France dans le monde.* Paris, Nathan, 1983.

Stora, Benjamin. *Histoire de L'Algérie coloniale (1830-1954).* Paris, La Découverte, Repères, 1991.

Stern, J. *Les Colonies françaises, passé et avenir.* New-York, Brentano's, 1943. 398 pages.

Tassadit, Yacine-titouh. *Les voleurs de feu, éléments d'une anthropologie sociole et culturelle de l'Algérie.* Paris, éd. De la Découverte/Awal, 1993. 188 pages.

Turin, Y. *Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale: écoles, médecines, religion, 1830-1880.* Paris, Maspero, 1971.

Vaisse, Pierre. *La Troisième République et les peintres recherches sur les rapports des pouvoirs publics et de la peinture en France de* **1870 à** 1914. Thèse de Doctorat, Université de Paris *N,* 1980. 2 volumes.

Vatin, J .C. *L 'AIgérie politique, histoire et société.* Paris, Presses de la Fondation nationale des sciences politiques, 2ème éd., 1983.394 pages.

Ibid. et al. Connaissances du Maghreb - Sciences sociales et colonisation. Paris,éd. du CNRS, 1984.

Ibid. et *al.*, *Connaissances du Maghreb – Sciences sociales et colonisation*, Paris, éd. Du CNRS, 1984.

B. Articles de revues et chapitres de livres

Achour, C. et S. Rezzoug. "Brisure dans une cohérence discursive : l'autochtone dans les textes coloniaux de 1930 en Algérie". Dans *Des années trente - Groupes et ruptures.* Meudon, ed. du CNRS,1985. pp.74-94.

Adam, Jeanne. "Polémique autours du premier Grand Prix littérai de l'Algérie - La situation des Lettres algériennes en 1921". Da *Le Maghreb dans l'imaginaire Français,* Paris, Edisud, coll. Maghreb Contemporain », *Revue de l'Occident Musulman et de Méditerranée,* 1985. pp.13-30.

Basfao, Kacem et Jean-Robert Henry. "Imagerie populaire caricature". *Annuaire de l'Afrique du Nord,* 1993. pp.175-192.

Bencheneb, Rachid. "Le mouvement intellectuel et littéra algérien à la fin du XIXe et au début du XXe siècle". *Revue Française d'Histoire d'Outre-Mer,* 1983,70(1-2). pages 11-24.

Bérenger, A. "Dupuch (A.A.) premier évêque d'Alger" *Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclésiastiques,* tome XIV, 1960. pp.1146-1l49.

Boëtsch Gilles et Jean-Noël Ferrié. "L'impossible objet de raciologie". *Cahiers d'études africaines,* 1993, XXXIll (1), 129, pages 5-18.

Boëtsch, Gilles. "Egypte noire et Berbérie blanche - La rencon manquée de la biologie et de la culture". *Cahiers d'Étue Africaines,* 1993, XXXIll (1), 129. pages 73-98.

Bourgeot, A. "Résistance et collaboration en Ahaggar". *Annuaire de l'Afrique du Nord,* 1984. pp.479-500.

Burth-Levetto, Stéphanie. "Le Service des bâtiments civils en Algérie (1843-1872), Entre discours et réalité". Dans Catherine Bruant, Sylvianne Leprun et Mercédès Volait (dir.), *Figures de l'orientalisme en architecture*, Paris, Edisud, *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*, 1996, n⁰73-74.

Cazenave, Elisabeth. "Le monument commémoratif du Centenaire de l'Algérie réalisé en 1930 à Boufarik". *L'Algérianiste*, n⁰81, mars 1998. pp.112-120.

Chaker, Salem. "Langue berbère et influence française : le point sur une question délicate (Algérie-Kabylie)". *Présence francophone*, n⁰4O, 1992. pp.79-98.

Coye, Noël. "Préhistoire et protohistoire en Algérie au XIXe siècle: les significations du document archéologique". *Cahiers d'études africaines*, 1993, xxxm (1), 129. pages 99-137.

Dechavanne, Paulette. "Conférence prononcée le 24 octobre 1992 à Aix-en-Provence". *L'Algérianiste.* pp.7-15.

Déjeux, Jean. "La Revue algérienne Soleil (1950-1952) fondée par reao Sénac et les revues culturelles en Algérie de 1937 à 1962". *Présence francophone*, n019, automne 1979. pp.5-27.

Ibid "L'identité et le masque, les pseudonymes dans la littérature le langue française en Algérie". *Annuaire de l'Afrique du Nord*, Tome *XXIV*, 1985. pp.385-396.

Djeghloul, Abdelkader. "Un romancier de l'identité perturbée et de l'assimilation impossible, Chukri Kodja". Dans *Le Maghreb dans l'imaginaire Français*, Paris, Edisud, coll. «Maghreb

Contemporain», *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée,* 1985. pp.81-96.

Drouot, Christine et Olivier Vergniot. "Victor Barrucand, un indésirable à Alger". Dans *Le Maghreb dans l'imaginaire.*

Français, Paris, Edisud, coll. « Maghreb Contemporain », *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée,* 1985. pp.31-36.

Esquer, Gabriel. "La vie intellectuelle en Algérie". *Simoun,* 6ème année, nlle série, n^{0}26, 1957. pp.I-65.

Ferrié, Jean-Noël. "La naissance de l'ère culturelle Méditerranéenne dans l'anthropologie physique de l'Afrique du nord". *Cahiers d'études africaines,* 1993, XXXIII (1), 129. pages 139-151.

Frémeaux, Jacques. "Souvenirs de Rome et présence française au Maghreb : essai d'investigation". Dans J.C. Vatin et AL, *Connaissances du Maghreb - Sciences sociales et colonisation,* Paris, éd. du CNRS, 1984. pp.29-46.

Haoui, Karim. "Classifications linguistiques et anthropologiques de la société d'Anthropologie de Paris au XIXe siècle". *Cahiers d'études africaines,* 1993, XXXIII (1), 129. pages 51-72.

Henry, Jean-Robert. "Résonances maghrébines". Dans *Le Maghreb ; dans l'imaginaire Français,* Paris, Edisud, coll. « Maghreb Contemporain », *Revue de l'Occident Musulman et de la ; Méditerranée,* 1985. pp.5-14.

Ibid. et F. Henry-Lorcerie. "Le centenaire de la « conquête » de l'Algérie - Achèvement d'une littérature de combat". Dans *Des Années Trente: Groupes et Ruptures,* Meudon, éd. du CNRS, 1985. pages 105-122.

Malarkey, James. "The dramatic structure of scientific discovery in colonial Algeria : A critique of the Journal of the Société archéologique de Constantine (1853-1876)". Dans J.C. Vatin et *al., Connaissances du Maghreb - Sciences sociales et colonisation,* Paris, éd. Du CNRS, 1984. pp.137-160.

Michalak, Laurence O. "Popular French Perspectives on the Maghreb : Orientaliste painting of the late 19th and early 20th centuries". Dans J.c. Vatin et Al., *Connaissances du Maghreb Sciences sociales et colonisation,* Paris, éd. Du CNRS, 1984. pp.47-63.

Monnier, Gérard. "Architecture et urbanisme en Algérie sous le ' second empire : le cas de l'architecte Charles-Frédéric Chasseriau (1802-1896)", lieu et date inconnus, fascicule trouvé au CAOM.

Montclos, Xavier de. "Les « armes » du Cardinal Lavigerie, dans Balandier, G. et Marc Ferro dir. *Au temps des colonies.* Paris, L'Histoire/Seuil, 1984.

Orif, Mustapha. "De l'« art indigène» à l'art algérien". *Actes de la Recherche en Sciences Sociales,* 1988, n^{0}75. pp.35-49.

Oulebsir, Nabila. "La découverte des monuments de l'Algérie, Les missions d'Amable Ravoisié et d'Edmond Duthoit (1840-1880)". Dans Catherine Bruant, Sylvienne Leprun et Mercédès Volait (dir.), *Figures de l'orientalisme en architecture,* Paris,

Edisud, *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée,* 1996, n^{0}73-74. pp.57-76.

Paillard, Yvan. "L'association, une nouvelle politique coloniale. Discours et pratique (1905-1914)". Dans Collectif, *Histoire d'Outre-Mer, Mélanges en l'honneur de J.I. Miege.* Publications de l'Université de Provence, 1992.

Planche, Jean-Louis. "Charles Courtin, Romancier de l'affrontement colonial". Dans *Le Maghreb dans l'imaginaire Français,* Paris, Edisud, coll. «Maghreb Contemporain», *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée,* 1985. pp.37-46. Pouillon, François. "La peinture monumentale en Algérie : un art pédagogique". *Cahiers d'éludes africaines,* v.36, n°1.2. pp.183213.

Ibid. "L'ombre de l'Islam, les figurations de la pratique religieuse dans la peinture orientaliste au XIXème siècle". *Actes de la Recherche en Sciences Sociales,* 1988, n075. pages 24-34.

Ibid. "La société algérienne en peinture". *Annuaire de l'Afrique du Nord,* Tome XXIX, 1990. pages 209-224.

Ibid. "Echange agonistique et marché des valeurs artistiques : situation de la peinture en Algérie : l'image dans le monde arabe". *Annuaire de l'Afrique du Nord,* 1993, vo1.32. pp.163-173.

Prochaska, David. "Reconstructing « l'Algérie française »". Dans J.c. Vatin et Al., *Connaissances du Maghreb - Sciences sociales et colonisation,* Paris, éd. du CNRS, 1984. pp.65-78.

Ibid. "History as Literature, Literature as History: Cagayous of Algiers". *American Historical Review,* 101(3), Juin 1996. pages 670-711.

Siblot, Paul. "Dialectiques d'une formation discursive coloniale: d'une Algérie à l'autre". *Littérature,* 1989, n076. pp.56-73.

Soumille, Pierre. "Les multiples activités d'un prêtre français au Maghreb : l'Abbé François Bourgade en Algérie et en Tunisie de 1838 à 1858". Dans Collectif, *Histoire d'Outre-Mer, Mélanges en "honneur de J.I. Miege.* Publications de l'Université de Provence, 1992.

Thomson, Ann. "La classification raciale de l'Afrique du Nord au début du XIXe siècle". *Cahiers d'études africaines,* 1993, XXXIII (1), 129. pages 19-36.

Turin, Yvonne. "Une page de publicité scolaire : la distribution de prix des écoles arabes-françaises à Alger en 1852". *Revue d'histoire maghrébine,* n°21-22, avril 1981.

Vatin, Jean-Claude. "Exotisme et rationalité : à l'origine de l'enseignement du droit en Algérie (1879-1909)". Dans J.C. Vatin et Al., *Connaissances du Maghreb - Sciences sociales et colonisation,* Paris, éd. du CNRS, 1984. pp.161-183.

ملحقات المؤلف

ANNEXES

LE CENTENAIRE

Caisse de célébration du Centenaire: Budget 1928, approuvé par le GGA[429] (budget plusieurs fois remanié mais intéressant à titre indicatif) :

<u>Dotation globale par section (1928-1930)</u>

Publicité par la presse	6 950 000
Propagande par le livre, affiches, les conférences, le cinéma[430] Radiodiffusion	3 500 000
Musique et sport[431]	2 000 000
Beaux-arts, archéologie[432]	4 000

[429] CAOM, 64 S / *82*
<u>Désignation des dépenses</u>
[430] Chap.3 Propagande cinématographique
art. 1 Édition d'un grand film sur le centenaire
art.2 Édition d'un film de propagande documentaire
[431] Chap.1er Manifestation musicale
art.1 Organisation d'un concours international de musique
Chap.6 Sport
Organisation match, rugby, foot, tennis, boxe, athlétisme
[432] Chap.2 Construction et aménagement des salles de musées
Chap.4 Édification de monuments commémoratifs
ex. Érection à Boufarik d'un monument à la gloire du génie colonisateur
Chap.6 Construction du musée des Beaux-arts à Alger

	000
Histoire	3 150 000
Institutions indigènes [433]	100 000
[autres sections non culturelles]	3 800 000
Total	83 929 000

Organisation de la propagande et de la publicité du Centenaire, Récapitulation des évaluations *de* dépenses[434]

1. Frais de publicité et de presse

Dépendant des conventions à intervenir entre le commissariat général et les Agences

2. Tournées de journalistes

200 000

3. Impression du bulletin mensuel

Achats de collection
Exposition rétrospective
Exposition d'œuvres d'artistes algériens

[433] Chap.5 Manifestation d'ordre indigène
Art.1 Subvention à un orchestre de musique arabe
Art.2 Aménagement d'une salle de danse arabe
Construction d'écoles professionnelles et d'artisanat
Ecole de poterie et de céramique

[434] CAOM, 64 S / 62.

60 000

Brochures + tracts

60 000

4. Concours littéraire

70 000

5. Livres d'art

400 000

6. Conférence de tourisme

400 000

de propagande

500 000

7. Cinéma

2 500 000

8. Radio

100 000

9. Affiche du centenaire (maquette, tirage …)

1 320 000

10. Affiche lumineuse

-- 11. Photo et

stéréoscopie 60 000

Cartes postales et timbre vignette

225 000

Réclames dans les panneaux de théâtres

75 000

12. Dépenses d'administration (3 ans)

300 000

Total (sauf publicité et presse)

6 270 000

غوستاف مرسيي Gustave Mercier، **المحافظ العام للذكرى المئوية، المندوب المالي، عضو المجلس الأعلى للجزائر:**

«انشغل المجلس الأعلى بإنشاء أعمال دائمة، لا تنقضي بانقضاء الاحتفالات، وتبقى شهادة على الجهد الذي بذَلَتْهُ، الحاضرةُ الفرنسية ومستدْمَرَتَها في الوقت نفسه، بمناسبة هذا الاحتفال التذكاري. سَتُسَجِّل هذه الأعمال، عبر بلاغة الوقائع، ولكونها ثمرةَ جهدهما المشترك، الاتحادَ غير القابل للانفصال بين فرنسا الحاضرة وفرنسا الأفريقية. إنَّ مصيرَيْ هذه وتلك، قد اتحدا إلى الأبد: ستكون كل واحدة كبيرة بالأخرى، وتُدْرك الجزائرُ جَيِّدًا ما تَدِينُ به لأمِّها فرنسا، لهذا هي لا تُفَكِّرُ، في أشدِّ أحلامها طموحا، أنْ تتحرر من سلطتها الشرعية. ماذا يمكن لهذه الأعمال أنْ تكون؟ هي تلك التي ستُشِعُّ أحسن داخل هذا البلد، بعبقرية الوطن-الأم، حاضرة الفنون والحضارة هذه: هي أيضا، تلك التي سَنُطلِع عليها، بشكل أحسن، زائرينا، وستمنح القيمة الكاملة لمواردنا الاقتصادية والفنية.لم يكن إذنْ، على ميزانية الاحتفال بالذكرى المئوية، أن تعوِّض ميزانية الجزائر، أو تشكِّل لسنة

1930، نوعا من الميزانية الثانية الاستثنائية، وإنما تحسين ما لم تنجزه جمعياتنا المالية، خلال مجهودها السنوي العظيم، في بعض المجالات ومنها الفن والفكر. ومن هنا جاء تصميم المتاحف، حيث يمكن للأجيال الجزائرية الشابة أنْ تتشبع بالتقاليد والفنون والأفكار الفرنسية، كما يُتاح للزُوَّار الأوروبيِّين الاهتمامُ بآثار ماضينا، وبتاريخ البلد وعِراقته.

سَنُنْشِئُ إذن، ثلاثَ متاحف كبرى بالجزائر العاصمة وقسنطينة ووهران، حيث يتأمَّل المرء جنبا إلى جنب، العَيِّنات الجميلة للكنوز الفنية لأوروبا القديمة، في الرسم والنحت، وأجمل نتاجات فنانينا المحليين، وكذلك ذخائر ماضينا، من آثار الهيمنة الرومانية، التي هي نوعا ما ألقاب شرفنا، وكذا عيِّنات من الفن الأهلي ومن حياة أصدقائنا المسلمين، وكل الأشياء التي سيحملها تيار التطور قريبا. سيكون، للجزائر العاصمة، من ناحية أخرى، ضمن الإطار الفاخر لفيلا باردو المحصَّلة من المستدمَرة، مَتحفُها الإثنوغرافي الخاص، حيث ستظهر في الموقع المناسب المجموعات ما قبل-التاريخية الرائعة المكتسبة من **م. ريقاس** Reygasse (...)

من المفارقة حقا، أنَّ مدينة الجزائر، عاصمة أفريقيا الشمالية، لا تتوفر على أيِّ قاعة تليق باسمها، لأجل التظاهرات الفنية، والمحاضرات، والحفلات أو الحفلات الموسيقية. أراد المجلس الأعلى للذكرى المئوية أنْ يسد هذه الثغرة. قاعة للحفلات، وفي الوقت نفسه قاعة للمحاضرات وسماع الموسيقى، بأحجام جميلة، لأنها ستحوي ألفا ومئتيْ مقعدٍ، ويطلق على شارعها اسم **لافريير** boulevard Lafferrière، في موقع المخابئ، حيث التعزيزات التي أصبحت بلا فائدة منذ عمَّ بالجزائر السلامُ الفرنسي، وتهنئ الذكرى المئوية نفسها لأنها قضت عليها. وستسمح هذه القاعة الدائرية، التي حُسِبَتْ أحجامها بنجاح، لمحاضِرينا ومؤتمِرينا الكبار، ولفنانينا، أنْ يُنْتِجُوا ضمن إطار يليق بهم وببساطته المقصودة ، ويليق بالعاصمة الجزائرية.

أراد المجلس الأعلى مجدَّدا، تزويد الجزائر بجهاز دعائي قوي، فتقرر إنشاء جهاز للبث الإذاعي، تكون إرسالاته أقوى ثلاث أو أربع مرات من إرسالات **برج إيفل**. ويمكن الاستماع إليها في جميع العواصم الأوروبية، وحتى أبعد من ذلك. سيكتمل بناؤه ابتداء من فاتح جويلية وخلال

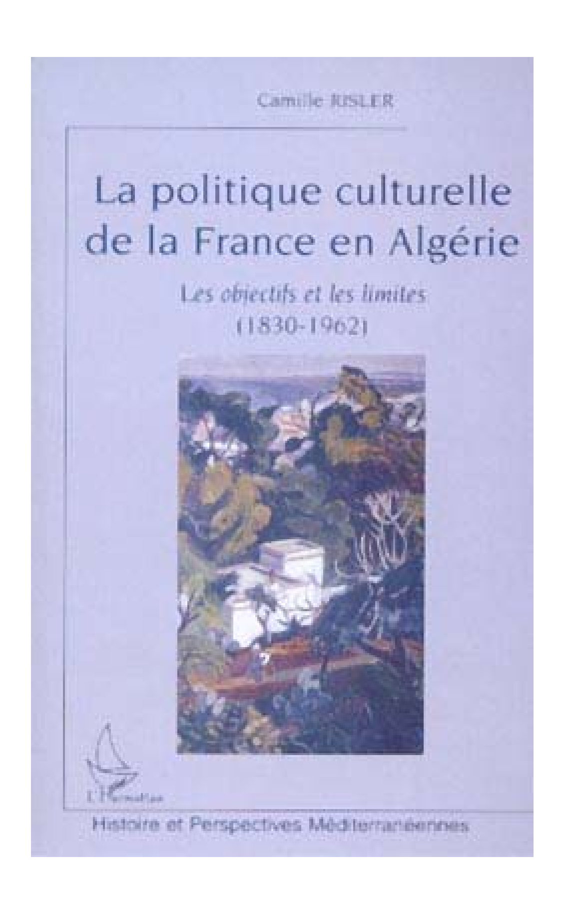
السداسي الثاني من هذا العام. ويمكن لجهاز **الكاليتوس** أنْ يقوم بدعاية الجزائر ودعاية الذكرى المئوية. مَنْ ذا الذي، لا يرى الفائدة الكبيرة لبلدنا في اكتساب أداة قادرة على إسماع صوت قوي إلى أبعد الأعماق في القارة السمراء؟ واستفادة حملاتنا الجزائرية في الوقت نفسه، ومزارعنا المعزولة، كل يوم، من حفلاتنا الموسيقية المحتَرمة جدا التي يقدمها فنانونا، ومن المعلومات ذات الطابع التجاري والمالي والجوي، إلخ... المبثوثة لاحقا عبر الفضاء؟ إنها سلسلة غير منظورة ولكنها صلبة، ستربط جميع البيادق المفقودة في الزوايا البعيدة جدا من البلاد الأفريقية.

وأخيرا، ركَّزَتْ الذكرى المئوية، رغبةً منها في بيان قيمة الثروات السياحية الفريدة لهذا البلد الرائع، جهدَها على عنصران في غاية الأهمية والجاذبية، وهما القطبان المتعاكسان للسياحة، بتباينهما المميِّز هو الآخر للجزائر: بلاد القبائل وجبالها (جرجرة) المدوِّخة، والجنوب واتساعاته الصحراوية. (...)»[435]

[435] CAOM, 64S/51, Commissariat général du centenaire de l'Algérie, L'oeuvre du centenaire.

عن المؤلِّفة:

كميلْ ريسليرْ Camille Risler فرنسية، من مواليد سنة 1975، حاصلة على شهادة الدكتوراه في التاريخ المعاصر من جامعة مونتريال بكندا، عن موضوع "الإدارة العامة للعلاقات الثقافية والعلمية والتقنية: تصميم وتنفيذ السياسة الثقافية الفرنسية بالخارج منذ سنة 1945".



عن المترجم والمعلِّق:

نذير طيار من مواليد 15 مارس 1967 بقسنطينة، أستاذ جامعي في الرياضيات، حاصل على 12 جائزة وطنية ودولية في الشعر، وثلاث جوائز وطنية في الفكر والحضارة، وجائزة في الترجمة من المجلس الأعلى للغة العربية. له مؤلفات منشورة في الترجمة والشعر والفكر والحضارة.

صدر في هذه السلسلة

1- جمال الجزيري: الإبداع والحضارة عند شكري عياد: نقد أدبي. دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني: ط1، أغسطس 2015

http://www.mediafire.com/?27a322saft098fi

2- أشرف إبراهيم زيدان: الرواية الكندية: مارجريت أتود نموذجا. نقد أدبي. دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني: ط1، أغسطس 2015.

http://www.mediafire.com/?k0bg2jqnplnqedk

3- جمال الجزيري: الحوار مع النص: جماعة بدايات القرن نموذجا. نقد أدبي. دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني: ط1، أغسطس 2015.

http://www.mediafire.com/?wwwg6eh7zes2iht

4- هيفاء حمَّاد: دراسات في ومضات قصصية. نقد أدبي. دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني: ط1، أغسطس 2015

http://www.mediafire.com/?22v2urjra5dp242

5- عبد الجواد خفاجي: تغريب القصيدة العامية: دراسات في الشعر اللهجي المصري. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، نوفمبر 2015.

http://www.mediafire.com/?sf5gveu3s4ujbbh

6- **جمال الجزيري: قراءة الثورة بأثر رجعي: دراسة في قصائد خديجة للسماح عبد الله. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، نوفمبر 2015**.

http://www.mediafire.com/?eldnoka028hlkb8

7- **جمال الجزيري: الزمن ودلالاته في شعر السمّاح عبد الله. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، نوفمبر 2015.**

http://www.mediafire.com/?857en6vzpycrau7

8- جمال الجزيري: تجليات الزمن في ديوان مديح العالية للسمَّاح عبد الله: دراسة ومعجم. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، نوفمبر 2015.

http://www.mediafire.com/?9xdza6zhvp6alhy

9- جمال الجزيري: الأدب والثورة: دراسة في رواية قُشتمر لنجيب محفوظ. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، نوفمبر 2015.

http://www.mediafire.com/?5mvtbc27gf71m1w

10- محمود الرجبي: وجهة نظر: في قصيدة الهايكو العربية. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، ديسمبر 2015.

http://www.mediafire.com/?g8yn6tzjeancebt

11- جمال الجزيري: مقدمة نقدية في قصيدة الهايكو: نقد أدبي. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، فبراير 2016

http://www.mediafire.com/download/5n9a2hyc4upa9h0/%D8%AC%D9%85%D8%A7%D9%84_%D8%A7%D9%84%D8%AC%D8%B2%D9%8A%D8%B1%D9%8A%D8%8C_%D9%85%D9%82%D8%AF%D9%85%D8%A9_%D9%86%D9%82%D8%AF%D9%8A%D8%A9_%D9%81%D9%8A_%D9%82%D8%B5%D9%8A%D8%AF%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D9%87%D8%A7%D9%8A%D9%83%D9%88%D8%8C_%D8%B71%D8%8C_%D9%81%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D9%8A%D8%B1_2016.pdf

12- أمجد نجم الزيدي (تحرير وتقديم): كوثاريا، المدينة والسؤال: دراسات وحوارات عن رواية كوثاريا لنعيم آل مسافر: دراسات وحوارات. دار كتابات جديدة للنشر

الإلكتروني: ط1، أبريل 2016.

http://www.mediafire.com/download/q18czkezji1ulvv/%D8%A3%D9%85%D8%AC%D8%AF_%D9%86%D8%AC%D9%85_%D8%A7%D9%84%D8%B2%D9%8A%D8%AF%D9%8A%D8%8C_%D9%83%D9%88%D8%AB%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%A7%D8%8C%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AF%D9%8A%D9%86%D8%A9_%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B3%D8%A4%D8%A7%D9%84%D8%8C_%D9%86%D9%82%D8%AF_%D8%A3%D8%AF%D8%A8%D9%8A_%D9%88%D8%AD%D9%88%D8%A7%D8%B1%D8%A7%D8%AA%D8%8C_%D8%B71%D8%8C_%D8%A3%D8%A8%D8%B1%D9%8A%D9%84_2016.pdf

13- حميد عقبي: السينما والواقع: قراءة نقدية لـ 24 فيلما يستحق المشاهدة. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، أبريل 2016.

http://www.mediafire.com/download/3j8qxw2muettglh/%D8%AD%D9%85%D9%8A%D8%AF_%D8%B9%D9%82%D8%A8%D9%8A%D8%8C_%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D9%86%D9%85%D8%A7_%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%A7%D9%82%D8%B9_%D9%82%D8%B1%D8%A7%D8%A1%D8%A9_%D9%86%D9%82%D8%AF%D9%8A%D8%A9_%D9%84%D9%80_24_%D9%81%D9%8A%D9%84%D9%85%D8%A7_%D9%8A%D8%B3%D8%AA%D8%AD%D9%82_%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B4%D8%A7%D9%87%D8%AF%D8%A9%D8

%8C_%D8%B71%D8%8C_%D8%A3%D8%A8%D8%B1%D9%8A%D9%84_2016.pdf

14- عبد الرحيم الماسخ: تسرية: مقالات فكاهية قصيرة. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، أبريل 2016.

http://www.mediafire.com/download/k30l1m7nsukayz6/%D8%B9%D8%A8%D8%AF_%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%AD%D9%8A%D9%85_%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%A7%D8%B3%D8%AE%D8%8C_%D8%AA%D8%B3%D8%B1%D9%8A%D8%A9%D8%8C_%D9%85%D9%82%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AA_%D9%81%D9%83%D8%A7%D9%87%D9%8A%D8%A9_%D9%82%D8%B5%D9%8A%D8%B1%D8%A9%D8%8C_%D8%B71%D8%8C_%D8%A3%D8%A8%D8%B1%D9%8A%D9%84_2016.pdf

15- جمال الجزيري: كلمات وتعبيرات مصرية: مقالات ومعجم مصغَّر في اللغة والثقافة. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، أبريل 2016.

http://www.mediafire.com/download/j53k25qwyl1zhz6/%D8%AC%D9%85%D8%A7%D9%84_%D8%A7%D9%84%D8%AC%D8%B2%D9%8A%D8%B1%D9%8A%D8%8C_%D9%83%D9%84%D9%85%D8%A7%D8%AA_%D9%88%D8%AA%D8%B9%D8%A8%D9%8A%D8%B1%D8%A7%D8%AA_%D9%85%D8%B5%D8%B1%D9%8A%D8%A9%D8%8C_%D9%85%D9%82%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AA_%D9%88%D9%85%D8%B9%D8%AC%D9%85_%D9%85%D8%B5%D8%BA%D9%91%D9%8E%D8%

B1_%D9%81%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D9%84%D8
%BA%D8%A9_%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AB%D
9%82%D8%A7%D9%81%D8%A9%D8%8C_%D8%B71%
D8%8C_%D8%A3%D8%A8%D8%B1%D9%8A%D9%84_
2015.pdf

16- نجيب طلال: في استحضار المسرحي محمد تيمد: مقاربة نقدية. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، أبريل 2016.

http://www.mediafire.com/download/usq42f69vb8flvy/%D9%
86%D8%AC%D9%8A%D8%A8_%D8%B7%D9%84%D8
%A7%D9%84%D8%8C_%D9%81%D9%8A_%D8%A7%D
8%B3%D8%AA%D8%AD%D8%B6%D8%A7%D8%B1_%
D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%B1%D8%AD%
D9%8A_%D9%85%D8%AD%D9%85%D8%AF_%D8%A
A%D9%8A%D9%85%D8%AF%D8%8C_%D9%85%D9%
82%D8%A7%D8%B1%D8%A8%D8%A9_%D9%86%D9%
82%D8%AF%D9%8A%D8%A9%D8%8C_%D8%B71%D8
%8C_%D8%A3%D8%A8%D8%B1%D9%8A%D9%84_201
6.pdf

17- مجموعة مؤلفين: قصيدة الهايكو عند محمود الرجبي: نقد أدبي. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، أبريل 2016.

http://www.mediafire.com/download/48ftebyoixc67b6/%D8%
AC%D9%85%D8%A7%D9%84_%D8%A7%D9%84%D8%
AC%D8%B2%D9%8A%D8%B1%D9%8A_%D9%88%D8
%A2%D8%AE%D8%B1%D9%88%D9%86%D8%8C_%D

9%82%D8%B5%D9%8A%D8%AF%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D9%87%D8%A7%D9%8A%D9%83%D9%88_%D8%B9%D9%86%D8%AF_%D9%85%D8%AD%D9%85%D9%88%D8%AF_%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%AC%D8%A8%D9%8A%D8%8C_%D9%86%D9%82%D8%AF_%D8%A3%D8%AF%D8%A8%D9%8A%D8%8C_%D8%B71%D8%8C_%D8%A3%D8%A8%D8%B1%D9%8A%D9%84_2016.pdf

18- عبد الرحيم الماسخ: الشعر الحديث: ضياء لا تفسره الظلال: مقالات نقدية. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، أبريل 2016.

http://www.mediafire.com/download/jyn2j9u69njv2f6/%D8%B9%D8%A8%D8%AF_%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%AD%D9%8A%D9%85_%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%A7%D8%B3%D8%AE%D8%8C_%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%B9%D8%B1_%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AF%D9%8A%D8%AB%D8%8C_%D8%B6%D9%8A%D8%A7%D8%A1_%D9%84%D8%A7_%D8%AA%D9%81%D8%B3%D9%91%D9%90%D8%B1%D9%87_%D8%A7%D9%84%D8%B8%D9%84%D8%A7%D9%84%D9%8F%D8%8C_%D9%85%D9%82%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AA_%D9%86%D9%82%D8%AF%D9%8A%D8%A9.pdf

19- فيصل سليم التلاوي: شوارد سانحة في اللغة والأدب: مقالات نقدية. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، أبريل 2016.

http://www.mediafire.com/download/g7u344c6osw60wd/%D9
%81%D9%8A%D8%B5%D9%84_%D8%B3%D9%84%D9
%8A%D9%85_%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%84%D8
%A7%D9%88%D9%8A%D8%8C_%D8%B3%D9%88%D8
%A7%D9%86%D8%AD_%D8%B4%D8%A7%D8%B1%D
8%AF%D8%A9_%D9%81%D9%8A_%D8%A7%D9%84%
D9%84%D8%BA%D8%A9_%D9%88%D8%A7%D9%84%
D8%A3%D8%AF%D8%A8%D8%8C_%D9%85%D9%82
%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AA%D8%8C_%D8%B
71%D8%8C_%D8%A3%D8%A8%D8%B1%D9%8A%D9
%84_2016.pdf

20- عبد الرحيم الماسخ: سلَّم الوصول: فكر لا يخصني وحدي: مقالات. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، أبريل 2016.

http://www.mediafire.com/download/4llsav4lm19vqdb/%D8%
B9%D8%A8%D8%AF_%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8
%AD%D9%8A%D9%85_%D8%A7%D9%84%D9%85%D8
%A7%D8%B3%D8%AE%D8%8C_%D8%B3%D9%8F%D
9%84%D9%91%D9%85_%D9%84%D9%84%D9%88%D8
%B5%D9%88%D9%84_%D9%81%D9%83%D8%B1%D9
%8C_%D9%84%D8%A7_%D9%8A%D8%AE%D8%B5%
D9%91%D9%8F%D9%86%D9%8A_%D9%88%D8%AD%
D8%AF%D9%8A%D8%8C_%D9%85%D9%82%D8%A7
%D9%84%D8%A7%D8%AA%D8%8C_%D8%B71%D8%
8C_%D8%A3%D8%A8%D8%B1%D9%8A%D9%84_2016.
pdf

21- خشان محمد خشان: العروض رقميا: بحث في منهجية الخليل. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، يونيو 2016.

http://www.mediafire.com/download/f1837eeajurh2ey/%D8%AE%D8%B4%D8%A7%D9%86_%D9%85%D8%AD%D9%85%D8%AF_%D8%AE%D8%B4%D8%A7%D9%86%D8%8C_%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D9%88%D8%B6_%D8%B1%D9%82%D9%85%D9%8A%D8%A7%D8%8C_%D8%A8%D8%AD%D8%AB_%D9%81%D9%8A_%D9%85%D9%86%D9%87%D8%AC%D9%8A%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%AE%D9%84%D9%8A%D9%84%D8%8C_%D8%B71%D8%8C_%D9%8A%D9%88%D9%86%D9%8A%D9%88_2016.pdf

22- سعد الراوي: هموم أهل مصر: تشخيص وحلول. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، يونيو 2016.

http://www.mediafire.com/download/167xtqhaak27k25/%D8%B3%D8%B9%D8%AF_%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%A7%D9%88%D9%8A%D8%8C_%D9%87%D9%85%D9%88%D9%85_%D8%A3%D9%87%D9%84_%D9%85%D8%B5%D8%B1%D8%8C_%D8%AA%D8%B4%D8%AE%D9%8A%D8%B5_%D9%88%D8%AD%D9%84%D9%88%D9%84%D8%8C_%D8%B71%D8%8C_%D9%8A%D9%88%D9%86%D9%8A%D9%88_2016.pdf

23- د. عبد الجليل غزالة: دراسات في الثقافة المغربية: دراسات نقدية. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، يونيو 2016.

http://www.mediafire.com/download/kq6wzzw2jgbuoip/%D8%B9%D8%A8%D8%AF_%D8%A7%D9%84%D8%AC%D9%84%D9%8A%D9%84_%D8%BA%D8%B2%D8%A7%D9%84%D8%A9%D8%8C_%D8%AF%D8%B1%D8%A7%D8%B3%D8%A7%D8%AA_%D9%81%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D8%AB%D9%82%D8%A7%D9%81%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%A9%D8%8C_%D8%B71%D8%8C_%D9%8A%D9%88%D9%86%D9%8A%D9%88_2016.pdf

24- نور الدين برقادي: عبق أوراسي: كتّاب من عمق الجزائر: بورتريهات. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، يونيو 2016.

http://www.mediafire.com/download/19v20gxh3fx9b0n/%D9%86%D9%88%D8%B1_%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86_%D8%A8%D8%B1%D9%82%D8%A7%D8%AF%D9%8A%D8%8C_%D8%B9%D8%A8%D9%82_%D8%A3%D9%88%D8%B1%D8%A7%D8%B3%D9%8A%D8%8C_%D9%83%D8%AA%D9%91%D8%A7%D8%A8_%D9%85%D9%86_%D8%B9%D9%85%D9%82_%D8%A7%D9%84%D8%AC%D8%B2%D8%A7%D8%A6%D8%B1%D8%8C_%D8%A8%D9%88%D8%B1%D8%AA%D8%B1%D9%8A%D9%87%D8%A7%D8%AA%D8%8C_%D8%B71%D8%8C_%D9%8A%D9%88%D9%86%D9%8A%D9%88_2016.pdf

25- إبراهيم بيشارة: الألعاب التقليدية والمكتسبات بالمغرب. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، يونيو 2016.

http://www.mediafire.com/download/wmblgq1thqhv029/%D8%A5%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D9%87%D9%8A%D9%85_%D8%A8%D9%8A%D8%B4%D8%A7%D8%B1%D8%A9%D8%8C_%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%84%D8%B9%D8%A7%D8%A8_%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%82%D9%84%D9%8A%D8%AF%D9%8A%D8%A9_%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%83%D8%AA%D8%B3%D8%A8%D8%A7%D8%AA_%D8%A8%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%BA%D8%B1%D8%A8%D8%8C_%D8%B71%D8%8C_%D9%8A%D9%88%D9%86%D9%8A%D9%88_2016.pdf

26- د. بهاء الدين محمد مزيد: إلا رمزا. نقد أدبي وفني وثقافي. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، أغسطس 2016.

http://www.mediafire.com/download/0mg8dq8zfcm8w07/%D8%AF._%D8%A8%D9%87%D8%A7%D8%A1_%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86_%D9%85%D8%B2%D9%8A%D8%AF%D8%8C_%D8%A5%D9%84%D8%A7_%D8%B1%D9%85%D8%B2%D8%A7%D8%8C_%D9%86%D9%82%D8%AF_%D8%A3%D8%AF%D8%A8%D9%8A_%D9%88%D9%81%D9%86%D9%8A_%D9%88%D8%AB%D9%82%D8%A7%D9%81%D9%8A%D8%8C_%D8%B71%D8%8C_%D8%A3%D8%BA%D8%B3%D8%B7%D8%B3_2016.pdf

27- د. عبد الجليل غزالة: الخطاب الإقناعي العربي المعاصر بين المتكلم والمخاطب: نحو مقاربة سيكوبلاغية: دراسات لسانية. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1،

أغسطس 2016.

http://www.mediafire.com/download/b71r7ehm39t84im/%D8
%AF._%D8%B9%D8%A8%D8%AF_%D8%A7%D9%84%
D8%AC%D9%84%D9%8A%D9%84_%D8%BA%D8%B2
%D8%A7%D9%84%D8%A9%D8%8C_%D8%A7%D9%84
%D8%AE%D8%B7%D8%A7%D8%A8_%D8%A7%D9%8
4%D8%A5%D9%82%D9%86%D8%A7%D8%B9%D9%8A
_%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8
A_%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B9%D8%A7%D8%
B5%D8%B1_%D8%A8%D9%8A%D9%86_%D8%A7%D9
%84%D9%85%D8%AA%D9%83%D9%84%D9%85_%D9
%88%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AE%D8%A7%D8
%B7%D8%A8%D8%8C_%D9%86%D8%AD%D9%88_%
D9%85%D9%82%D8%A7%D8%B1%D8%A8%D8%A9_%
D8%B3%D9%8A%D9%83%D9%88%D8%A8%D9%84%D
8%A7%D8%BA%D9%8A%D8%A9%D8%8C_%D8%AF%
D8%B1%D8%A7%D8%B3%D8%A7%D8%AA_%D9%84
%D8%B3%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A9%D8%8C
_%D8%B71%D8%8C_%D8%A3%D8%BA%D8%B3%D8
%B7%D8%B3_2016..pdf

28- نبهان رمضان: دراسات نقدية في مختبر سرديات المنصورة: نقد أدبي. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، أغسطس 2016.

http://www.mediafire.com/download/6qa5b2j0ajqcoa3/%D9%
86%D8%A8%D9%87%D8%A7%D9%86_%D8%B1%D9%
85%D8%B6%D8%A7%D9%86%D8%8C_%D8%AF%D8

%B1%D8%A7%D8%B3%D8%A7%D8%AA_%D9%86%D9%82%D8%AF%D9%8A%D8%A9_%D9%81%D9%8A_%D9%85%D8%AE%D8%AA%D8%A8%D8%B1_%D8%B3%D8%B1%D8%AF%D9%8A%D8%A7%D8%AA_%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%86%D8%B5%D9%88%D8%B1%D8%A9%D8%8C_%D8%B71%D8%8C_%D9%8A%D9%88%D9%84%D9%8A%D9%88_2016.pdf

29- كميل ريسلير: السياسة الثقافية الفرنسية بالجزائر: أهدافها وحدودها (1830-1962). ترجمة وتعليق: د. نذير طيار. دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني: ط1، أغسطس 2016.

فهرس